

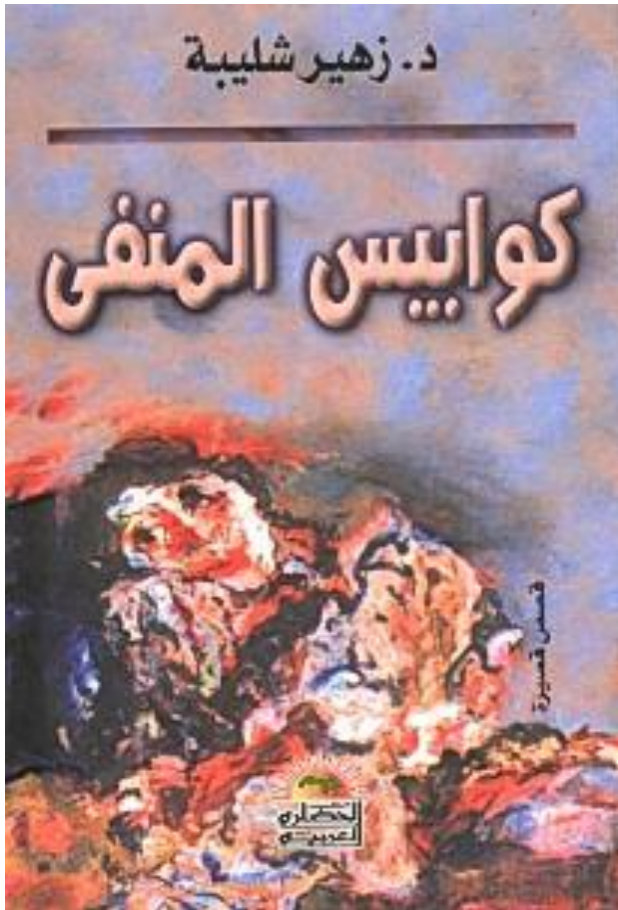
زهير ياسين شليبه

كوايس المنفى



لوحة الغلاف للفنان العراقي المعروف هادي الصك

دار نشر شرق غرب 2026



صورة غلاف الإصدار الثاني



موقع القصة العراقية 1997

لوحة مستوحاة من كوايس المنفى للكاتب الراحل عدنان المبارك 1935-2016

نُشرت كغلاف للمجموعة في موقع القصة العراقية 1997

Zouhair Shlaiba

**The Nightmare of Exile
Short Stories**

**Eksilets mareridt
Novellesamling
ISBN: 87-985964-3-8
2000**

شرق غرب للنشر

**Sharq Gharb Publishing House
ISBN: 978-87-971329-6-8
Denmark
2026**

المحتويات

7	ص	-----	المقدمة
8	ص	-----	المقدمة الشعرية
13	ص	-----	1 - ذاكرة البحر
37	ص	-----	2 - الواحة الخريفية
47	ص	-----	3 - مدرسة السياقة
62	ص	-----	4 - الغيوم
71	ص	-----	5 - الهروب
78	ص	-----	6 - العينان الدائريتان
88	ص	-----	7 - الصاروخ الحشبي
91	ص	-----	8 - الجزدان
98	ص	-----	9 - اللقاء والموت
113	ص	-----	10- المهاجر
119	ص	-----	11- لقاء في مكتب اللاجئين
125	ص	-----	12- حكم الاعدام
131	ص	-----	13- موعد ترجمة
155	ص	-----	14- قالوا عن كوايبس المنفى

إلى أمي وأبي

حقوق النشر للمؤلف كاملة!

لا يُسمح بإعادة الإصدار التصويري أو الإلكتروني أو أي شكل من الاستنساخ والنشر والاقْتباسات الطويلة والتوزيع إلا بأخذ الموافقة الخطية من المؤلف بموجب اتفاقات Copy-Dan دان كوبي السارية.

Fotografisk, mekanisk, eller anden form for gengivelse eller mangfoldiggørelse er kun tilladt ifølge gældende Copy -Dan aftaler.

هذه القصص نسيج غير مألوف. والسرد فيها يخلق الانطباع بأن القاص يتقمص دور الراوية التقليدي. إلا أنه راوٍ، ولا يهم هنا إن كان هو المتكلم أو المخاطب أو ضمير الغائب، يكسر الإطار التقليدي الصلب. إنه لا ينقل حكاية أو واقعة فحسب، بل يعيشها، والأكثر من ذلك ينسجها في حياته الداخلية. وفي فعل قصصي واحد يمارس شليليه تقنيات عدة أيضا.

إنها ليست عودة إلى درب القص القديم كما تبدو في الظاهر. ف(الراوية) يتوقف عن القيام بدوره لكي يقوم بفعل لا علاقة له بالسرد. إنه (التقاط أنفاس) عبر تداعيات معينة للأفكار والذكريات أو الأخذ بصبغة معينة من (تيار الوعي). إلا أن هذا كله لا يبدو البتة إقحاماً مفتعلاً على السرد الأساسي. أما لغة القص فيصعب العثور فيها على (المجرد) أو (الواقعي) بقلبه التقليدي الشائع. إنها لغة تفوح منها رائحة اليومي (المألوف) ونبضه.

ومن الواضح أنها لغة ذات تركيب خاص أملتها الغاية منها: السخرية ونزع أقدعة الإنسان بشقي أصنافها.

إنها ليست سخرية من بنات الاستقراء الذهني الصرف أو انعكاساً لمرآة ستاندارلية من النوع المقعر والمحدب، بل سخرية من يحاور نفسه بكلا الصوتين: الواطيء، الذي صقلته سخرية ناعمة، والآخر، الذي لا يخلو من التهذج وقمع السخرية لصالح الاستنكار. كذلك فهي سخرية قائمة وفق المنجز الأدبي، البسيكولوجي المعاصر.

وأبطال هذه القصص لا يستلون حكمتهم من الكتب، بل من تيار الحياة الفعلية، الذي يعرفهم في أحيان عدة. وفي الواقع يصعب فرز هذا النمط من الأبطال وتصنيفهم ضمن خانة (غريب) البيركامي أو اللامنتمي عامة، أو حشرهم في الخانات التقليدية الأخرى. فرغم الملامح الفيزيقية والنفسية وتلك اللغة وبعض القنوات التفكيرية نجدهم لا يمثلون نموذج الشارع الشعبي أو المكاتب من الطراز التشيخوفي أو الغوغلي. إن هويتهم أصبحت نتاجاً منطقياً لكيان إنسان عصرنا ومعادلته الحياتية. ومن هنا موقعهم غير الواضح تماماً، بين الفعلي الملموس والآخر الذهني التجريدي.

عدنان المبارك

الأحلام

قبل النوم أسيّرُ في علبِةِ السردين،
أسيّرُ السمكاتِ الصغيرةِ أنا،
أضعُ رأسي على وسادتي،
أضعُ رأسي على جناحِ نحلتي الصغيرةِ،
أطيّرُ مخلقاً في الهواءِ،
أطيّرُ مخلقاً في أحلامي،
أذكرها،
حلماً، حلماً،
حلماً، حلماً،
كالحبِ الأولِ،
عندما كنتُ صغيراً، كانتِ الشوارعُ تسكنني،
وكانتِ الساحاتُ في القلبِ،
وكان أحدُ الأحلامِ حلماً وردياً
وكان أحدُ الشوارعِ حلماً،
مليئاً بالحفرِ البابليةِ،
أسيّرُ على حوافها بحثاً عن بقايا سومرِ،
تنزلقُ قدمي اليمنى،
أقفُ على قدمي اليسرى،
أتعلقُ كقردِ الشمبانزيِ،
أتعلقُ بيدي اليمنى،
أمسكُ بها، أمسكُ حجارةً سومريةً
أمسكها من طرفها الصغيرِ،

تفتت في يدي،
أشم رائحة عشتار،
أسقط في الحفرة البابلية العميقة،
ألم قاتل في مؤخرتي،
قدمي، رأسي،
عيني، مخي، مخيخي،
أمسكه بيدي، أمسكه بيدك، أمسك بيدي، بيدك، بيدها، بيدهم
أقرأ في تلافيفه التاريخ البابلي،
أمسك كل الأشياء بيدي،
ولا أرى شيئاً منها، يا إلهي
عيني تنظر إلى عيني، أين عيني؟ أين الأشياء؟
عيني تسخر مني! أصرخ،
ولا أسمع صدى صرختي المدوية،
من فم مليء بالرمل،
عبثاً تحاول السلحفاة أن تخرج رأسها منه،
عبثاً تحاول الأفعى أن تطلّ بأنيابها منه،
أصرخ وأستغيث،
يا إلهي،
أمي، أبي،
أين أنتما؟
والسلحفاة صارت تمساحاً،
يفتح التمساح فمه،
يكسر فكّي الأعلى،

يصيرُ التمساح ديناصورا،
والديناصور لم يُبق في فمي شيئا غير لساني،
لساني لسانُ حالي،
مطر، رعدٌ وبرقٌ
يا إلهي، أمي، أبي، أبي
يخرجُ الديناصورُ من بيضة تتكسرُ في فمي،
فَمي لم يعد فَمي،
والرمل لم يعد رملي،
وقشور البيضة لم تعد قشوري،
تشرقُ الشمس من بعيد،
من بعيد جدا، من هناك حيث الأجداد،
أرى خطوطها الذهبية من خلال الستائر،
لم أعد أبالي للأشياء المتناثرة،
والآلام في فم مليء بالرمل،
عبثاً تحاول السلحفاة أن تفلت منه.

Roskilde 1990

الحنين

كان لي هناك في قلعة النار والدمار،
بيت عصري، على سطحه تنور،
تشوي فيه أمي الأسماك،
وأحرق فيه بين الحين والآخر،
الآهات والكلمات والأسرار،
وتخبز فيه أمي الخبز كلما تشتاق إلى أمها،
وديارها وماضيها،
ألسنة نيرانه التهمت كلَّ شبابي.

كان لي هناك في بلاد الجليد،
مهجع خرب، فيه كتب كثيرة،
وأوراق، ووثائق وأعناق،
ومغلفات بريدية، تحتضن أسراراً،
لم تعد تُشترى أو تُباع،
 وأنواع الغليونات،
وبرامس، وتشايكوفسكي، وفيفالدي، وبحيرة البجع،
والمعلم ومارغريته، وكتب أخرى،
ومستنسخات سولجينيستين الممنوعة،
وصراصير وفئران،
مياه مكسوة بالصدأ المصفي بالصدأ،
قصصٌ كتبت على الحيطان،

في أيام الأعياد،
أعياد الميلاد والانتصار على الفاشية،
وكتب سماوية،
وأشياء أخرى حفظتها لي ناتاشا،
في صناديق كارتون بنية باهتة،
جرفتها مياه المواسير المصدأة المنخورة في ليلة من ليالي البيروسترويكا القارسة،
هي وهو الأحلام،
والرهان على أشياء كثيرة،
لم تعد تعني شيئاً، في صخب الزحام.

Moscow
1986

ذاكرة البحر *

هجمتُ الوسوس عليه مرةً واحدةً على حين غرة. عنوةً! هكذا وبدون سابق إنذار. انقضت عليه فجأةً كجحافل جيش عزمرم. عندما يباغته القلق في الليل على غفلة منه ليسرق من عينيه النوم، تتزاحم الصور واللقطات المتحركة بسرعة البرق في خياله، صور فيها الحلو والمر، وتأخذ الظنون مأخذها منه، يضرب أحساساً بأسداس، ويبدأ أسفاره البعيدة، إلى هناك حيث الحب والكره والشكوك والكثرة من تنائر الأشياء فوق مياه البحر والبحث عن الأرواح والأصالة والتزاهة والامتلاك في الأمواج المتلاطمة ...

ويكاد العقل يفسد. يتلف من كل شيء، يا إلهي ما أصعب أن يخرب العقل. وتكاد الحياة تنتهي، ويُنزوي المرء خائفاً كالفأر الباحث عن ملاذ هرباً من القطط. كان الظلام يخيم على هذه الغرفة الكبيرة، أغمض عينيه وكانت تتراءى له قطط سوداء تمنع النظر إليه بصمتٍ كأنها تستعد لهجومٍ كاسح ومباغتٍ بدون ترقب أو انتظار. يسود الصمت مكان القطط وكانت لغة العيون هي الأقوى، كنَّ يتطلعن إلى بعض بنظرات مريبة، فيها كلام كثير، متفق عليه، كالعجائز الغاضبات على كئنهن عندما يرمقنهنَّ بعيونهن المتوجسة في حضور الغرباء، قطعت إحداهن حبل الصمت فجأةً بكلمة ذات إيقاع غريب ومخيف لم يفهم معناه كاملاً .

صحيح أنه لا يتقن لغتهن إلا أنه اعتقد دوماً أنه يستطيع أن يخمن موضوع أحاديثهن، يبدو أن هذه القطاة الناطقة ذات خصال قيادية ونظرات عدوانية، قالت أمره رقيقاًتها الأخريات بصوت حاد ومقلتين متسعيتين وذيل مرتفع قليلاً: ميو ميو ميو ميو ميو ميو. فكّر أن الكلام كله قد يعني: أيتها القطط! هجوم! هجوم! هجوم! ابتسم لهذه الفكرة ممعنا النظر في طريقة جلوس القطط الصدامية كأهن كشماعات أو نمرات أو لبوات متأهبات متربصات بطرائدهن! وقال لنفسه "يا ويلي، يا ويلي، أية مصيبة هذه.!"

كان صاحبنا يتمتم بين نفسه كلاماً كثيراً غير مفهوم، غامضاً يشبه الشعر. لم يتذكر منه شيئاً غير عبارات لها علاقة بصورة القطط الأخيرة، حرص أن يسجلها. نهض من فراشه وكتب ما جادت به ذاكرته على قصاصة ورق وجدّها على منضدة عمله، كتبها:

القط الأسود لا يموء،

يلتزم الصمت مكتفياً بالنظر بحدقتيه الواسعتين المريبتين،

يهجم إن شئت،

يقفز كالنمر بكبرياء،

كأنه يحمل ينوء،

يغمز، يلمز برياء،

يرقص إن أردت،

على أسلاك الكهرباء.

رمى الورقة في سلة المهملات مبتسماً بسخرية. عبثاً حاول التخلص من الأشباح والوجوه، تتراءى أمام جفنيه المغلقين، بل في مخيلته صور وأشباح كثيرة، تقف خلف القطط السوداء، وجوه كثيرة، تهمز الكيان. نساء ورجال، شباب وشابات، وعجائز وشيوخ، عيون تشل الحركة، ويقول لنفسه "يا ترى ماذا لو... لا، لا، لا يمكن أن يكون هذا، لا.. هذا مجرد هراء وشكوك" وكاد أن يصرخ حين تراءى أمام ناظره وجه ذلك الإنسان محدثاً إياه، وضع يديه على عينيه، أغمضهما بقوة، أراد أن يججب النظر عنهما، تصوره واقفاً أمامه، حاول التخلص من وجهه. لم يستطع. "أ لهذه الدرجة تمقته أو بالأحرى تخافه؟ هكذا أخذت بك الظنون، ويحك يا رجل!". ابتسم ل "ويحك" هذه كأنه يتهكم منها أو من قائلها، ذلك الصوت المهزوم.

هكذا كان صاحبنا يتمتم بين نفسه وكانت الصور ترد عليه تتري، تتحرك بسرعة البرق، يهرب منها حيناً، يحاول الإمساك ببعضها تارةً أخرى لكن دون جدوى. دُهِشَ لسرعة حركة اللقطات متذكراً كيف كان مهووساً بالتصوير أيام زمان. يختار المشاهدَ للبشر متنقلين هنا وهناك، والشجر في الشتاء حيث تتساقط الثلوج، الوجوه حمراً والأجساد متعطشة للدفع. وفي الربيع حيث تبرعم أغصان الأشجار الباسقة وتفتح الأزهار في كل مكان يزهو الشباب فرحين يتراکضون، ثم يحل الصيف حيث جريان الماء في النهر، وأمواج البحر والعموم اثناء تساقط الأمطار وقطرات الماء اللامعة على الوججات الوردية المحروقة بفعل اشعة الشمس .

ويأتي الخريف متناغماً مع قصص الحب وتناثر الأوراق الصفراء على الأرض والعشاق يقفون تحت الأشجار السامقة في عناقٍ تتساقط عليهم قطرات المطر. يلتقط مئات الصور بالأسود والأبيض ويجمّض الأفلام بنفسه ثم يطبعها سعيداً كأنه شاهدٌ على ولادات جديدة وظهور ملامح الفرح والحزن على الوجوه. ودّ لو كان باستطاعته الآن تصوير كل اللقطات في خياله ثم تحميضها وتشبيتها بالمخاليل وأخيراً طبعها بجهاز طباعة الصور المكون في غرفته، يا ليت!

أجل، كان يحدّث نفسه بهذه الطريقة، وكانت لغة الحوار الصامت عصيةً، عليه أن يغوص فيها ليمسك بتلابيبها لكنها جميلة، تحمل في طياتها وما بين سطورها أشياء ومعاني كثيرةً، فيها أنغام كثيرة، مختلفة الإيقاع، والمفردات واللغات واللهجات من الشرق والغرب وجبال القوقاز حيث يقطن خليط من العرب والفرس والشاشان والأسيتينيين والجيورجيين والأرمن والكرّد والترك، لغات فيها نورانية الماضي وقدسيتها، وآمال رهيبة، غامضة، ليته يقف عند حروفها ومخارجها .

تفلت المشاهد من زمامه، يحاول متابعتها، اللحاق بها، يهرع خلفها، يهرول، يركض وراءها ولكن ما من جدوى، كان القدر أقوى وكان الخيال واسعاً والذاكرة ضعيفة، بل مهترئة وعقيمة لا تسع لكل هذه اللقطات السريعة، شعر بما تتراکض كالخيول الجامحة، تتردد في عقله عبارات وجمالٌ جاهزةٌ صارت بالنسبة له مثل الكلائش وهراء من قبيل:

عُقمُ الذاكرة وصرأُ الأجيال والآمال،

عُمر يناهز العشرة أعوام،
كلب يبيحث عن الوفاء،
حب يرفض الأختام،
ختم الذاكرة المرّة،
ختم الخمرة،
في وجوه مليئة بالخمرة،
والموت الرزّام،
للمرأة الحرة،
والندماء،

ما هذا الهراء، ما هذا الهراء؟ يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!

كان هناك صوتٌ ما يردد هذه المهلوسة، يلقيها كالشعراء في قاعة تعج بالناس، وكان يقول لنفسه "يا ربي خلصني من هذه الصور ودوخة الرأس!" ولكن دون جدوى، أراد أن يعيد ذكرياته إليه، أو بالأحرى أن يعود هو إليها، إلى تلك البقع الهلامية الغامضة.

رجع بالذاكرة إلى الوراء بعيداً: شهر، شهرين، سنة، سنتين، ثلاث، أربع، خمس، ... عشرة أعوام، بل أكثر. ياله من انتصار، يكاد عقم الذاكرة يندحر. "لو كنتُ امرأةً عاقراً لرقصتُ وغنيتُ". لماذا؟ "تسأل لماذا؟ إذا كان بالإمكان التخلص من عقم الذاكرة ألا يمكن إذن علاج العقم بشكل عام؟!"، عشر سنوات في الهلام، عشرة أعوام في الأحلام، أنا من ضيّع في الأحلام عمره .

تذكّر أحداثاً مختلفةً، ومشاهد كثيرةً، شعر بالتعب الشديد، بالإرهاق المضني، بالجوع القاتل، بالعطش كما لو أنه عاد لتوه من رحلة صحراوية.

نُحِض من فراشه الدافئ، خرج من غرفة النوم متجهاً نحو المطبخ، انتبه إلى اختفاء كتابه "شرح المعلقات العشر"، احتار للأمر، كان يقرأ به يوم أمس، نظر إلى ساعة الحائط، أو الميقاتة كما كان العرب القدامى يسمونها أيام زمان. كانت الميقاتة تشير إلى الساعة الثالثة صباحاً.

"يا إلهي! ماذا سأفعل؟ كيف سأنام". تذكر أن عليه أن ينهض مبكراً ليذهب إلى عمله، حزن كثيراً، عيناه لم تريا النوم وازدادَ حزنه أكثر، لن يغلبه النعاسُ اليوم. شعر أنه لن ينعم بالنوم هذه الليلة. تذكرَ صديقه الفنان الوهّان "الحزنان القلقان صاحب العينين اللتين لا تنامان!"

وابتسمَ ابتسامَةً رقيقةً صغيرةً ثم ضحك، أعجب بهذه العبارة العزيزة على قلبه، كان يرددها كلما كان يرى زميله في الدراسة يشكو من الأرق.

مرة أخرى قال مبتسماً لنفسه بصوت خافتٍ "الله يذكرك بالخير يا عدنان يا فتان يا وهّان يا صاحب العينين اللتين لا تنامان...!". وتذكر الكلمات التي كان أصدقائه يضيفونها إلى هذه العبارة الكليشة: "الشیطان، الحردان، السرحان..". وكانوا في حالات التألق وجلسات السمر في منزل الطلبة يضيفون الكثير من المنوعات السياسية ويكتبونها في رسائل يوجهونها إلى الرؤساء والمسؤولين العرب ساخرين منهم ومن طغيانهم .

كان هؤلاء الطلاب محرومين من جوازات السفر، ناقلين على حكوماتهم. وكان أحدهم يرسل لهم أجمل الرسائل الانتقادية الساخرة اللاذعة، بعض المرات يكتبها بعدة لهجات عربية، يخلط العراقية بالمصرية والشامية، لا يمل ولا يكل، أبدأ، يبحث عن عناوينهم هنا وهناك ويكتب لهم شهرياً في العطل الصيفية ما يحلو له من انتقادات، يضع رسائله في مغلفاتها، يلصق الطوايع ويكتب العنوان عليها ولا ينسى أن يضيف "مع الشكر الجزيل لساعي البريد المحترم" ويرميها في صندوق البريد، يرفع يديه إلى السماء متضرعاً علامة الرضا والامتنان لنفسه وهو يقول لصديقه الذي يآتمنه على كل شيء، "هذا أضعف الإيمان، الحمد لله رسائل هذا الشهر تم إرسالها". "شباب ما عندهم لا شغل ولا عمل غير الضحك واللهو في العطل الصيفية" قال لنفسه معلقاً على هذه الذكرى، التي مرت على باله كالطيف.

فتح صديقنا الثلاثة باحثاً عن شيء ما يأكله. بقي واقفاً أمامها ناسياً ما كان يريد، احتار للأمر واستمر يفتش عن شيء ما يسد الرمق، كان كالعادة شارد البال، صافناً ونسي الأمر. أغلق باب الثلاثة ثم فتحه من جديد، أخذ ينقر الباب بإصبعه محاولاً أن يتذكر شيئاً ما يمكن أن يتناوله. لاحظ شيئاً موجوداً داخل كيس بلاستيك، موضوعاً في الثلاثة، توقع أن يكون مليئاً بشرائح الجبن المستطيلة، أخذه بيده، شَعَرَ أنه قطعة قوية ومستطيلة، حدّق النظر فيه، فتحه بدافع الفضول، ظنّ أنه من قطع اللحم المقدد، وجدّ فيه كتاباً مغلفاً، أخذ الكتاب من الثلاثة، تصفحه قليلاً، وقعت نظراته على:

"خولة أطلال ببرقة ثمهد تلوح كباقي الوشم في ظاهر اليد"، كتاب الزوزني عن المعلقات، تذكر طرفه بن العبد، ماذا كان يأكل طرفه بن العبد؟ وفي أنصاف الليالي؟

حاول أن يتذكر شيئاً ما يمكن أن يراه من الطعام وأن يكون صالحاً للأكل في هذه اللحظة.

لم تسعفه ذاكرته بشيء، لكنه فكّر كثيراً بطرفه بن العبد، "لماذا شُغِلَ بهذا الشاعر الولهان، الحزانان؟" يا ترى هل هو ظلم ذوي القربى؟ ابتسم ابتسامةً سخريةً قائلاً لنفسه "عليك ألا تأكل شيئاً يقوّي الذاكرة وينشطها".

وقعت أنظاره على حبات "بروفين" و"بورالجين" و"فولتارين" و"توفالجين"، فكر أن يتناول شيئاً من هذا القبيل على معدة خاوية. تراجع عن الفكرة.

أغلق الثلاثة بعد أن أخذ شريحةً من شرائح الجبن الهولندي، كانت موجودةً في كيس آخر تحت الكتاب، قال لنفسه "البركة في هولنده". تذكر امرأً القيس، يا ترى هل كان هو أيضاً يعاني من القلق والأرق؟ هههه! هذا اللاهي الصايغ الضايغ! كان مشغولاً بمحضياته وشوائه ونسائه.

وياوم عقرتُ للعذارى مطيتي
فيا عجباً من كورها المتحمل
فجئتُ وقد نصت لنوم ثيابها
لدى السِترِ إلا لبسة المتفضل

فتح الثلاجة من جديد، أغلقها وأعاد الكرّة وكأنه تذكّر أمراً، كان يعرف ماذا يريد في هذه المرّة،
آلام ظهره فاقت حدودها، تناول حبة منوم و"بوراجين"، يا ترى أية حبوب كان زهير بن أبي
سلمى يتناول ليكتب هذا الكم الهائل من شعر الحكمة؟ ضحك لهذا الأمر متوجها نحو فراشه.
تناول مجلة كانت بجانبه، مليئة بصور مدينته القديمة. حاول أن يقرأ، إلا أن عقله كان سارحاً
بعيداً عن النص.

تذكر ذلك الشاب الطويل أو "الطنطويل" كما يقول بعض الناس هناك تحكما وازدراءً منه
ومن الطول والطنطل، وتذكر "أنا مش قصير و أزعه، أنا طويل وأهبل!"

وتذكّر كيف كان يسأله بعض الأسئلة، وكيف تحدّث معه، لم يشعر آنذاك بشيء من القلق رغم
المخاوف الكثيرة، ثم نساه ولم يفكر به. لم يفكر بشيء وقتها، كان مشغولاً بأمر كثيرة: العمل،
الأسرة، المستقبل، الهومو... حتى هذه الأخيرة والقلق كانت ذات مذاق خاص، كان لها نكهة
جميلة.

يا ترى هل ستبقى رائحة جريد النخيل وسعفه بعيدة المنال، وعبق الدفلى في حديقتنا، تلك
الشجيرات الجميلة الصامدة، ورائحة اليباس؟ اللهم طولك يا روحي!

وتذكر رياح "الشرجي" والسموم الهابة على بيتهم "مكفخ شمس" كما كان والده يسميه مفتخرًا،
وتذكر سخرية زميله الشامي، يقول غارقاً في ضحكه: "لك، كيف تحوّلون الشرق إلى شرج؟
والشرقي إلى "الشرجي"؟ المعنى كله يتغير! هههه!"

وتذكر تلك الأرواح هناك ومقهى "المعقدين" ومقاهي شارع أبي نواس في بغداد، تذكرها واحدةً
تلو الأخرى، وبدأ يشعر بالإرهاق والحذر وعدم قدرته على متابعة الصور والحوارات والذكريات.

صارت عيناه ترغزلان، ورأسه يهتز نحو الأعلى والأسفل، يغيب عن الوعي قليلاً وانحدر بالتدريج
مثل السمكة المنزلفة بين الكفين، شعر بنفسه كأنه يغرق في ظلام دامس عميق، مقلته تحلقان
في فضاء العتمة، بياض العينين وحدهما يبدوان واضحين يغوصان في بحيرة سوداء عميقة، مغمورة
بالطين الأسود.

أخيراً شعر بالخدر والحوار واستسلم وزال عنه ألمه وحزنه، شعر بالفرح يغمره وهو نائم. أجل هو راقد الآن لكنه لم يثق بالأمر بعد، لم يصدق أنه نائم حقاً، بل إنَّ الفرحَةَ اختفت وحزن من جديد حزناً عميقاً متصوراً نفسه لا يستطيع الرقاد وتذكّر قصة إحسان عبد القدوس "لا أنام"، شاعراً بغصّة وحسرة وألم في قلبه خائفاً من السكّنة الدماغية أو القلبية.

عاد الأمل إليه مرة أخرى شاعراً بالسعادة والطمأنينة. تأكد من نومه محاولاً تلمسَه أو النظر إليه وكأن النوم فعلاً يمدُّ نفسه إلى جانبه. تأكد حقاً من نومه، فرح للأمر. كان قلقاً بعض الشيء، قال لنفسه بحزن "قد يكون هذا النوم مجرد أكذوبةٍ أو حلم ليس إلا، لكنه الآن واثق من الأمر، بل شعر أنه يمكن له في المستقبل أن يشتري النوم في السوق، أو يقترح على التجار أن يستوردوه من الأوروبيين! لم لا، هؤلاء حلّالو المشاكل، لكن بدون حبوب منومة ومواد كيميائية، أريد أن أشتري النوم مثلما نتبضع بالمعلّبات والحضروات واللحم، والفواكه، والدسم، والزفر!". وتخيّل النوم كالبادنجان والبامية لكنه صعب عليه أن يتصور شكله بالضبط ولونه وأقنع نفسه انه أسود غامق كالليل .

كان يعوم، يعوم بعيداً، بعيداً، في العمق الدافئ، أراد أن يستمرَّ في السباحة، إلا أنه فكّر في العودة إلى الشاطئ، أخذ يلعبُ في الماء مثل الأطفال، ضربَه بكفه اليمنى وصار "يطبش" بكفتي كفتيه، ثم أرخى جسمه ماداً إياه على ظهره فاتحاً يديه ورجليه ليأخذ قسطاً من الراحة، تصوّر أن سمكة القرش بدأت تقترب منه، تحيّلها تهجم عليه، قال لنفسه "متشائم وخائف". بدأ يسبح من جديد مهدوء. توقف عند صخرة، كانت قريبة من شاطئ البحر، جلس عليها إلى جانب بعض المصطافين، يتمازحون بالكلام والحركات، يترامون بالكرات الصغيرة ويتدافعون نحو الماء، شبان وشابات، شيوخ وعجائز وأطفال، بشّر لا همّ لهم سوى الراحة والاستجمام وإرخاء الأعصاب كما يقولون.

خروج من البحر متجهاً نحو مكانه على الشاطئ، انتبه إلى ذلك الرجل، سلب لَبّه، نظر إليه ملياً، شابٌ طويلُ القامة، عريض المنكبين، أبيض اللون، ذو عينين تنمّان عن هدوء يوحي بالخبث، ودّ لو يكلمه، أن يسأله، أن يعرف منه الحقيقة "هكذا إذن؟ بكل هذه البساطة؟ ماذا

ستقول له؟ عن أية حقيقة ستسأله؟ ماذا ستحدثه؟ هل ستلمح له: "أنا الفار لعب بعبي" وما دخله هو بالموضوع؟ بالتأكيد أنه سيجيبك: "وأنا مالي؟ الله أنا مالي؟" كما يقول المصريون. وكيف ستوجه له مثل هذه الشكوك؟ ويحك يا رجل، هل أخذت الظنون مأخذها منك إلى هذه الدرجة؟"، وسخر مرةً أخرى من "ويحك" هذه!

في اليوم التالي رآه أيضاً على الشاطئ، أشقر الشعر، فيه برود ولا مبالاة، بل عدم الاكتراث بالآخرين، فيه شيء من الأنانية... الخسة والخيانة والانحطاط "إنه قادر على اعتراف شيء من هذا القبيل.

وما المانع؟ القيم؟ العادات؟ الأخلاق؟ الدين؟ لا، لا، كل هذه الأمور عبارة عن مفاهيم مطاطية لا يكتثر لها" يا ترى ما الذي جعله يفكر بهذه الطريقة عن الآخرين؟
حكّم على هذا الأشقر بالأنانية والخبث واللامبالاة ولولا خجله لقال عنه: "الطول طول النخلة والعقل عقل الصخلة!"

ابتسم مع نفسه قليلاً، ودّ لو يتطلع إلى نفسه بالمرآة ليرى انفراج شفثيه وبشاشة وجهه في حالة الحزن. كانت المرأة المستلقية إلى جانب هذا الأشقر لا تختلف هي أيضاً عنه كثيراً، "تبدو خبيثة" قال لنفسه، ثم أردف "كلهم خبيثاء"، ثم شعر بتأنيب الضمير، قال لنفسه لائماً إياها "أترى كيف وقعت في الكُره واللاموضوعية؟"

كان الوجوم والكآبة يخيمان عليهما. منذ مدة طويلة لم يكلم بعضهم بعضاً، إلا عند الضرورات، لم تكن تبالي له ولم تهتم به، كأنها تعيش لوحدها. لم تتذكره إلا عند الاستعانة به، أراد أن يكلمها عن موضوع ما، لم يعرفه بالضبط، غيّر رأيه ليرى النتيجة بنفسه.

قد تتغير الأحوال نحو الأحسن ويرجعان إلى ما كانا عليه، لا تشوب علاقتهما شائبة، هكذا كان يفكر أو يتمنى ويحلم، إلا أن الأيام كشفت له غير ذلك، عادت إلى سلوكها اللامبالي تجاهه، قرر هو أيضاً ألا يعيرها اهتماماً، كانت تستمر في تجاهلها له كما لو أنها لا تشعر به إطلاقاً ولا تحس بوجوده .

عندها يزداد غضباً وغيضاً وحنقاً، يتعمق شعوره بالوحدة والاعتزاب والملل والسأم والكآبة والظلم والغبن "كل هذا، مرةً واحدة؟" يا ترى أين العاطفة الجياشة؟ أين تلك الأشياء الجميلة التي كانا نينعمان بها؟ يبدو أن الحياة كلها مصالح ورغبات مؤقتة .

واسودّت الدنيا بوجهه! همّ أن يخرج في تلك الساعة المتأخرة من الليل، أراد أن يتأكد من الوقت، نظر إلى ساعة الحائط، كانت تشير إلى الحادية عشرة مساءً "لا بأس، سأخرج قليلاً". قبل أن يخرج ذهب إلى الشرفة المطلة على الشارع، كانت السماء ملبدة بالغيوم، وازداد المطر غزارةً. صوّب نظراتٍ هـ إلى هناك حيث البحر، لم يرَ شيئاً إلا أن أصواتاً فرحةً، حبلى بأشياء كثيرة كانت تصل إلى مسامعه من بعيد.

"لا بد أنهم يعمون الآن!" تذكر تلك اللحظات، كانا يخرجان فيها معاً، يمشيان تحت المطر بينما تتساقط أوراق الشجر الصفراء على رؤوس البشر، يسيران على أكوامها المتساقطة في الخريف كانت تأخذ بعضاً منها متأملَةً إياه يبريق عينيها الرومانتيكيتين، ململمةً شفيتها غير مبالية بسيول غيث السماء، المزن ينصبُّ بغزارة كالشلالات، يهرولان مسرعين .

وعندما يصلان إلى البحيرة كانت عيناها تقولان: المبلّل لا يخاف المطر! يخلعان ملابسهما، يعموان بعيداً، بعيداً، بعيداً لا يهابان العمق والعممة كما يذهب به خياله الآن. "السباحة تحت المطر... يخالها من هواية جميلة، لا بد أن الماء دافع الآن". أخذ منشفته وملابس السباحة متجهاً نحو البحر، أغلق الباب مهدوء، شعر بما تدير رأسها صوبه، سمعها تسأل بنبرة ساخطة:

- إلى أين أنت ذاهب؟

- إلى الشارع...

- لا تتأخر. أريد أن أنام.

أغلق الباب وراءه بدون أن يردّ عليها بشيء. تركها وحدها وآلامها، تفترسها الوحشة والوحدة والأوهام، لم يكن يفكّرُ بذلك ولم تكن تريده، ما حاجتها له وما رغبتها به، عندما يواجهها بهذه الهواجس تنكرها مرةً واحدةً، ترفضها، تقولُ له "هذه مجرد تهيؤات، أنت غلطان أو تبحث عن حجج وتبريرات حتى تطلع من البيت لوحدهك".

يسير لوحده في الشارع مع تكهاناته، الهطلُ ينهمر، الجو دافئ، السماء ملبدة بالغيوم السوداء، أصوات الفتيات والفتية تنطلق بين لحظة وأخرى من تجمعات مختلفة حول منضدة البليارد أو كشك لبيع أشياء يجلبها الشباب، الأغاني الجماعية تنطلق من حناجرهم بمختلف اللغات إلا العربية، العرب كالعادة مشغولون بأشياء أخرى، كانوا يرددون مع صديقاتهم أغانيهن بلغاتهن، أو يتجولون على شاطئ البحر أو يجلسون معهن في أماكن خاصة يعم فيها الكسل والركود أو يحاولون أن يخلوا أو يخللوا قضاياهم المصيرية بحماس جالسين على مقاعد خشبية خاصة للشيوخ والعجائز والحوامل، بينما الآخرون يركضون في مسابقات رياضية تحت المطر. وفي هذه الأثناء يُسمع صوت شاب رياضي ينادي الشباب الجالسين العرب بلغتهم وبلكنة إسبانية واضحة:

– يله شباب، خلاص، خلاص فلسطين أرييه ... سهيونيه ... ريازه، ريازه، سبورت، سبورت!

ويغرق الجميع في الضحك، يفرح العرب كثيرا، يعدّونه مديحاً. ضحك هو أيضا.

* * *

تذكر كيف كانت أمه العجوز "ترجم" له أفلاماً تشاهدها في التلفاز! كانت الوالدة المسنة مغرمةً بمشاهدة الأفلام الحربية، تترجم له حوارات الأبطال الروس والألمان من لغة لا تعرفها إلى العربية بدون أخطاء كثيرة!

هي في الحقيقة تشرح الفيلم أو ترجمه "بتصرف"، وكانت الأم تنغمر بهذه اللعبة الجديدة مسليةً نفسها وهي تقضي الوقت كله لوحدها في هذه البلاد الأوروبية القارسة البرد.

كان يقول لها "يا أمي الله يخليك، خَليني أقرأ، أنا أفهم كلّ الكلام، لا تترجمي لي، الله يخليك خَليني أكتب.." "لكن دون فائدة، لا أحد يقدر أن يوقفها عن ممارسة هوايتها الوحيدة عندما تكون لوحدها في البيت بينما كان يجلس ابنها أمام منضدته مستغرقاً في البحث والكتابة .

كانت والدته تترجم لها، ابنة البلد أباً عن جد، الأفلام وكلّ شيء! وكان الجميع يضحك منها ويسميها "الترجمة"، إلا أن حبيبته الشابة الجميلة كانت فرحة للغاية بهذه الأم العجوز وملابسها

الشعبية الطويلة السوداء. كانت تجلس إلى جانبها متطلعةً إليها بعينها الزرقاوين ساعاتٍ والسعادة باديةً على ملامح وجهها الأبيض الدائري المحاط بشعر أشقر، كث وطويل.

أمه تقول عنها: “كأنها مدامه، الوجه أشقر والعيون زرقاء ووسبعة والخشم بلوطه، يُمّه حتى الحائط يَحْتَل عليها”. كان الجميع يغرقُ بالضحك عندما تتحدث والدته معها وتحكي لها قصصاً طويلة بالعربية .

يكرر لها دوماً قوله: “يُمّه، هذه البنّت ما تعرف عربي! تفهمن؟ هي ما تعرف تحكي عربي”. تندهش الأم، كأن صاعقةً أصابتها، تتغير ملامح وجهها كلها وتعاتب متسائلة: “معقول؟ مسكينه! كل هذا الجمال والعيون الحلوة ولا تعرف عربي! الله أكبر! زين ليش ما تعلموها عربي؟ الناس عندنا كلهم يعرفون عربي: كرد، عجم، مسيحيين، حتى اليهود كانوا عندنا يعرفون عربي والله أنتم أمركم عجيب غريب! أصلاً حتى الهنود يعرفون عربي عندنا، كلهم تعلموا عربي. السبب منكم مو منها.”

لم تكن الحبيبة الشقراء الجميلة تنزعج منها ولم تُبِد مللاً، تحب أن تسمع قصصَ العجوز الأم، تحب الشرق وسحره، لم تكن تعرف شيئاً من العربية لكنها بعد عشرة سنة شهور مع أمه صارت تفهم الكثير. زادت الأم من “ترجمتها” لكل ما تراه ويقال في التلفاز عندما تجلس معها الشقراء بعد أن تتعب من كتابة فصول أطروحتها، كانت الأم العجوز تقول عنها بثقة عالية بالنفس: “إي، معلوم، هيك واحده حلوه، لازم تفهم الأفلام وتتعلم عربي!”

كان يقول لها: “يا أمي قلت لك ألف مرة هي تفهم أفلام التلفزيون لأنهم يحكون نفس لغتها، لغة أمها وأهلها بس ما تفهم كلامك أنتِ لأنها ما تعرف عربي، بس هي تجاملك وتقول لك: نعم، نعم! هي ما تفهم عليك، فهمت يا أمي!؟”

تُفاجئ الأم مرة ثانية عندما تفهم أن الفيلم في التلفاز ليس بالعربية، تتمم في صوت منخفض وهي ترتب عصّابة رأسها السوداء “آني عجوز ما أفهم شيء، والله حسابي هذا الفيلم بالعربي، وآني أشرح لها، عيني ساحوني، آني ما أفهم شيء”. ويغرق الشباب في الضحك.

كانت الفتاة الشابة الشقراء تؤنبه واضحة إصبعها البيضاء على فمه: "أسكت، كف عن ذلك، دعها تشرح لي الفيلم، إنك لاتفهم معنى الأحاسيس، أنت تغيضني، مجنون حقاً!" وكانت تقول لهم إنها سعيدة بهذا الشرح و"الترجمة" وتفهم كل ما تقوله لها الأم العجوز من خلال إيماءاتها وتعابير وجهها. لكن أين هي أمه الآن؟ "آه كم دوخت رأسي يا أمي! أين أنت الآن؟ هل لازلت تتكلمين وتترجمين؟"

الحزن يلفه، والكآبة تسيطر عليه، شعر أن وجهه يبدو حزينا عندما رمقته إحدى الفتيات بنظرة مستفهمة، وأجواء المرح والفرح والموسيقى حوله، ترتدي الفتاة تنورة قصيرة، عيناها الخضراوان حيويتان، كأنها تعاطفت معه وأرادت أن تساعد. قال لنفسه "ماذا أفعل؟ إنه قدرتي!". يشعر بحجم المأساة كبيراً، ودَّ لو يدخل في أعماقها كما تمخر السفينة عباب البحر.

* * *

وجد نفسه يهرول باتجاه شاطئ البحر، ازداد هطول المطر غزارةً وغزارةً وتعلت أصوات الشباب يغنون في الشارع، كان المطر يشكل إيقاعات من نوع خاص، شعر بالفرح لبرهة، أحسَّ أن روحه تحلق عالياً، قال لنفسه "مطر، مطر، لكن أين غابات النخيل؟ حتى النخلة الجميلة الحبيبة يفتست منا". تذكر نخلة عبد الرحمن الداخل في الأندلس وشوقه لها.

أخذ يعوم بحبوية ونشاط وسرعة، وصل إلى مسافة بعيدة، نخلة بيتهم القديم تتراءى أمام ناظره، تذكر كيف كان يتسلقها ويقفز منها إلى سطح الدار، كان صغيراً جميلاً آنذاك لم يعرف الخوف يوماً، أمه تصرخ وتولول:

- محمد، محمد، دير بالك على نفسك، انزل، دهر فرك، راح أحرق روحي إذا ما تنزل!

كان ينزل بسرعة إليها ليطمئننها، ليقول لها إنه لا يزال حياً يرزق، تحتضنه أمه وتشتمه قائلة "أفتيش! شلون ربحتك طيبة!"

سرح بخياله أثناء العوم، تذكر أمه، يا ترى ماذا لو رأته والدته في هذه الظلمة الدهماء يعوم في البحر تحت زخّاتِ المطر الغزيرة، هل ستحرق نفسها؟ كما تقول. وامرؤ القيس، من أين جاءك أيها البدوي الصحراوي هذا الخيال؟

وليل كموج البحر أرخى سدوله عليّ بأنواع الهموم ليبتلي

تذكر أمّه والهموم وخوفها شاعراً بسدول البحر. ضحك مع نفسه، استمر في العوم، صورة أمه وأسماك القرش لا تغيب عن خياله، تقف أمامه تناديه محذرة إياه، وسمك القرش يقترب من كاحل قدمه اليمنى، تحولت مخاوفه إلى مشاعر تقترب من الحقيقة.

همّ بالعودة إلى الشاطئ، حذرته امرأة عجوز، ماردة جبارة، تحب الحياة والبحر وتحذر منه، هوايتها المفضلة: السباحة في الليل وفي أعماق البحر، امرأة عجوز شمطاء، لكن لا شيب في شعرها، تلبس الأحمر في النهار وتزين وجهها وتقرأ الروايات مستلقية على الشاطئ، تمارس السباحة كلّ يوم فجرًا وبعد منتصف الليل. تذكر أمّه، يا لها من امرأة مسكينة، حصلت على شهادة الابتدائية، تقرأ وتكتب لكن ما الفائدة؟ صارت ترجع إلى الورا ولا همّ لها غير تأمين الطعام لأطفالها، كبرت قبل عمرها وضاع شبابها كأنها تتسابق مع الزمن إلى قبرها، ملّت حياتها، لكنها "تترجم" وتفسر كل شيء بطريقتها الخاصة بها!

هذه أمي، مترجمة ومفسرة وناقدة أفلام!! إنها ماركة خاصة! ماركة حقيقية غير مزورة!" هكذا كان يقول محدّثاً أصدقائه عنها.

"حبلت أمي وأنجبت عشر مرات" وحملت ثلاث مرات دون أن تنجب، مات الجنين في المرة الأولى، وسقط في الثانية ولا أحد يعلم أسباب موته في الثالثة. حكى محمد في إحدى المرات قصص ولادات أمه وإسقاطاتها هذه المرأة الأوروبية العجوز، تتزين وتركب الخيول وتأخذ الحمامات الشمسية في النهار وتعود في الليل. أراد أن يخيفها، "عسى ولعل تفقد وعيها وأخلص منها و من محاضراتها" قال لنفسه مبتسماً إلا أنها لم تُعزّ للأمر أهمية، تعجب محمد من لا مبالاتها.

قالت له إنها لا تصدق! وعندما أكد لها صحة الخبر كاد يغمى عليها، وقالت له "إنها أم بطلة"، لو كانت هنا في بلدنا لأعطاها وسام الأم البطلة"، ثم أردفت مؤكدةً " لا تتصورني أمزح أو أبالغ.

صدقني لو كانت والدتك مواطنتنا لحصلت على أكثر من وسامٍ وامتيازاتٍ" قالت ذلك محرّكةً رموش عينيها المكحلتين كأنها طفلة صغيرة تتوقع التغزل بها أو تدليعها من المقابل. نظر محمد إلى لمعان وجهها من أثر مراهم العناية بالجلد، كانت أصابعها ناعمة الملمس وأظافرها طويلةً مطلية بالأحمر.

تذكر أمه مرة أخرى، وهي أيضا كاد يغمى عليها عندما أخبرها بأن اللحم المشوي الطيب، الذي أكلته بشرهة في إحدى الرحلات إلى الغابات لم يكن لحم بقر ولا غنم، ولا عجل.

كادت أن تفقد صوابها وتتقيأ لولا أن زوجته قالت له:

- لا، حرام عليك، هو يمزح وإياك.

- الحمد لله. الله يخليكم، هذا أكيد لحم إسلام؟

- طبعاً، طبعاً!

كانت العجوز المتزينة في النهار وتعموم في أنصاف الليالي تحب الخضار وتقرأ الكتب عن الطعام المغذي وأنواع التدليك وال "زونه ثيرابي" لا تعرف الذبح الحلال ولا هم يحزنون وتجيد الغنج والدلال، من هواياتها المفضلة الركض والفروسية وطبعا الغطس والعموم في الليل، وهي أهم ما لديها في حياتها، كانت تقول عنها: "إنها سياحة وليست سباحة، سياحة الأفكار والأحلام!"

لم تنسَ هذه "الابليسة" أن تسأله كعادتها: "أين هي؟ تخاف عليها حتى في الليل؟ قالت له ضاحكةً: "يا لك من إنسان شكّاك، أم تُراك خائف منها؟ أيها البدوي!" لم يجبهها، أثر الصمت، ماذا يمكن أن يقول لها، عضوة في نادي الغواصين منذ ثلاثين سنة!! لم تحفّ على بكارها منذ

صغرها ولا على جسمها من البرد والمبيت في الغابات وتسلق الجبال والغوص في أعماق البحار، أي امرأة هذه؟ إنها تغوص في البحار وتسبر أعماق النفس البشرية.

- وفي المناسبة، ماذا يفعل الناس في نادي الغواصين هذا؟

سألها ببرود مباحكاً إياها في إحدى المرات، أجابته بامتعاض مندهشةً لسؤاله:

- كيف ماذا يفعل؟ إنه ناد يجمع الناس، الذين يجيئون تعلم السباحة في الأعماق والغوص... ماذا يفعل؟ ياله من سؤال! ولماذا لا تدخل في النادي؟ أنت لا تجيد السباحة وتحتاج لتمرين ودراسة وإذا أحببت فأنا سأكلم مدير النادي، القبول في النادي ليس سهلاً لكني سأكلم المدير، ستلقى عليك وعلى الأعضاء الجدد محاضراتٌ ودروسٌ علمية نظرية وتطبيقية.

قال لنفسه ساخراً: "إنها الطامة الكبرى، هل تريدون أن تلاحقني الدروس حتى في السباحة؟ من المحتمل أننا سندرس الفلسفة والمادية التاريخية!!"

رجع إلى البيت، فتح الباب بجدوء، دخل ماشياً على رؤوس أصابع قدميه، بدأ يخلع ملابسه الملبللة، وقف عارياً، أراد أن يدخل الحمام، فاجأته بوجه متجهم متورم، وعينين قلقتين، قالت له بصوت حاد، كانت تضغط على مخارج الحروف وكأنها تخرج من بين أسنانها:

- طلبت منك أن ترجع بسرعة. كيف تتركني وحدي وتروح إلى البحر وأنا قلقك عليك؟

وضع إصبعه على فمه مشيراً إليها بالصمت قائلاً:

- الناس نيام. أسكتي من فضلك. ونامي.

تمتت بكلمات لم يفهمها، إلا أنه سمع عبارتها الأخيرة:

- هذه هي الثقافة والأخلاق. ناس ما عندهم إحساس ولا ضمير... ألا تخاف علينا؟

تذكر سؤال العجوز الشمطاء "تخاف عليها أم منها؟" ابتسم شاعراً بالشوق لأحاديثها. ما هي لحظات حتى استسلم للرقاد بعد أن أخذ حمامًا دافئًا.

جاء إليه جازؤه، كلاوس الألماني، زميله في الدراسة. دعاه إلى البحر. "في هذا الوقت المتأخر؟" قالت له متسائلة، إلا أنه لم يبال لها، فتح الباب بجدوء وتراجعت هي إلى الورا، وكان شبحها واقفاً أمامه، حاولت أن تمنعه من الخروج، حذرته من أسماك القرش، نظر إليها بعينين قاسيتين قائلاً لها:

- لا تقفي حجر عثرة بطريقي، لا تعترضني ... أريد أن أتعلم الغوص، مفهوم؟

أخذها يعومان بعيداً بعيداً، أين صديقه؟ صاح بصوت عالٍ، نادى باسمه، كان يأتيه جواب آخر، كان يسمع صوتاً ناعماً، يتحداه، أدار وجهه، رأى امرأة شابة، تسبح في الماء مثل الدعاميص والبرمائيات، قالت له بنبرة ساخرة:

- صديقك عاد إلى الشاطئ! أخائف أنت مثله؟ أمستعد العوم إلى تلك الطوافة الحمراء؟ إنها ليست بعيدة، أنا عضوه نادي الغواصين، لن يصيبك مكروه إن كنت معي، سأكون جنبك.

لم يكثرث لأمرها، أراد أن يتأكد من صحة كلامها عن صاحبه، "يا ترى هل عاد حقاً إلى الشاطئ أم حدث له مكروه؟ كيف اختفى بهذه السرعة" وأخذ ينادي باسمه بصوت مفجوع:

- حميد! حميد!

- ها! ها! آني هنا، لازم أرتاح، ما أقدر أسبح، تعبت ...

اطمئن عندما سمع صوت صاحبه حميد، واصل العوم مفكراً في وضع كلاوس الألماني، أين اختفى ومن أين ظهر حميد؟ اقتربت منه البنت الشابة هامسةً في أذنه وجسدها ملتصق به "تحاف؟" استفزته، كيف لا وهو البدوي الشهم:

ويفوق جاهلنا فعال الجهل

أحلامنا تزن الجبال رزانه

انطلق نحو العمق و"أرخی عليّ سدوله!" يالك من فنان، كانت لديه رغبة كبيرة في الصراخ: امرؤ القيس، أبو القروح، ضيعني صغيراً وحملني دمه كبيراً! اليوم خمر وغدا أمر! ... كان الصدى

يتردد في مسامعه، خيم الهدوء على المكان لفترة من الوقت، شعر بالتعب، مدَّ جسده على ظهره ليأخذ قسطاً من الراحة، كان جسمه يطفو على الماء، شعر أنه قريب من الحدود التركية في الجهة الثانية من البحر الأسود، كان يسمع بعض الأغاني التركية، فرح كثيراً لسماعه هذه الألحان، تربت لها مسامعه، أغمض عينيه مندجماً بأنغامها وإيقاعاتها وأصوات الأمواج المتلاطمة.

سرعان ما تبدد هذا الهدوء بضربة قوية لم يشعر بها إلا من خلال موجة قوية من الماء، انقطعت سلسلة أحلامه الرومانتيكية الوردية، لم يبقَ منها شيء، لا الأغاني التركية ولا أي شيء آخر. كادت الموجة تقلبه، تملكه الخوف، بل الفزع والهلع والرعب والانهيار "حجته واحده" كما يقول المصريون، وتمتم بين نفسه بتلقائية "أنا أخوك، إنوخذنا!"، تذكر كلام أمه "دهر فرك"، شعر أن الدهر "يفره" فعلاً في هذه المرة، تذكر كلامها، تلك النائمة في فراشها، "احذر سمك القرش"، تذكر عضوه نادي الغواصين والشابة الساحرة بجماها "سأكون إلى جانبك" أين هي الآن؟ نظر إلى الخلف، شعر بالوحدة والفزع يلقّانه، تمنى لو يستطيع أن يتمرّى في المرأة فيرى الموت في عينيه.

جالت نظرائه في الظلام بحثاً عن عضوة نادي الغواصين، لم يجد أثراً لها، ذابت كالمح في الماء، قرّز السباحة نحو الشاطئ بهدوء، هدأ نفسه "لا تُرغ يا صديقي لا تُرغ فليس في الأمر من الروع"، تذكر طه حسين، ضحك مع نفسه، بل ضحك من نفسه، "هل تراك خفت؟ تخاف عليها أم منها؟ والقضية؟ ألا تخاف منها؟ والقضية ألا تخاف عليها؟"

شم رائحة شيء ما، رائحة غريبة من نوعها، ليست عطراً ولا طيباً، بل إنها إفراز لا يوحى بشيء واحد، بل بأشياء كثيرة غامضة، نورانية، لها شيء من القدسية "يا إلهي"، إنها رائحة الموت، صارت قوية للغاية، شعر بشيء مثل الإغماء، فقد وعيه، لكنه لم يحس بالألم خاصة من أعراض الموت أو مقدماته، كان يجد نفسه في غيبوبة مريحة، وجسده في حالة استرخاء لطالما حلم بها، شعر أيضاً بالأسى لمداومة الموت هكذا بغتة وبدون سابق إنذار وتمنى لو كان من الممكن أن يتراجع الموت عنه أو يغير رأيه أو يتأجل قليلاً ليكون أكثر استعداداً له أو على الأقل ليتهيأ له

وليستمع بسكراته، أراد أن ينتشل جسده من هاويته إلا أنه تراجع قائلاً لنفسه مهدئاً إياها " كل شيء له وقته وكل شيء بوقته حلو".

رَأَيْتُ الْمَنَايَا خَبَطَ عَشْوَاءَ مِنْ تُصَبُّ ثُمَّتْهُ وَمِنْ تَخْطِيءِ يُعْمَرُ فِيهِرَمِ
وَمِنْ هَابِ أَسْبَابِ الْمَنَايَا يَنْلِنُهُ وَإِنْ يَرِقُّ أَسْبَابِ السَّمَاءِ بِسَلَمِ

لكنه بشكل عام لم يكن متأسفاً بكل ما تعنيه الكلمة لدرجة البكاء والولولة أو العويل والنواح والنحيب والندب. هذه أمور لم يشعر بالحاجة لها، بل كان يحس بنوع خاص من الفرح أو الألم المفرح والسعادة. وإنه في حقيقة الأمر محظوظ للغاية على التمتع بهذه الفرصة الذهبية، ذاق طعم الموت وكان مذاقاً خاصاً يصعب وصفه وتصويره، شعر بروحه ترتقي إلى السماء وهمد جسده وابتسامته ترتسم على ثغره. شعر أنه يرى وجهه وشفتيه الورديتين ونظراته المتأسفة، تماماً كما يراها في المرأة وأنَّ السعادة الحقيقية تغمُرُه.

كان متأسفاً لمفارقتة الحياة وشعر أنه كان من الممكن أن يعيش سنواتٍ أكثر فقد يلتقي بأبيه ويعوّض أعوام الفقد والفراق وقد يلتقي بأمه من جديد فتترجم له بعض الأفلام، إلا أنه في حقيقة الأمر فرح لأنه حسَّ أن البسمة لم تفارق شفتيه ولأنه شعر بالرحيل الأبدي وجزيه وعرف ماذا تعني آلام المخاض والولادة.

شعر بنفسه كما لو أنه أنجب الموتَ وحاول أن يتصور شكله ويديه وأصابعه وأظافره وجسده وكيفية إنتشاله لكن دون جدوى. ومع ذلك لم تنته سعادته وانتهت كل الأوجاع بسرعة البرق. وكان يحس عندما أخذته يد المنون بأنه محظوظ، بل سعيد للغاية رغم أسفه. عُقد لسانه، لم يعد بمقدوره أن يحدث أصحابه عن لحظة الموت بكل دقائقها وتفصيلها ويفشي أسراره، وكان حزينا ايضاً لمفارقة الحياة وهذا أمر مفهوم طبعاً. "الروح عزيزة" هكذا كانت والدته تردد دائماً.

لم تدم الفرحة طويلاً، انتهت حالة الموت، كان مؤقتاً، يبدو أنه تأجل وشعر بالتشبث بالحياة من جديد وحزن كثيراً لهذا الأمر وأحسّ بنفسه بأنه يهبط إلى أسفل السافلين وأنه يعود لها بعد رحلة فراق قصيرة، لكنها عميقة كأعماق البحر وباطن الأرض وبُعد السماء، كان سعيداً لعودته إلى

الحياة لكنه خائف وحزين في الوقت نفسه، عليه أن يعمل ويتراخض من أجلها وأن يقوم بأمور عديدة، وقد يُضطر لاقتراف جرائم وجنایات، وقد لا يصمد أمام الأوباش والطغاة والعصابات.

حاول أن يرخي أعصابه كما كان معلم السباحة يقول له عند نزولهم من السفينة الصغيرة وسط أعماق البحر، "استرخ! استرخ!" لم يكن يؤمن بهذه العبارة، "كيف يرخي الإنسان أعصابه؟ وفي هذه اللحظة حيث يمكن أن يتعرض فيها للغرق؟ هذا أمر غير ممكن!" هكذا كان يقول لأستاذه، لكنه كان مشاكساً في الدرس، ضاحكاً، أما الآن فقد بدأ يتأكد من صحة نصائح المدرب.

معلم السباحة دائماً يقول لهم: الإرادة هي أهم شيء، رجال الفضاء ينامون ويستيقظون كما يريدون وحسب البرنامج وليس حسب مزاجهم"، كان الطالب يضحك من هذا الكلام، يضحك ملاً شديقه، يقول: "هؤلاء بلاستيكيون وليسوا بشرا عاديين".

"والآن، اضحكْ بعبك" كما يقول الشعبيون، يا ترى ماذا تعني عبارة: "حُشْ بعيي! اضحك بعبك!" ههه! يعني: كما تريد؟ بكل إرادتك؟

استمرَّ في السباحة مسترخي الأعصاب محاولاً أن يرسم تلك البسمة التي رآها أثناء موته القصير، على شفثيه الصغيرتين، وتمنى أن يرى وجهه في المرآة وفكر قليلاً بتاريخ الإنسان واكتشافه للمرآة، إلا أن ضربةً أخرى قلبته على عقب، وأخرى مسَّت جسده وثالثة خدشته ورابعة جرحته وخامسة أفقدته صوابه، صار يصرخ "حميد، حميد، تعال إليّ، يا ناس ساعدوني، الله يخليكم، النجدة، امرؤ القيس!"

نادى باسم البنت الغواصة، دون جدوى، حبيبته الشقراء تصغي لشرح والدته عن الأفلام تنظر إليه بطرف عينيها مبتسمة بتهكم غير مبالية له، لا من مغيث ولا معين، تعالى صراخه من شدة الألم، رفع رأسه، همَّ أن يضرب بيده اليمنى، شعر أن يداً ناعمة تمسك به وكأن شبحاً يقف أمامه، قالت له ضاحكةً:

- خير يا طير؟ طول عمرك حاسب نفسك عنتر بن شداد تضرب بسيفك!

سمع ضحكاته ابنة قائلاً لأمه:

- انطيني السيف يا ماما!

أخذ الأب يجول بنظراته في أرجاء الغرفة، كانت تقف إلى جانبه، لم تكن شبحاً، بل كانت هي كما عهدتها، في مزاج رائق، قالت له فرحةً:

- جئتنا رسائل كثيرة من الأهل، واحدة من أمي وأبي والثانية من أمك، كلهم بخير ويقولون بستاننا بدى إلى عامر، تعالوا واشبعوا من التمر والبرتقال وكل شيء...
ثم أردفت تسأله ضاحكةً:

- كان عندك كابوس؟ من هي التي أخذت عقلك؟ ما بالك تتحسس رجلك؟ أكلتها؟ لا، اطمئن، لن تأخذ منك رجلك!

وانطلقت ضاحكة متجهة مع إبنتها إلى المطبخ، كان يسمع حديثها مع ولدهما وكأنها تتحدث إلى شخص كبير.

لمس قدميه، تأكد من سلامتهما، لازالتا صحيحتين، "الحمد لله لم يأكلها سمك القرش إذن" وعضوة نادي الغواصين؟ وكلاوس وحميد، ابتسم مع نفسه، نهض ليغسل وجهه، هل معقول؟ هل معقول أن يعود الإنسان إلى هذه الذكريات القديمة؟

جلس إلى مائدة الطعام لتناول الفطور، انتبه إلى الساعة تشير إلى التاسعة صباحاً، تطلع إلى الشارع من خلال باب الشرفة، لاحظ أن طبقة الرمال الأصفر عالية، والغبار كثير، "يبدو أن الغبرة قوية"، قال لنفسه، كان ابنه البكر يجلس إلى جانبه، تمنع في نظراته، صارت تتسم بالنضج، يبدو عليه أكبر من عمره بثلاث سنوات مثلاً، أجل يبدو عليه في السابعة من العمر، هذه أول مرة ينتبه لهذا الأمر، الأم تجلس في الجهة الثانية من المائدة، مشغولة بإطعام صغيرها، بأذرتهم الأب قائلاً وابتسامة صغيرة تعلق شفثته:

- البارحة سافرت إلى البحر!

توقف الأب عن الحديث. أراد أن يستعيد اللقطات، "وماذا بعد البحر؟"، هبّ الابن الأكبر متسائلاً باحتجاج:

- ليش ما أخذتني وإياك؟

- خليلي أتذكر يا ابني، وين أنا كنت!

أخذ الابن يبكي بينما صارت الأم تهدؤه:

- أي بحر هذا يا ابني؟ البحر بعيد عنا، أنت تعرف احنه نعيش هنا في الصحراء والبحر بعيد من هنا! أبوك كان يحلم،

ثم اردفت قائلةً وهي تضحك ملاً شديقتها:

- ومن يدري، ممكن يكون حلم بأشياء أخرى! كُلّ هذه البيضة واشرب الحليب، وأنت إن شاء الله ما حلمت بأشياء أخرى..

قالت عبارتها الأخيرة لزوجها، بينما كان الابن الأكبر يجول بنظراته المستفهمة في عيون والديه. قال الأب لزوجته:

- تصوري، شفت البحر، سبحت في الأعماق، تذكرين زميلتك الألمانية، شفتها هي وزوجها، يبين عليك نسييتها؟ معقول أن تكوني نسييتها؟ البنت اللي كانت تسكن في الجهة الثانية من المدينة، معقول نسييتها؟

دُهِشَ الزوج من ضعف ذاكرة زوجته، دُهل! كيف يمكن أن تنساها، صحيح كان ذلك قبل ولادة ابنها البكر لكنها كانت زميلتها في الدراسة، توّدها كثيراً. قالت الزوجة بعد تأمل:

- آ، تذكرتها، عجيب غريب، إشلون تذكرتها؟ مستحيل أنساها، كانت زميلة دراسة طيبة، الله، فعلاً كانت شابة رائعة، تصوّر، ما كنت أميل لها في البداية ولكن بعد فترة من تعريفي عليها صارت من أفضل صديقاتي.

قال الابن البكر بحماس:

- بابا، تتذكر اشلون كنت ألعب في مدينة الألعاب، تذكر حديقة الحيوانات؟

ثم أردف متملماً:

- أوه، ياربي، هنا ماكو لا مدينة ألعاب ولا حديقة حيوانات!

قال الأب مقاطعاً ابنه ممزحاً إياه "ما تكفيك الحيوانات داير مدايرنا؟ هالمزة تريد حديقة حيوانات؟" أجاب الطفل على الفور "إي بابا إي! أريد حديقة حيوانات!" وغرق والداه في الضحك، ثم أردف الأب يقول لها:

- أتذكر أني رحنت إلى البحر آخر مرة مع كلاوس الألماني، تتذكرينه؟ نسيتيه؟ كلاوس الألماني اللي كان يكتب عن غسان كنفاني، وكنت أساعده، تذكرينه؟ المهم جاء كلاوس وإياي للبحر وسبحنا في العمق ولكن فجأة اختفى كلاوس وصرت أصرخ باسم حميد، وطلعت لي واحدة، ملامحها تشبه زوجة فيليب، إي نعم تذكرني بزوجة فيليب، أكيد تذكرينها، هذه اللي عندها هوايات غريبة مثل الغطس والرقص! المهم أغرتني في السباحة هناك في أعماق البحر، فجأة اختفت، أردت الرجوع إلى الساحل، شعرت بشيء ينهش رجلي، وكان جسمي يتقلب في الأمواج بسبب ضربات قوية ما عرفت من اين، قلت لنفسي: لازم أرخي أعصابي وأتمالك نفسي، وفعلاً استرخيت، صارت الضربات أقوى وازدادت، وقلت لنفسي لازم هذا هو سمك القرش يريد يأكلني ...

بان الخوف واضحاً على وجه ابنهما البكر. لاحظت الأم ذلك، قالت له غامزة له بطرف عينها اليميني مقاطعاً الأب:

- هذا كله حلم، أبوك يمزح ماما!

- صحيح بابا؟

- طبعاً صحيح، أنت تعرف هنا ماكو بحر! هنا صحراء ورمل وعاصفة رملية وغيره!

- بابا، خيلنا نساڤر للبحر في الصيف.

- إن شاء الله.

إذن كل هذا كان حلماً ليس إلا، طبعاً لم يحدثها عن سدول البحر وعن الطويل المختفي خلف نظاراته الشمسية وزوجته، ولا عن "تحاف عليها أم منها". انزعج كثيراً. ارتدى ملابسها وخرج من البيت متجهاً إلى عمله وفي ذهنه فكرة ودم ونار وأفكار جهنمية قد تكون مدمرةً. قبل خروجه من البيت جلبت انتباهه قصاصة ورقية صغيرة، كانت مرميةً على منضدته، قرأ ما كُتِبَ فيها مبتسماً ابتساماً ساخرةً. دعكها بيده اليمنى، رماها في سلة المهملات. كانت الكلمات المكتوبة في الورقة شيئاً أشبه بالهلوسة:

دَمٌ ونازٌ في الرأس

دَمٌ ونازٌ في الكأس

دَمٌ في الهواء

دَمٌ ونازٌ في الحلم

نازٌ في الرأس، دم ونار

في الصباح، في المساء

دَمٌ ونازٌ في الكأس.

قال لنفسه: معقول؟ غريب عجيب! من كتب هلوسةً الحلم في هذه الورقة؟ ومن تركها هنا على المكتب؟

The Great Desert 1988 الصحراء الكبرى

* نُشرت قصة "ذاكرة البحر" لأول مرة في مجلة المدى، العدد 28 (2) 2002 دمشق.

الواحة الخريفية*

كان قلبه مليئاً بمشاعر الحزن لفراق أحبائه. شعرَ بالكآبة. جلسَ أمام منضدته، كتب رسالةً إليهم بأسلوبٍ مشوبٍ بالحدة، كأنه يتراشق بالنيران.

مغرماً بالملاسنات! امتعضَ للأمر قائلاً لنفسه "يبدو كنتَ متأثراً بحوارات أبطال روايات دوستوفسكي ومشاكساتهم"، طأطأ رأسه، أردف متمتماً بين نفسه: "نعم، نعم، هذا كله بسبب هذه الروايات وأفلامها، اللي شفتها في سينما الجامعة".

يعاني من حالة مليئة بالرغبة في الانتقادات، والحدة، والحقد، والثأر لشيء ما مفقود، بالأحرى شعرَ أن هذا الشيء مسلوب منه. سأل نفسه الحزينة: "أي شيء فقدت؟ وما علاقة الآخرين بذلك؟ ألم يجدر بك أن تخففَ لهجةَ الكتابة؟"

بعد أن تيقن من أن شعورا ساديا قد أخذ مأخذه منه قرر المقاومة، مواجهة هذه الحالة، بل الانتفاض عليها.

مرّق الرسالة. عاود الكتابة مرةً أخرى، دَعَكها، أخيراً كتبها بنفس الأسلوب الأول مع بعض التغييرات. تطلّع فيها، وجدها غير مريحة بالنسبة له.

فجأة... طرّق الباب. يسمَعُ طرفةً... طرفتين... ثلاثَ طرقاتٍ. توقّع أن الطارق هو جاره. أو أن جاره هو الطارق. هذا الأمر غير مهم، لكن الأهم أن هذا الجار بدأ يستفزّه بكل شيء، بوجوده، بطرقاته، بطلباته، "صحيح الرسول أوصى بسابع جار، والجار جار حتى لو جار والناس تقول: حق الجار على الجار، لكن المثل يقول إذا كان صاحبك حلو لا تلحسه". كان يقول ذلك لنفسه مبرراً غضبه من جاره وأردف يقول لنفسه "والله لو لم يتعني بطلباته وأسئلته المتكررة لما زعلت عليه بهذه الدرجة، البارحة طلب مني أضوية، ثم كراسي وأدوات مطبخ وأخيراً مسامير ومطرقة، عندها قلت له: يا أخي أنا جار مو نجار! لكنه والحق يقال دمث الخلق، سريع البديهة، طيب القلب، حسن المعشر، تشرح له النفس، أما غيظي منه فهو مسألة مؤقتة ليس إلا، وفي الحقيقة أن السبب فيّ وليس فيه وهذا ما قاله لي آخر مرة قرعته فيها، قال لي: يا أخي أنا أسكت وما أرد عليك

لأني أعرف مزاجك تعبان وأنت مو تعبان تلدغ وتخي رأسك لكنك إنسان صريح واللي بقلبك على لسانك".

يجلسُ حزينا، مكتئبا، ملّ طرقات الباب، أصرَّ على ألا يفتحه ولا يسمع صريه، فضّلَ البقاء جالسا وكان حزنه يزداد دهرًا، بل دهوراً.... تكررَّ الطرق... طريقة رابعة فخامسة.... نخصّ ليفتح الباب، فتحه، لم يصدّق عينيه، قال لنفسه متعجبا: "يا إلهي من أرى؟ أهذا شبح أم ماذا؟" لم يعد يصدّق عينيه، يراها، تلك الفتاة الأرجوانية بأَم عينه ولا يصدق ما يرى. إحتار واقفا أمامها والباب مفتوح على مصراعيه. كانت فيه رغبة أن يخلق في السماء. "أحلق على بساط الريح وأغني بساط الريح، بساط الريح!!" كانت لديه رغبة جامحة لاحتضان غابات النخيل والحين من البداية حتى النهاية. قال لنفسه: "يا فرحتي بسومر. ياليتني أرقص، أرقص، أرقص حتى أقع من على حافة عالية فأسقط على بحيرة ماء، تطفو عليها أوراق شجر ساقطة، أقع أنا وسومر على هذه البحيرة، ننام على الأوراق الخضراء منعمين بالراحة والأحلام"، بقي واقفاً مسمرا أمامها يحلم، يحلم، يحلم، ينظر إليها، والقبلة حزينة ووجهه مشدود إلى لاشيء والقلب يسكب الدموع حزنا وكان الحزن واحةً خريفيةً في صفحة خدّها الداوي، ظلّ مسمراً ينظر إليها كالمشدوه، قالت له مبتسمةً وهي تدفعه بغنج:

- ما بالك؟ ماذا حدث لك؟ ألا تدعني أدخل؟

إضمامةٌ في الشفتين، فَرْحَةٌ حزينةٌ في العينين، نظرةٌ ذاوية تتجسد فيها معاناة الوجد، تبحث عن دفء الأمل والصدى. كان يرى مملكة الطيبة وغابات النخيل في سومر الجميلة وبحر من الود والحنان والأمومة في واحتها الخريفية. يرمقها بدون أن ينبس بكلمات كثيرة، خلعتُ معطفها ناظرةً إليه والابتسامه لم تفارق ثغرها، قالت له:

- لماذا تتطلع إلىّ بهذا الشكل؟ هل فوجئت بي هنا؟ لا تفكر أنها لعبة القط والفأر، لاتتصور أنها "كبسة" فأنا لست شرطية، لكني قررت....

اتسعت ابتسامتها لتضفي على وجهها إشراقاً خاصةً، بدت كالقمر، حرّكت عينيها بحول بنظراتها في أجواء الغرفة كأنها تتأكد من عدم وجود بنت أخرى غيرها، ثم أردفت قائلةً:

- نعم قررت إلغاء رحلتي والبقاء هنا معك كما أردت رغم أنني أكرهك!
ينظرُ إليها مبتسماً بحجل، أو هكذا كانت تبدو أساريه، منفرجة قليلاً. ابتساماته وسمته لسان حاله، كان ذلك يغيظها، تقول له بعصية:

- قل شيئاً ما، أنت مجنون حقيقي، قل شيئاً، قل: يعجبك قدومي إليك، قل تكره قدومي، أنا تركتُ حقائبي وأغراضي في محطة القطارات، قل لي إن كنت تريدني أن أسافر ... لماذا تصمت؟ يا إلهي سأموت... سأرجع..

كان واقفاً متكئاً على الكرسي بيده اليمنى، ينظر إليها بعينه الناعستين، ململاً شفثيه الصغيرتين البنيتين كأنه يمنع عنهما الابتسامة، مفكراً "العضُ يؤلم... لا، لا يؤلم. العضُ يؤلم، كرهتُ الألم في هذه المرة ..."، قطعُ سلسلة أفكاره، قائلة:

- ما بالك؟ ساكت! ماذا حدث لك؟ هل أنت غاضب بسبب رجوعي إليك؟
نظر إليها واقفاً أمامها محني الظهر، اكتفى بالابتسام محرّكا يده اليمنى متلمسا شعره الأسود الطويل مشيراً لها بيده اليسرى أن تجلس وترتاح.

مدّت جسدها مسترخيةً على كنبها كأبي ملكة، تفتح شعرها الأسود الناعم السبل الطويل، تتلمسه بأناملها الطويلة، عيناها السوداوان تجولان في أرجاء الغرفة، قالت له بعد أن شعرت بالثقة وعادَ اطمئنان تميّزت به نظراتها:

- يجب أن نذهب إلى المحطة كي نعيد حقائبي حيث تركتها هناك في مكان حفظ متاع السفر، ثم نعود هنا لننقل أشياءك إلى شقة والدتي، سنعيش عندها وستكون فرحةً...
لم يصمت هذه المرة كعادته، قال لها بشيءٍ من صمته، وهو يهم بارتداء قميصه، متهرباً من النظر إليها:

- ليس الآن يا عزيزتي، ليس الآن، دعينا نرتاح اليوم، دعينا نترك هذا الموضوع إلى مزاج أرقى...

قاطعته:

- أنا عرفت أنك ستقول هذا، طيب، نترك الموضوع الآن، عليّ الاتصال بها وإخبارها بأني فضلت البقاء معك، صدقي أن والدي ستكون فرحة، بل ستطير من الفرح، أنت تشك بها بدون سبب، ثق أنها تحبك وتريد أن تساعدك في كل شيء، الدراسة والعمل...
- صدقيني أنت مخطئة... لا شيء من هذا القبيل، أنا لا أريد أي مساعدة، أترك هذا الموضوع.

ارتديا ملابسهما، حاولت ترتيب الغرفة قليلا، نصحتها بأن تترك كل شيء في مكانه، أخذت بعض الصحون والكؤوس من الغرفة لتضعها في مطبخه الصغير، قالت له ساخرة:
- يبدو أن الصراخ عندك في موسم تكاثر! هل تريد أن نقوم بحملة تنظيف عندما نعود من المحطة؟

- لا، لا داعي، ستأتي تمارا يوم غد وستقوم بكل شيء، شغلها مضبوط ونظيف ولا داعي لتتعي نفسك.

بدا عليها بعض الانزعاج، قالت له بصوت خافت متظاهرة بالهدوء:

- تمارا؟ هذه السكّيرة، العاهرة، هل مازالت تعمل هنا؟

نظر إليها نظرة عميقة، ساهمة، طويلة بدون أن ينبس بكلمة مسموعة، قالت له متوسلة:

- صدقي أنا لا اقصد شيئا ضدها ولكنها سكيرة و، و، ليست من مستواك ..

- وما علاقتي بها، هي تنظف كل الغرف هنا، غرفتي وغرفة جاري محمود وكارلوس والبنات لينا وتانيا، كلهم، هل أنا من يوظفها أو يطردها، اذهبي إلى مديرتها ماريا، ألا تكفي؟ شعرك الأسود يجعلني أهيم وعينك تسحراني، تعيداني إلى عالم أُمي! أرجوك لا تفسدي عليّ فرحتي فأنا كنت أتصور أن الطارق هذا هو محمود الممل بطلباته ولكن الحمد لله أنت...

- أنا أقصد، إذا سكنا عند والدي سيكون ذلك من الأفضل لك ولدراستك ولنا جميعا،...

ثم أردفت بصوت متهدج مفعم بمشاعر الفرح والتوسل:

- وإن أحببت فسيمكنا الانتقال إلى القوقاز والسكن هناك، ألا تعشق القوقاز؟ ألم تقل إنه حلمك؟ شقتنا هناك فارغة... ماذا تريد أفضل من ذلك، شقة كبيرة على البحر الأسود؟
- طيب، انتظري قليلاً، يجب أن أهيّ كتاباً الأطروحة، الامتحانات وكل شيء سيكون على ما يرام!

- أحقا ما تقول يا أمير؟ أقسم بالله يا أمير... أقسم...

- بالتأكيد يا ليليا، قسما ولكن انتظري...

تَهَلَّت أساريها. خرجا معاً، أوقفنا سيارة تاكسي، رفض السائق التوجه إلى المحطة، قال إنه متجه إلى مكان آخر. اقترح أمير عليها السير باتجاه نصب غاغارين قليلاً، مسكته من يده اليسرى. وراحت تحدّثه كعادتها قصصها المضحكة الكثيرة، في الطريق التقيا بامرأة عجوز كانت تعمل في المستشفى رقم 6 الخاصة بالأجانب، أوقفتهما قائلة بدهشة وفرحة قائلة بصوت عالٍ، عميق، خارج من أحشائها:

- يا إلهي، مَنْ أرى؟ أجمل شابين عرفتهما في حياتي! كيف حالكما، وكيف حال والدتك يا ليليا؟ هل لا تزال تعمل في نفس مكانها؟ قبل مدة اتصلتُ بها في رئاسة الأكاديمية وقالوا لي إنها انتق... قاطعتها ليليا قائلة:

_ إنها انتقلت لتعمل في معهد العلاقات الدبلوماسية التابع لوزارة الخارجية،...

قالت العجوز مقاطعاً ليليا موجهةً الكلام إليه:

- وأنت أيها "الهوروليجان"، الشقي العنيد كيف حالك؟ هل لا تزال فوضوياً لا تحب الاستقرار؟ لماذا لا تريد أن تعمل وتبقى هنا؟ ألا تعجبك بلادنا؟ ها.. أليس كذلك؟ قلها بصوت عالٍ ولا تخف مني فأنا خلاص أصبحت طبيبة متقاعدة، ولا أعمل في الخارجية ولا الداخلية مثل بعض الناس.

قالت عبارتها الأخيرة غامزةً ليليا! دعتهما لزيارتها ثم ودعتهما بعد أن أخذت هاتف عمل والدة ليليا الجديد، قالت ليليا للأمير الذي كان ينظر في الأفق:

- أرايت؟ هذه العجوز تنضحك بالبقاء، هذه كانت تعمل في الخارج، في كل العالم، في الدول العربية والأفريقية، هي تعرف أهلي جيدا، نحن غير محتاجين، نستطيع السفر ولدينا اصدقاء في كل القارات؟ هل تريد السفر إلى أميركا؟ أنا أعرف أنت لا تحب أميركا، طيب إلى إسبانيا، عمي يعمل هناك ويمكننا السفر إليه، لكنك يا عزيزي لن ترى أجمل من بلادنا وأكثر منها استقرارا في كل العالم، ثم أردفت ضاحكة:

- ولن تجد هذا العدد الهائل من المدمنين في كل العالم كما هو عندنا، بلادنا حفلة ..
تواصلُ ليلىا مستمرةً الحديثَ بينما أشار هو إلى سيارة تاكسي فارغة، جلسا في المقعد الخلفي. وصارت تهيب بهما الأرض نهباً...وفجأة دارت بهم دورة... دورتين.... ثلاث دورات. كاذ الزمام أن يفلت من يديه...تحركت ليلىا من مكانها، ارتطمت قدمها بحديدة صغيرة كانت موجودة في سيارته، مزقت جوربها النايلون وخدشت قدمها.

تأملُ الاثنان بعضهما بعضا بنظرات كسيرة مشوبة بحزن، ذات مذاق خاص، حزن أمير وراح يطمئنهما، خيم الخوف وطفى الحزن مبدداً كل الأفراح، تبخرت حكاياتها من رأسه، كادت السيارة تنقلب، قال السائق ببلاهة غير مبالي "لم نَمِتْ! ها، ها" وغرق في الضحك محدثا إياهما القصص الخرافية عن الطرق.

لا شيء يضحك في هذا العالم، في تلك اللحظة بالذات، أحس أن هذا الحزن الداخلي أضعف فرحة خاصة. شعرت ليلىا بالألم والخوف، حاول طمأنتها، هو أيضا يهجن الوجع والفرح، لكنه كان رعبا محببا، ألما مغلفا بالحب والحزن والفرحة ولذة الانتصار والمغامرات والمخاطر. باغته المطر، أحمَر بغزارة كالشلالاات. كان ينظر إليه من خلال نافذة السيارة، لم يبيطاً السائق سياقته، قالت له ليلىا:

- عمو، اخفض السرعة لخاطر الله!
- لا تخافي يا ابنتي، كل شيء سيكون في مكانه.

تَجَلِسُ ليليا ملتصقة بأمير ماسكةً يده في جيبه، تصغي إلى ذكريات السائق، بينما كان هو سارحا في خياله، الصمت يلفهما، أو على الأقل هكذا يشعر، وهو بعيدٌ عنها وعن حكايات السائق، يتمعن ناظرا في زخات المطر على الشوارع النظيفة.

تتراءى له صور وتحضره عبارات من نوع: ترقص تحت المطر، تضحك تحت وابل الرصاص، تختفي في كوخ، تتحدث عن الحلاج ورابعة العدوية والواحة الخريفية، تشعر بالبرد في الكوخ، تأتيك النخوة ونشوة النصر والألم الحزين وتتواصل الفرحة مع الأسي والشجن والهم والغم والقلق والفجع، يبدو الإكليل كبيرا على قوس النصر المزين، عندها تشعران بالنصر مرتين: مرة بفوزكما وثانية بنجاتكما.

يا إلهي جلّت قدرتك! كما يهرب الطفل من النار صارخا... هكذا كنتما، عرفتما هذا وذاك! الموت والحب والحياة، يا للجمال والجلال!

تَجْرُ الأذيال،

عائدين كعودة الابن الضال،

وكان الحلم في القدم اليسرى،

فيها جرح،

فيها نجم، فيها خال،

فيها صرح،

فيها ذكرى،

شعر بألم هذا الجرح في قلبه، قال لها هامسا:

- كنت أود لو يتمزق شغاف قلبي بدلا من جوربك،

ابتسمت رغم خوفها، قالت له:

- أنت لا تقول شيئاً وعندما تتكلم تتهكم، أنت تستخف بي كعادتك، أنت صامت اليوم طوال الوقت! وها أنت تستهزئ بي كعادتك، أنت تخدعني... أنت كذاب...

قالت عبارتها الأخيرة ضاحكةً وهي تضغط على أسنانها وتربثُ بيدها على كتفه، قال لها:

- أنت مجنونة، لقد نزل عليّ الوحي، أريد أن أكتب الشعر يا بنتي الجميلة، أنا متيم، بل مهووس بكِ وبأشعارك!

همست له بفرح داخلي، محرّكة رموشها وهي تمسح شفّتيها الورديتين بلسانها، صارت تتكلم محرّكة يديها بإيقاع خاص:

- كلُّ العرب شعراء، ماما قالت لي ذلك، بالمناسبة اشتريتُ كتاباً جديداً للشاعر يسنين، أنا أعرف أنك تحب أشعاره، لماذا لم ترجمها؟ بالله عليك، قل لي: هل تسخر مني؟ هل تعجبك حقاً أشعاري؟ أعرفك، كذاب!

قاطع السائق همسهما بقصة جديدة عن أيام الحرب والألمان، تركهما أمير لوحدهما سارحا بخياله. كانت ليليا تصغي إليه مقاطعة إياه بين حين وآخر بقصص جدّها عن الحرب مع الألمان. **مَسَكْ** أمير قلبه، "مسك" مشاعره، حاول أن يحكم قبضته عليها، لم يستطع ذلك، كان الوجه طيعا وكانت واحته الخريفية فَرِحَةً.

غمرته فرحةٌ سماويةٌ، بحجة إلهية، نظر إليها وهي تصغي للسائق مستمتعاً بخضرتها المشوبة بالاصفرار، لم يكن بياض وجهها هذا من الخوف، بل شحوب الخريف، ومن النبع ارتوى،

ارتوى خُلاصاتِ الحكايات والخرافات،

كان دواءً شافياً، مليئاً بالأعشاب،

شرب خلاصة الأعشاب، شعر بمعذته تنقطع، كاد الألم يقتله، صار يصرخ آخ بطني! آخ، يا إلهي! وصار يتلوّى من ألم بطنه، لا بد أنها سامةٌ... ويصرخ حتى فاق من نومه.

فتح عينيه بصعوبة وجد نفسه في مكان غريب عليه، مليء بالزوايا ورائحة الرعب والعنف والرطوبة والعفونة.

أفاق من النوم، انزوى في إحدى الزوايا العجيبة خائفاً لاثذا كالفأر. كانت الزاوية صغيرةً لكنها تتسع للأجسام مهما كانت أحجامها كبيرةً، تستوعبها كأنها تتمدد وتتقلص.. تختفي الزوايا مرةً بحيث يبدو المكان كأنه دائري الشكل، تظهر مرة أخرى بطريقة عجيبة. أفاق، كبد خائفاً يبحث عن ملاذ...
كان الفناء فارغاً.

أغمض عينيه من الخوف والهلع والفرع بل الرعب شاعرا بركبته ترتجفان. فتح عينيه مرة أخرى. حاول تذكر الأشياء، الوجوه، الأشباح، سرير الموت، الأفاعي والعقارب وعيون النساء وألسنة القطط. الكابوس أصعب من أن أتذكره. الغرفة المليئة بالزوايا العجائبية الغرائبية صارت فناً خاوياً. نظر إلى زواياها، تمنعها، أراد أن يمسكها بيديه، يلمسها. دون جدوى.

لم يزعج للأمر، بل فرح كثيراً حالماً بالاكشاف. اندهش لما يرى. أين الزوايا، ما هذا الفناء. همّ بالنهوض من زاويته. خذلته قواه الخائرة. لم يعد يرى شيئاً غير الظلام الدامس. سقط شاعراً بالنوم العميق. كان يتصور نفسه يقول لنفسه: "هل حقاً أنا نائم؟ يا إلهي ما أجمل النوم؟ هل حقاً تخلصت من غرفة الزوايا؟ وكان يحلم بأنه يشخر شخيراً قويا كصوت التراكثور. شعر بالعزة والكرامة والإفتخار لهذا النوم. أصبح يمكنه أن يباري تنابلة السلطان عبد الحميد كلهم.

حلم بأهل الكهف ونومهم العميق غابطاً إياهم على ذلك. لأول مرة في حياته غرق في سبات عميق، أعمق من نومهم. شعر لأول مرة في عمره كله بجمال النوم وروعته وبهائه وفرح لمنظر عينيه المغلقتين واضمامة شفتيه الباسمتين ونعومة بشرة وجهه وصفاء ملامحه. انقطعت الصور كأن ستارةً قائمةً أسدلت عليها، لم يرَ من خلالها غير صورٍ مرئيةٍ ويقع هلاميةً وأخرى ضبابيةً.

هذا هو السبات العميق بعد اصطدام الآلات والأرواح. ماتا واحتببيا، كانت الفرحة حلماً وكان الحلم سعادةً، حتى الموت السعيد والحزن الجميل ولحظة التألق وأشياء كثيرة أخرى كانت حلماً شفافاً! يا إلهي جلّت قدرتك! كيف تجعل الناس يعيشون مرتين؟ ما أجمل اللذة والمتعة والآلام؟ والحزن والنظر إلى صفحة الحد، الداوية كذبول أوراق الشجر في الواحة الخريفية وسط الصحراء!

مدَّ جسده ناظراً إلى السقف، إلى تلك الشقوق المرسومة كالخارطة، يتخيل تلك الأطراف وغابات النخيل والنهرين العظيمين ومملكة سومر والبهجة.

زال الفرح من عينيه، بالنحسه وشقائه. أزيح الستار عن أجمل شيء عاشه، أراد أن يتذكر شيئاً. لم يقوَ على ذلك، حتى الحلم يبهره البخل ويغويه، تشح الصور واللقطات ويصبح أمراً غير مفهوم الأحوال، يُزاح الستار عن حلمه، حياته ويحسم الطرق القوي على الباب التفكيّر ويكون الصباح المنادي من هناك كنصل السيف المسموم:

– أمير، أمير، استفق يا أمير، سنذهب كلنا معاً حسب الاتفاق، لن أنتظرك إن تأخرت، هل فهمت؟ أنا أعرف أنك لست نائماً، انهض يا حمار! يا شرموت

نهض أمير مبتسماً، كان ذلك صوت زميله كارلوس، يتكلم بلكنة إسبانية محببة لنفسه.

حزن قليلاً، هذا الكدر غير مشوب بفرح، إنه ليس كوجع الحلم، أين صفحة الخد الصفراء المخضرة الجميلة؟ أين الواحة الخريفية الواقعة على خدها؟ أين غابات النخيل؟ أين الأطراف؟ يا حسرتك يا أمير، هل كان كل ذلك حلماً؟

فتح مفكرته، تأكد من وجود رقم هاتف ليليا، وضع علامة أكس على يده. هذه المرة لن ينسى أن يتصل بها، سيتذكر ذلك بالتأكيد. غسل وجهه، ارتدى ملابسه، وضع بعض الكتب في حقيبته، خرج عازماً، يمشي بخطى واثقة.

Moscow 1982

* نشرت قصة الواحة الخريفية بصحيفة الزمان 31 تشرين الأول 2002

مدرسة السياقة *

كان معلّمُ السياقةِ باسمِ الوجه، كثيرَ الكلام! ينمّقُ حديثه بمفرداتٍ وعباراتٍ جاهزة، اعتدّت أن أسمعها من معلمي أيام زمان. مجرد كلائش! كلماتٌ وجمالٌ جاهزةٌ من نوع: "الامتحانات على الأبواب" أو "انتبهوا يا أولاد إلى دروسكم ومستقبلكم". بالتأكيد أن هذا المدرس القصير الأصلع لم يقل مثل هذا الشيء اليوم، وهو ليس بهذه الدرجة من السداجة والغباء والسخف بل القباحة و"البجاجة" والروتينية ليقول مثل هذا الهراء لأناس كبار ناضجين مثلنا، لكنه يبدو على أية حال من هذا الصنف من المدرسين. يعني أقول باختصار: إنه قادر على فعل مثل حماقات المعلمين، أو إنه يمتلك نفس مواهبهم في تكرار المواعظ الجاهزة.

عندما سمعني أحد زملائي الأجانب، لم أعد أتذكر من أي بلاد قادم، أتحدث عن مدرس السياقة بهذه النبرة الساخرة، قال متتائبا بدون أن يفكر في أن يغطي فمه بكفّ يده:

- بالتأكيد أن المعلمين الطيبين سينزعجون عندما تُلصق هذه الصفات بهم جميعا لكن...

قاطعُه زميل آخر قروي الأصل، قادمٌ من إحدى المحافظات، جميلُ الشكل، اسمُ اللون، عريضَ الوجه والمنكبين، طويلَ القامة. عيناه تتراقصان باستمرار عندما يتحدث، حاجباه يختفيان ويظهران من وجهه بشكل غريب عجيب!

ويتطايرُ من فمه رذاذ، أحيانا بصاقٌ. يُحِبُّ الحديث بلغة العقل والمنطق والموضوعية والجمل الجاهزة لدرجة أن شفثيه تبدوان ناشفتين. تُحاطُ زاويتا فمه بلعابٍ أبيض.

إنسانٌ لا يبالي بالتعب والملل، معجبٌ للغاية بنفسه كما يتهيا للآخرين، لدرجه أن أصحابه كانوا يسمونه "العاجبته نفسه"، ويقولون عنه ساخرين: يلقي كلائشَ وي طرح أفكاراً غير مترابطةٍ ويتصور نفسه دائما بأنه على خشبة المسرح.

يحاول أن يلفظَ بعض الكلمات بالفصحى، يقول مثلاً: "جدار" بدلاً من "حائط" أو: "ارفع" بدلاً من "شيل"، و"شِل" بدلاً من الأخيرة، وكثيراً ما يكرر: كارته! كارته!

لكن ماهو الضير من ذلك؟ وهل يستدعي هذا الأمر ازدراءه؟ أسئلة لا يتقبلها الآخرون!
زملأوه يتهكمون به: هذا مصيبة! ويدعونه أيضاً كارثة! وطبعاً "العاجبته نفسه"، هذا يحكي عن
نفسه ولنفسه فحسب.

بالعربي الفصيح يعني: لا يستمع لأحدٍ ولا أحد يصغي إليه. مهووسٌ بنفسه، يتحدث عنها كثيراً.
ويحكون عنه أيضاً: إنه يعرف نفسه جيداً وإنه يعلم علم اليقين بأن الآخرين، لا يباليون له، يشعر
أهم يستهزؤون به ويحتقرونه، يعتبرونه دخيلاً على الثقافة والفن، يرددون على مسامعه أيضاً: تسمعُ
بالمعيدي خيراً من أن تراه"، هذا أكثر ما يغيضه.
لكنه، لا يبالي بهم، ويعلم أيضاً بأن لا أحد يستمع له، وعندما يتحدث مع الآخرين كثيراً ما
يمسك بيد جلسه مكرراً: اصغ لي! اصغ لي!

قال هذا الكارثة، "العاجبته نفسه" كأنه يقرأ مقالاً مكتوباً من على منبرٍ:

- هذا هو الواقع في حقيقة الأمر، وهو أمر لا ينتقص من قيمة المعلمين، بل بالعكس يجعلهم في
مصاف الخيرين. وقد يقول قائل إنهم طيبون وساذجون. لكن على أية حال هذا لا يغير من
الأمر شيئاً، وهذه أمور ثانوية بشكل عام ولا تم كثيراً، هذه هي حقيقة الأمر و لا أحد هنا
يقصد الإساءة إليهم فهم ليسوا من الأشرار.

كدت أنفجر ضاحكاً من عباراته الجاهزة، تنطلق من لسانه متدفقة كشلال المياه، مع ذلك
فرحتُ لكلام هذا المحامي "العاجبته نفسه"، قلتُ له مبتسماً بعفوية:

- معلوم! "كاد المعلم أن يكون رسولاً" يا رجل!

علقَ الزميل الأجنبي المثائب موجهاً كلامه إلى "العاجبته نفسه" مشيراً بيده إلي:

هذا يسخر منك ومن المعلم في وقت واحد، ألا تلاحظه يتسم ببحثٍ ويحكي عن كل شيء
بالغمز واللمز، أنت لا تتبته لمثل هذه الأمور، أنت مشغول بتنميق عباراتك! فلاح! لا تنظر إلى
الآخرين كي تتعلم منهم. هذه مشكلتك وستبقى عقدة النقص تلاحقك. تريد أن تكون مثقفاً
وفناناً ومسرحياً رغم أنف الإنس والجن!

لم أعلّق على كلامِ المثائب القاسي المتخايب ولا هذا "العاجبته نفسه"، لكنهما في حقيقة الأمر والواقع، كما يقول الزميل القروي، اختفيا من أمام ناظري ولم أعد أتذكر حتى ملامحهما باستثناء حاجبي القروي، يا ترى كيف يَخْتَفيان ويظهران من جديد أثناء كلامه؟ تصوّرْ وجهه الأسمَرَ بدون حاجبين، تصوّره يتحدث بلغة مقعرة، متصنعاً بعض حركات مثقفي المدينة وشبابها وسياسيها.

* * *

عينا معلم السياقة صغيرتان خضراوان، متراقصتان، أنفه يشبه البلوط الصغير، فمه صغيرٌ مضمومٌ بشفتين ورديتين نسائيتين. يمسحهما باستمرار بلسانه الصغير كالقطط عندما يتلمظن بألسنتهن أمام فضلات الطعام، أو في الأحرى كالنساء عندما يتحدثن ويلطعن شفاههن. على أية حال هناك من لا يرى اختلافا كبيرا بين القطط والنساء. وهذا أمر خطير لا أريد التدخل فيه خوفاً منهن، أقصد النساء وليس القطط. وهل هناك من لا يخشى كيدهن؟ وهذه أيضاً أمور لا تهمنا كثيراً الآن، أنا لا أقصد الإساءة للنساء ولا حتى للقطط. لكن المهم ما في الأمر أن مدرس السياقة يتسم بأنوثته نادرةً غير موجودة عند أقرانه من الرجال هنا.

الرجال هنا في هذه البلاد النارية فحول وجبايرة! كلهم منتسبون، جيش، شرطة وعسكريون احتياط ورياضيون محترفون وكمال أجسام وهواة، يعني باختصار: محاربون عمالقة، من أين تأتيهم الأنوثة؟ المطربون هنا أيضاً مفتولو العضلات! وهذا أيضاً أمر خطير، بل أكثر من خطير، ليس من واجبي أن أدلي بدلوي فيه ولا أن أتدخل في تفصيلاته أو حيثياته. اللهم ربي أبعдна عن السياسة وأولاد الحرام! اللي فيني يكفيني، والمثل يقول: الباب اللي تجيك منها ريح، سدّها واسترح، أو ابعده عن الشر وغنّ له، أو فنّ له كما يُقال. وهو أمرٌ، أقصد موضوع عسكرة الناس والمجتمع، أيضاً ليس بهذه الدرجة من الأهمية بالنسبة لنا هنا.

المهم ما في الأمر هو أن مدرس السياقة تبدو أنوثته واضحةً في بعض حركات يديه أثناء حديثه مع الآخرين كأن يمسح شفتيه بأصابعه الرقيقة أو يضع يديه على خده أو على بطنه عند توقفه عن الكلام. هذه مجرد انطباعات شخصية.

بشمرته بيضاءً شاحبةً، خفيفُ الشعر من الخلف، أما من الأمام فإن رأسه الصغير المدور يفتخر بصلعةٍ لماعةٍ، تعيش عصرها الذهبي، وأن مستقبلها زاهراً عامراً باهراً ينتظرها على الطريق. وهذا أمر قد يكون مهماً بالنسبة لي الآن بالذات. مدرس السياقة هذا ذكرني بشخص عزيز عليّ، بل حبيب. كنت أعرفه، أكبر منه سناً، لديه نفس مواصفاته، بل أكثر كفاءاتٍ وأذكى. ومنهم من يرى أنه متقدُّ الحماس، قوي الجسم لا يخشى حرارة الصحراء وكثرة الحشرات، ثاقب النظرات، كثير الهموم قليل الحسرات، لكن يا لخسارات أهل البلد كله!

جُنَّ جنونه في نهاية المطافات! فتصوّر! تبتأ لها من حياة!

لماذا؟ لا أحد يعرف. منهم من قال: إنه كان عبقرى زمانه وسابق عصره وأوانه وكان يساعد القاصي والداني والحامي والسامي وكل أحبابه وأصحابه وخلانه!

بينما ألفت شخصاً آخر يُنادونه "علي مأساة" قصةً غريبةً عجيباً عنه. كان علي مأساة هذا مشهوراً بقصصه المأساوية ويعتقد الناس أنه "عبقرى" فسمّوه "علي مأساة" ساخرين منه.

"ما علينا!" المهم، قال علي مأساة، مطلقاً أصابع يديه باستمرار وعينه السوداوان تتحركان يميناً وشمالاً:

- قصة هذا الإنسان، والله مأساة، هذا المخبل، (يقصد صاحبي وحببي)، كان يدرس في كلية الطب ومرةً كان يستمع إلى إحدى المحاضرات في قسم التشريح، كان يقف جنباً إلى جنب مع زملائه حول منضدةٍ تشريحٍ كبيرةٍ، وُضعت عليها جثة رجلٍ ميتٍ. صدفةً أدخل هذا المسكين كفه الأيمن في جيبه، فوجيء بيده تمسك عضو رجلٍ مقطوعاً من الجثة، مسكه بكف يده، ضغط عليه بأصابعه، تلمسه، شعر بشيء غريبٍ، أدرك أن هذا اللحم والعظم عضو! عندها جُنَّ جنونه! مأساة! مأساة! مأساة! يا أخي هذه فعلاً مأساة! ثم أردف علي مأساة، منطلقاً منخاريه بأصابعه، ماسحاً إياها بشفتيه الصغيرتين:

- مأساة، مأساة، تصور أن هذا الشاب الذكي، الذي علقَتْ أمه كلَّ آمالها عليه فقدَّ عقله لطيش زملائه وسخريتهم منه، مأساة. هكذا هو الأمر باختصار. والله هذه مأساة حقيقية!

وقال ثالث، متحدثاً بنبرة خوف، متلفتاً، يعطي انطباعاً بأنه محق في روايته الموثقة هذه:

- إن رجال المخابرات المحلية التابعة للحكومة الثورية خطفوه عندما علموا بعبقريته الفائقة وقدرته الفذة في التحليل والتدليل والتذليل وطبعا التعليل كي يستخدمونه في التضليل والتطويل والتدجيل والتلهيل كيلا يهرب إلى خارج البلاد رغم أن الناس هنا يقولون إن الذبابة نفسها لا تستطيع الطيران في سمائها هرباً منها بدون موافقة السلطة الثورية. هكذا يردُّ عامَّةُ الناسِ هنا والعهدَةُ على الرواة. وقال راوٍ رابع، وهو أيضاً من الثقة كما يقول الناس عنه:

- إن رجال المخابرات المركزية واللامركزية الأميركية وغير الأميركية، السرية والعلنية أرادوا خطف صاحبنا بل عزيزنا وحبيبنا العبقري وجلبه إلى مركز الوكالة ومقرها الرئيس، إلا أنهم غيروا رأيهم مفضلين دس السمِّ في طعامه. لم يمتَّ هذا الفلته لكنه أصيب بلوثةٍ عقلية.

وهناك قصص أخرى كثيرة ومليئة بالأساطير نُسجت حول هذه الشخصية الجهنمية. الشيء المهم والأكيد في قصة هذا الرجل أنه بقي طفلاً رغم بلوغه الأربعين، وانه عندما يعود إلى والدته يومياً بعد أن يجوب كلَّ دروبِ "الحرية" و"المدينة" وشوارعها وأزقتها وأحيائها، يشعر بالراحة والاطمئنان ويتحدث إليها كأبي إنسان عاقل. طبعاً لا تصدق الأم أبداً أن ابنها مجنون كما يقول الناس، بل إنها تثق بنصائحه الطبية لها أكثر من الأطباء العاديين.

كان صاحبني هذا، بل حبيبي يمشي في الشوارع الشعبية المزدهمة مرتدياً ملابس الرثة، يشتم الأطفال لمجرد أنهم يصرخون وراءه: باروود! باروود! باروود! باروود! سكين وملح! سكين وملح! هكذا كانوا يتسلَّون باستفزازه. مرَّةً زجرتهم متسائلاً بعصبية:

- ليش تضايقونه؟ يا ناس أتركوه لحاله. الله يخليكم أتركوا هذا المسكين لوحده.

ردُّوا عليَّ بكلامٍ قاسٍ، بسبابٍ، بل "بفشارٍ" عراقِيّ يندى له الجبين، لا يسمح لي الرقيب أن أذكره هنا، من نوع "هيك من أختك، وهيك من عرضك!".

إي والله بالله، قسما بالله، أنا بجياتي ما شفت هيك أطفال غير مؤدبين. يعني أطفال بدون تربية ولا أخلاق لدرجة أن أحدهم قال لي كلاماً كبيراً وخطيراً مثل:

- آني أفعل بك و أن ... ك أمك على صدرك و صدر أبوك!

قلت لنفسي "يا ويلي! يا ويلي!" يبدو أنني كنت خائفاً وكانت علامات القلق باقية على وجهي، رمقني أحدهم بنظرة، شعرت أن أوصالي ترتجف لها. أحسستُ بهم يحيطوني من كل الجوانب، ورأيتُ أحدهم يمسكُ سكيناً ناظراً إليّ نظرة تحدّ وسخرية. كانت السكين عريضة لماعة النصل كالمراة، تمرّيتُ بها، فوجئتُ بالخوف والارتباك الباديين على وجهي، عبثاً حاولتُ تمالك نفسي واستجماع قواي، دون جدوى، كان وجهي شاحباً ذوايماً منطفئاً أبيض! بالذات عندما وقف أحدهم إلى جانبي ضاغطاً بجذائه على أصابع قدمي بقوة، شعرتُ بألمٍ فطيع بينما كان هناك شخص آخر يقف خلفي محتكاً بمؤخري بطريقة سوقية. لسْتُ جباناً لكني "خواف"، وهناك اختلاف بين الخائف والجبان، أخاف الكلاب وأتجنب النساء والقطط وخربشتهن.

وأنا طبعاً لست غيبياً، أقصد يعني أقدر أن أميز بين القطة والمرأة وما بين الخربشة والفرفشة والزركشة والبهرجة. تجنبتُ هؤلاء الأطفال كلهم خافضاً عيني إلى الأرض متظاهراً بتجاهلهم. لكنّ الواقفَ ورائي بكوعي بقوة عفوية. تراجع، كأنه تألم. شعرتُ بالقوة والصلابة، وأنا أرمقهم بقسوة. تفرقوا خائفين من حولي، بينهم اثنان يبدوان "لقيطين" متشابهين من حيث تركيبية الرأس وشكله. رأس الأول كبيرٌ مستطيلٌ كأنه صفيحةٌ مطعّجةٌ، عظامٌ وجهه بارزةٌ من جهة الخدين والصدغين. الأخ الثاني رأسه كبير عريضٌ، مدورٌ بعض الشيء تبرز عظام وجهه كالتنوعات كأنه صفيحة مربعة بلا زوايا حادة، مدورة مطعّجة، مبعوجة ومعوجة الحواف. يشبهان بعضهما: شفاه غليظة، عيون صفراء غائرة.

اسماهما متشابهان، الأول: طُخُطُخ والثاني: طُخماخ. وأقول، في المناسبة، لم يكن هؤلاء الأطفال، في حقيقة الأمر لوحدهم، بل يساندتهم بعض الكبار، لم يكونوا صبياناً عاديين، بل "نار كَبْرَه" على قولة أمي. طُخُطُخ كثيراً ما يقول عن أخيه طُخماخ إنه الأسوء في المحلة وإنه "حرامي أصلي، يشبه خاله،" والله بالله ثلثين الوَلد على الخال".

لكن لم يعادوني؟ لم أدرك ذلك في البداية. فهمتُ أنهم يستاءون مني كلما يروني أتحدث إليه، أقصد حبيبي العبقري، بشكل طبيعي كأنه إنسان عادي. ضجرهم يصل إلى درجة الحقد عليّ عندما يرون الرجل المسكين "باروود المخبل" كما كانوا يسمونه، يتجاوب معي ويتكلم كأنه غير مجنون.

بينما هم مرتاحون له كونه مجنوناً، فرحين به عندما يمرّ في جادّتهم، وأنا مستاءٌ لتصرفاتهم معه. أعتبره إنساناً مسكيناً، وطيباً، يكرهوني، كأني بذلك "أقطع رزقهم"، وأمنعهم من السخرية منه والتمنر.

وهل كان ذلك الرجل في حقيقة الأمر عاقلاً؟

الجميع هنا يقولُ عنه إنه مجنون بن مجنون، ومنهم من يقول بالعراقي الفصيح متهمكماً به مؤكداً صفة الجنون فيه وعائلته بالوراثية: "مخبل بن مخبل ومخبله"، رغم أنهم يعلمون أن أمه امرأة عاقلة ونجيبة، بعضهم يقول عنه بلغة منمقة: هذا رجل مخبول، يعني أهبّل، غير سوي.

لا أحد يقول عنه مثلاً: مريض نفسياً، بينما كنتُ ولا زلتُ أصرُّ بأنه يُعاني بلا شك، بينما هم المجانين بسلوكهم معه، على الأقل بالنسبة لي. هذا ما سمعته من أبي وعلي ماساة.

قد يكون هذا الموضوع أكيد وغير دقيق ويمكن مناقشته، إلا أن اليقين، بل المؤكد أنه، أقصد صديقي وحبيبي العبقري، على عكسهم سعيد بكل ما تعنيه هذه الكلمة من معنى، إلا أن الناس الطبيين وغير الطبيين لا يرون ما أراه، متصورين الأمر عكس ذلك.

هذا أمر يخصهم ولا يخصنا، وهو في نهاية المطاف غير مهم للغاية بالنسبة لنا، بل إن طريقة تفكيرهم عن الآخرين كلها لا تعنينا إطلاقاً. المهم أن ندرأ أذيّتهم عن الضعفاء!

المهم الآن أيضاً، هو أن أستاذ السياقة لم يكن يشبه صديقي القديم في ملامح الوجه فحسب، بل في التصرفات وحركات العيون، رغم أنهما من عرقين مختلفين لا يجمعهما جامع ولا كنيسة!

عفوا على هذا الاستطراد! إنه مجرد مزاح لتلطيف أجواء الحكيم أو السرد كما يقول "المتقنون والمتمنطقون". ومع ذلك يمكن أن يتعرض مدرّس السياقة لما تعرض له صديقي القديم، بل

حبيبي، إلا أني أستطيع القول إنهما من طينة ناس أذكيا و طيبين. الذكاء والطبية والشفافية والحساسية والصدق والإخلاص خير ما يجمع هذين المخلوقين.

تصورته، أقصد مدرس السياقة، بعد عشر سنوات: رأسٌ مدوّزٌ صغيرٌ على جنتٍ قصيرة، مربوعة، رأسٌ أصلع، بدون شعر تماماً. مدرس قصير وأصلع. لو كان هذا المدرس يعمل في مدارس الأطفال هناك، حيث الحر الشديد والبرد القارس والفيضانات والانقلابات، والمخبرات والاحزاب والقتل والدمار لجنتوه ولصاروا يرددون وراءه ساخرين منه: "أصلع قصيرون! أبو الريش!! أبو الريش!! أبو الريش!!".

أتذكر أيضاً، بل أوكد، أن تلاميذ مدرستنا وأولاد زقافنا كلهم كانوا يصرخون وراء معلمهم الأصلع هذا كلما كان يمشي في الشارع: أصلع قصيرون، أبو الريش! أبو الريش!

يردُّ المعلم المسكين على استفزازاتهم بحركات على ضحكهم وسخريتهم منه حتى جُنَّ جنونه! نعم! أصبح مجنوناً رسمياً. يعني عن جد أو عن حق وحقيق. كانوا يقيّمون مستواه العقلي بالتدرج، وبعبارات خاصة تدل على الجنون باللهجة العراقية مثل: عقله توللي، طباقا، قد يكون أصلها "طباقا"، لا أعرف ماذا تعني هذه الكلمة، قد تشير إلى انطباق السالب بالموجب أو الحار بالبارد! أو: **كويلات**: من الإنجليزية، وصلة بين سلك الكهرباء وشمعات السيارة تستهلك من الحرارة فتسرب الكهرباء! هذا بالضبط ما حدث مع صاحبنا! ههه!

أو: صار "يسحب على الخارج"، و"شماعية"، إشارة إلى مستشفى الأمراض العقلية في منطقة الشماعية، وطبعاً "أبو الريش! أبو الريش!".

ماذا تعني أبو الريش؟ هذا سؤال لا أعرف كيف أجيب عليه الآن لكن الأكيد أنه كلام ساخر، استفزازي، من المؤكد أن له خلفية معينة، كأن يكون مرتبطاً بمجنون ما.

هناك من يقول إنه كان عضواً في أحد الاحزاب السرية وإن اسمه الحزبي أبو الريش، وإنه سُجن وأهين وضرب وأغتصب وعُذّب، لكنه صمد صمود الأبطال كما يدعي رفاقه وخرج من السجن بطلاً يُشار له بالبنان في كل مكان وزمان.

إلا أنه وقع في يد رجال المخابرات المدربين تدريباً حديثاً على يد رفاقه في المانيا الشرقية وكوبا! وتعرض على أيديهم لصنوف تعذيب لم يعدها من قبل.

نعم، وُزِقَ مواد كيميائية لم يتحملها. أُصِيبَ بلوثة عقلية وصار يجوب الشوارع بينما أعوان الامن والحزبيون الحاكمون يصرخون به ساخرين: أبو الريش! أبو الريش! هذه مجرد رواية جديدة لقصة حياة هذا المواطن الأبي، ولا أحد يقدر أن يبت بها لكنها كلها مقبولة ومتوقعة ويمكن أن تحدث في هذه البلاد الجهنمية.

بالتأكيد أن مدرس السياقة سيغضب أيضاً إذا ما نادى الأطفال وراءه "أصلع، أصلع!" وهو يمشي في الشارع. ومن المرجح، بل من المؤكد أنه سيكون عصبياً ويحرق أعصابه ويرفع يديه وأصابه مهتداً مندداً معدداً مزبداً مرعداً، لكن من غير المؤكد أن رد فعله هذا سيحدي نفعاً مع هؤلاء أولاد الشوارع الـ "نار كبره".

سيصرخون به أو سيردون على عصبية بسخرية لاذعة على الطريقة الشعبية البغدادية: "أبو الريش! أبو الريش! .. بارووود! بارووود! .. بارووووود! سكين وملح!! سكين وملح!!". قد يحدث نفس الأمر مع مدرس السياقة هذا فيما إذا كان يعمل معلماً في مدارس بغداد، نعم، وتكرر مثل هذه الحالات معه يومياً.

هذا أيضاً انطباع شخصي فحسب ولا أحد يعلم ماذا سيحدث لو فعلاً تحققت هذه التصورات. لكن، وهذا مجرد رأي شخصي آخر، إذا تكررت فعلاً هذه السخرية يومياً وباستمرار فإنه سيغضب بالتأكيد وسيُرَدُّ عليهم الصاع صاعين كما يُقال، يُطارَدُ الأطفال، أو يهددهم بالملاحقة، سيرفع يديه كثيراً وسيقسم بأغلظ الأيمان، وستصبح تصرفاته وحركته بنظر السابلة الكبار الطيبين مجرد حركاتٍ بهلوانيةٍ تثير الضحك والحزن والشفقة عليه في أفضل الأحوال.

عندها سيفرح المشاغبون الملاعين الوقحون وسينقسمون عندئذ إلى مجموعتين تقفان في طرفي الشارع، ستبدأ المجموعة الأولى بالصراخ:

– أبو الريش! أبو الريش! أبو الريش!

ومن المؤكد أنه سيهددهم ويشتمهم:

- أولاد الكلب، حقراء..

بينما يردُّ عليه مراهقون من المجموعة الثانية بفرح ضاحكين منتشين بالانتصار:

- بارووود! بارووود! بارووووود! باقلاء وبطنج! سكين وملح! أبو الريش! أصلع قصيرون!
باقلاء وبطنج! سكين وملح! أبو الريش!

بعدها سينتقل المعلم المسكين إلى مرحلة الجنون الأخيرة، تصيرُ الأصوات الساخرة منه متعةً بالنسبة له، يستجيب لها كما يميلُ الطفل إلى لعب الكبار معه، بل يستجير "القصيرون" بصياح الأطفال، ويحن إلى "بارووود! بارووووود! بارووووود! وستكون ملابسه رثةً بالتدريج، سيصير مجنوناً حقيقياً، سيشتك أحياناً بعض الكبار مع الصبية في السخرية منه في الشوارع الشعبية وتكتمل "السبحة" كما يقول المثل!

الحمد لله أن هذا المدرس الناعم لا يعمل لا في بغداد ولا عمان ولا في أي بلد من بلاد الكُرد والعجم والعربان.

تصورتُ نفسي واقفاً إلى جانبه، ناظراً إلى صلعته، متطلعاً فيها من الخلف، تلمع كلمعان المرأيا، كنصل سكين ذلك الفتى الذي أخافني وارتعدتُ منه فرائصي، وسرتُ القشعريرة في أوصالي ومفاصلي. أنظرُ إليها، أتمرى بها، أرى وجهي ورأسي بها وأمشط شعري مبتسماً.

كثيراً ما يكرّرُ مدرس السياقة الأنثوي مصطلحاتٍ فنيةً وميكانيكيةً عجيبةً، غريبةً لا تتناسب مع هيئته ونظافة هندامه وليوثته، لم أعتد عليها من قبل، يا إلهي كيف سأسئعها.

شعرتُ باهتزاز جسمي، وبصراحة أنه أكثر من اهتزاز، شيء يشبه الرجفة و"الحضنه" أو الضياع وشيء أكثر من الإحباط، لكنه على أية حال ليس اليأس الحقيقي.

هذا هو الدرس الثاني. كان يجلس أمامي رجل كبير في السن، لا بد أنه من المحاربين القدماء، عرفت فيما بعد أن اسمه فاسيلي فاسيليفيج. رجلٌ ضخّم، طويلٌ، عريضٌ دُكرني بجريشكين وزير دفاع أهل البلد المشهور. بطل الحرب هذا ساكن لا يتحرك كالصنم، مثل هرم خوفو أو أبو الهول، ينصتُ ويكتبُ، لا يتكلم!

نظرتُ إلى أبي الهول مليّاً، لم تكن فيه ارتسامات أو حتى حياة، وجهُهُ كجسمه ساكنٌ لا يتحرك ابداً. بالمناسبة إنه مستطيلٌ، عريضُ الجبهة، كبير الأنف، غائر العينين، إثمها منطفئتان، لم يعد للوئهما أهمية، كث الحاجبين، أشيب الشعر، حليق الشاربين والذقن.

يُسجّل هذا الشيخ الملحوظات بقلم رصاص، يمسح ويصوب ما كتبه من أخطاء باستمرار، تماماً كتلاميذ الصفوف الأولى. يقعد على أحد مقاعد الصف الأول كأنه فارس مقدم مغوار يمتطي صهوة جواد، ينظر بإمعان إلى محرك السيارة المطروح أمامه، بينما كان المدرس يشرح أدق تفصيلاته.

ظهْرهُ عريض ولم أعد أرى شيئاً لا المدرس ولا المحرك، ملثُ برأسي يساراً ويميناً لأشاهد الأمور أمامي كما ينبغي. انتبه المدرس إليّ، تفوّه ببعض الكلمات مجاملاً، قال لي مبتسماً مملماً شفتيه بعد أن مرّ لسانه عليهما:

- يمكنك تغيير مكانك إن أردت.

انتبه إليّ بطلُ الحرب ذو الظهر العريض الطويل، أدار وجهه إليّ مبتسماً، مستفهماً، قلتُ له:
- لا، لا، لا تبال، كل شيء تمام الآن.

كذب! كذبتُ عليه، جاملته، لم يكن كل شيء على ما يرام، لكن لن ينفعني شيء الآن، ولن أستوعب أي شيء. لم أبال وصرْتُ أسخر! أسخر! أسخر!

عجيب أمر هذا الشيخ، في السبعين من عمره! ما له وتعلم السواقة؟ بعد ما شاب ودّوه للكتاب! ضحكك مع نفسي، قلت لها: أطلب العلم من المهدي إلى اللحد!

لا، لم أتكم من هذا المحارب القديم، رجلٌ بعمر المرحوم جدي، مع ذلك يصغي بانتباه إلى كلام يدوّخ الرأس. شيخٌ جليلٌ، أتخيّله كأنه عرّف من هذا العالم وسيأخذ كل ما يقدر عليه قبل أن يغادرنا إلى دار حقّه. وأنت أيها اللقلقُ ألقلقُ، السقيم، المتعب، المهموم، المغوم، المتسابق أبداً مع نفسك والآخرين والريح، المشتت والمتأخر دائماً، لم تجهد نفسك لتتعلم قليلاً تلك المصطلحات الميكانيكية، تستكثر عليها هذه المعرفة الجديدة وتعالى عليها كأنك أبو العريّف! تفو عليك يا وجه النحس! لو كان الأمر يتعلق بالسياسة لفهمته، لو كان الحديث

يدور عن الطبقات والصراع الطبقي والمجتمع والحكومات والانقلابات في بلادك المعذبة لتصدرت الحديث بعاطفية وسطحية وتحيز.

* * *

هكذا أنت، وهكذا هم كل أختوك وأصدقائك، تتممون بالشكليات والسطحيات ومراقبة الآخرين بعيونكم الفضولية. عيون، عيون فضولية، عيون تنظر إلى الخلف وإلى كل الجهات، ترابق الناس، عيون تنظر نحو مؤخرات النساء، صدورهن، الرفيقات والصدقات، عيون تنظر في الأعماق، تكشف ما خلف الملابس، تتخيل الأجساد، تغرق في أشرطة الأفلام الخيالية. أفواحكم تصرخ: نحن...، إننا...، قمنا... على درب النضال ... وإلى الأمام".

في **الدرس الماضي** كنت كالعادة قلقاً. حدثت "زميلتك" الجالسة إلى جانبك عن قلقك المأساوي. نظرت إليك بعينيها الزرقاوين بلا اكتراث، ابتسمت وعيناها تطلبان منك الهدوء، راحت تمرر باسترخاء أصابع يديها البضتين الطويلتين بين خصلات شعرها الأشقر الطويل. استهواك منظرها، كنت كالمفجوع. ماذا كان رد فعلها؟ وماذا سيكون؟ هل تتصورها جديّة مثلك؟ هل تعتقد أنها تعاني ما تعانيه؟ أنت تريد أن تفهم كل الأشياء بخفايرها، هي لا تبالي للتفصيلات، أنت تريد أن تصير ثائراً وقائداً وميكانيكياً ومهندساً وطبيباً بينما هي شابة عملية، تريد أن تكونَ أمّاً لأطفالٍ جميلين ينعمون بالراحة والأكل والشرب والنوم قبل كل شيء. هذه أمور تعتبرها تافهةً تختلفُ عليها معها.

وهي، إضافة إلى كلِّ هذا، تعتقدُ أنك تبالغ في كلِّ شيء وتضخم الأمور. باختصار أنت "مهووس" بالنسبة لها. لم تقلْ لك ذلك، الأنثى تُلَمِّح لا تصرِّح. في الاستراحة قالت لك:

- أنت الوحيد في هذا العالم، تحمل على كنتفك هومٌ الأجيال السابقة واللاحقة، مجنون أنت! هكذا سخرت من قلقك، اعتبرتكَ معتموهاً، قالت لك ملتصقة بك أكثر عندما كنتما واقفين:

- وهل تتصور أن الآخرين يفهمون كل التفصيلات، كل الكلام؟ هل تعتقد أن هذا الرجل المسن يستوعب أكثر من 30% من المحاضرات؟ بالمناسبة، زوجته صديقةٌ أمي وأخبرتني أنه يريد

إجازة السباق لكي يتمكن من شراء السيارة، إنه بطل حرب ويحق له عمل ذلك بامتيازاته! أنت تعرف قوانين بلادنا!

لم تعقد الأمور يا مجنون؟ ما عليك إلا تعلم الجلوس أمام مقود السيارة وتشغيلها، أما التفاصيل فتركها ولا تدوخ رأسك بها، تظاهر بأنك تفهم كل شيء. ستتعلم السباق بالتأكيد وستحصل على الإجازة، وهي شيء جديد يضاف إلى كل ما حصلت عليه. المهم لا تقلق أيها المجنون!

قالت لك "الزميلة" زوجتك الجميلة عبارتها الأخيرة ضاحكة وهي ترتب شعرك وهندامك بيديها. أطالت النظر إليك بعينيها الزرقاوين الواسعتين، بل أمعنت التحديق في عينيك مبتسمة. كشفت ابتسامتها عن أسنان بيضاء كبيرة يفصلهما فراغ جميل. ودت لو تعانقك. هكذا قالت لك عيناها. لغة العيون هذه لا يمكن أن تخطفها. إنها أمر أسهل من محرك السيارة بكثير. اقتربت منك أكثر، وضعت يديها على جنبيك، وأردفت تقول هامسةً بينما أنت تشم عطرها: - أنت متعب، لم نتم كثيراً يوم أمس، عيناك متعبتان، لكنهما جميلتان، أحبهما متعبتين.. فرحت كالطفل شاعراً بالاطمئنان، أخذت تحرك رموشك، أو أنها صارت تتحرك لوحدها. سعدت لكونك لا تزال تملك رموشاً شعرت بطولها، تراجع قلباً عن هذه الفكرة، بل الشعور. إنها، زوجتك وليس رموشك، التي أعادت لك في حقيقة الأمر الثقة بالنفس. تمتت: "فعالاً وراء كل رجل عظيم امرأة!" ابتسمت ساخراً.

* * *

في الصف، همست لك زميلتكما الجالسة إلى الجانب الأيسر:

- أحمد، انتبه إلى المدرس!

حاولت أن تنتبه، تمتت ذلك كثيراً دون جدوى. لم تستطع الإصغاء، سرحت بخيالك وأصغيت إلى ذكرياتك عن طفولتك عندما كان والدك يقول لك معنفاً إياك:

- ابني، أنت مصاب بالشرود الذهني! إذا لم تتخلص منه خسرت كل شيء في حياتك! خفت كثيراً من كلامه الخطير، شعرت به ينزل كالصاعقة على رأسك الطفولي.

في الليل قلقت وأرقت، ثم نمت وفزرت، كان الصبية يركضون وراءك (في المنام طبعاً) صارخين: هيه! هيه! أبو فزه! أبو فزه! عندما كبرت و"ترعرعت" واشتدَّ عودك صرتَ تضحك من هذا الكلام، من هذه العبارات الجاهزة وطبعاً مثل الشرود الذهني.

في إحدى الليالي سألك والدك بعصبية، عيناه تلمعان ككرتين زجاجيتين سوداوين متصلبتين:

- قُل لي يا ابني، عقلك بأيِّ شيء مشغول؟

- بالشرود الذهني.

رددت عليه على الفور مماحكاً، يسألك:

- أعرف في الشرود الذهني، لكن أين شارد عقلك؟

- في أفريقيا!

- وما علاقة أفريقيا بالموضوع؟ ما علاقتك أنت بأفريقيا؟

- أفكّر بسواد الأفارقة. لماذا هم سود البشرة في حين أن أشجارهم مثل أشجارنا و....

تسمع من هناك ضحكات والدتك الجالسة في الغرفة الأخرى مشغولة بالوليد الجديد، يضحك والدك أيضاً رامياً كتابك، قائلاً لك:

- روح بُول ونام، ابني! أنت لا تصلح للدراسة وحرام التعب وإياك!

تشعرُ بسعادة كبيرة عندما يترك والدك لحالك، تتخلص من صراخه وعينيه السوداوين القاسيتين وتأنبيه، لم تذهب في هذه المرة إلى فراش النوم، بل عدت إليه متوسلاً للإجابة على سؤال ظلَّ يلح في ذهنك:

- بابا، ليش الأفارقة سود وعندهم موز واحنه ما عندنا؟

يضحك والدك في هذه المرة، يؤنبك على الشرود الذهني مؤكداً عليك ضرورة الاهتمام بالدراسة قبل كل شيء ويجيبك على سؤالك باقتضاب متقدماً نحو والدتك:

- لأن الجو عندهم حار والشمس قوية.

لم تفتنع بالإجابة، تسأله مرة ثانية، يصرخ، يزعق بك طالباً منك أن تذهب إلى فراش النوم لتستيقظ مبكراً. تجرُّ أذيال الهزيمة مطأطأ الرأس حزيناً ويبقى السؤال يلح عليك: "لماذا؟ لماذا؟

وعندما تلقي جسدك على الفراش تتذكر أسئلةً خفت أن تطرحها على والدك لئلا يؤنبك، سرحت كثيراً، شردَ ذهنك بعيداً حتى أدركك النوم واستسلمت لأحلامك متصوراً نفسك ستكبر وسترحل. تُغادرُ إلى مدن الشمال، حيث البرد والثلوج، بعيداً، بعيداً، بعيداً.

* * *

في النوم رأى حلماً آخر، لكنه طويلٌ وجميلٌ، تذكَّر فيه والدته وطفولته ومدرسةَ السياقة والشيخ الجليل طويل القامة صاحب الوجه المستطيل، بطلَ الحرب وحببيته المناضل أبو الريش، وطبعاً والدته والشروذ الذهني.

وها هو اليوم يستيقظ من نومه بعد سنواتٍ وتنقلاتٍ كثيرةٍ ليرى كل هذه الصور المتشابكة في حلم طويل كالكابوس، في نوم عميق ورأس ثقيل بعد حفلة السبت، لم يلتقط من صورها غير تلك التي أحبها، فما عليه الآن إلا الباخميل* الروسي ودعابات الروس في المقهى ليتذكر المقاطع الأخرى من حلمه مستمتعا برؤية الأهل والديار.

Moscow 1980

*نُشرت "مدرسة السياقة" في مجلة المدى الصادرة في دمشق، العدد 32 (2) 2001
**الباخميل: كلمة روسية تعني "كسر خماريه" باللهجة العراقية، وهي شرب البيرة أو قليل من الكحول في اليوم التالي لليلة الخمر لكي يصحى الرأس.

* الغيوم

يَتَجَوَّلُ. يمشي في الغابات مستنشقاَ الهواء الطلق، متطلعا إلى أشجار الباتولا الباسقة. اعتاد على هذه الهواية عندما كان ييحثُ أيامَ زمانٍ هو وأصحابه عن الفطر في الغابات بعد هطول الأمطار. في هذه المرة كان يمشي وحده. الهواء الطيب يهب على محياه بينما عيناه تتطلعان إلى جذوع الباتولا العالية البيضاء الرفيعة كأنها سيقان فتيات جميلات. يهبُ الهواء على أوراقها الصغيرة تتخللها إيقاعات البالالا يكا والأكورد يون الهارمونيكا الروسية تصل أذنيه شاعراً بروحه تُخلقُ من فرط الغبطة والفرحة. يتطلع إلى السماء عندما تتحرك الغيوم، تحجب الشمس، حيث تطلق سراحها، تشرق ساطعة مستمتعة بالحرية، يشعر بالبهجة ورغبة التحليق نحو أوراق الشجر ومنها إلى زرقة السماء مجتازا كلَّ الغيوم. بقي يسير ويسير لوحده. لا، لم يمش، بل ركض ثم وجد نفسه يطيرُ بأجنحةٍ قويةٍ كبيرةٍ إلى القمم العالية حيث تتناثر السُحب الكبيرة الهومة كالتلال.

يدورُ كالمروحة حول الغيوم المتناثرة كأنهن عجائز يتمتعن بالسمنة والعافية والسكون والركود والخشوع، كأنهن متلفعات بعباءات أو ملاءات رمادية اللون. كانت إحدى الغيمات النحيسات تضحك منه، تنظر إليه نظرات شزرر، أو في الحقيقة ترمقه بنظرات عدوانية بعينها المنتفتحتين، أرادت أن تلمطه على رأسه بيدها اليمنى السمينة كأنها يد مصارعٍ سمين من مصارعي السومو اليابانيين. بصقَ عليها، لم يشعر بالبصاق إلا بعد أن تساقط رذاذه على وجهه كالشظايا، ثم شعرَ بقطرات ماء تتساقط على جسده، عندها تبللَّ ظهره بها جاريةً عليه، ثم صارت كالسيول. دُهِشَ للأمر! كيف تتحولُ هذه القطرات إلى شلالاتٍ وسيولٍ.

انتهتُ إحدى العجائز إلى دهشته وحييرته، كانت تشبه الجدة أو البابوشكا ماريًا إيفانوفنا، السمينة القصيرة، كالعادة تسير في مقدمة مظاهرات احتفالات الانتصار على الألمان في التاسع

من أيار. تتمايلُ البابوشكا ماريا إيفانوفنا كالبطة متطلعةً يميناً ويساراً، وصدرها مليء بالنياشين والأوسمة.

في المساء كنا نحتفل في بيتها الصيفي، حفيدها كان صديقي، كانت تفرح بنا، تعد لنا الطعام من البطاطا المقلية مع البصل والثوم والفطر واللحم المبخر والمقدّد.

ولم يكن يهدأ لها بال ويغمض لها جفن قبل أن تتيقن من توفقنا عن شرب الفودكا.

نظرتُ إليه البابوشكا نظراتٍ شفقةٍ وحنانٍ قائلةً مبتسمةً:

- ها، يا حفيدي، هل خفت؟ ماذا كنت ستفعل لو كانت هذه السيول وابلًا من الرصاص؟

ضحكتُ قبل أن تسمع الجوابَ ململمةً شفتيها وهي تتمتم:

- كلُّ شيء سيهون، لا تُبالِ لها، هذا استعراض عضلات ليس إلا. هذه قصص عرفناها من الألمان!

اختفتُ الجدة البطلة، الغريب في الأمر أن السيول أيضاً توقفت بغتةً، تحولت إلى قطرات صغيرة، متواضعة ومسكينة لدرجة أنه حزن عليها، كأنه الجفاف والقحط.. مع ذلك نسي هذه الفكرة المتشائمة متذكراً فكرةً أجمل منها بكثير.

رأى العم أبو نبيل، بائع الحَمْص العراقي المطبوخ "اللبلبي الحار بالفروج". كان يقف بعربته أمام

مدرستهم مردّداً بطريقةٍ مسرحيةٍ ساحرةٍ ساحرةٍ كلائشه وعباراته الفصيحة المشهورة من قبيل:

- "قطر الندى وبل الصدى"، "وأخذ الطالب يفكر ويفكر ويفكر ويفكر، وراح يفكر ويفكر ويفكر حتى وجد الحل".

كّررُ أبو نبيل لازمته باستمرار كالاسطوانة دون أن يملّه أحدٌ. بيتسمون ثم يضحكون كثيراً عندما يردّد جملاً فصيحاً عديدةً لا تتناسب مع هيئته وملابسه البسيطة، رجلٌ كاسبٌ في منتصف العمر، قصيرٌ نحيفٌ، صغيرُ الوجه، غائرُ العينين، باسمُ الشفتين، فقيرُ الحال، لم تفارقِ الابتسامة وجهه. داهمته مرّةً مجموعة رجال أمن سريين، ضربوه وكسروا عربته، أخذوه بسيارتهم.

ومنذ ذلك الحين عرّف الناس أنه معارضٌ "عُوعي" هههه! يقصدون شيوعي، وسمعوا عنه القصص "البطولية" الخيالية الكثيرة.

قال لنفسه: "يا ترى أين هذا الفقير العصامي اليوم، وماذا حلَّ به بعد هذا العمر؟ لا بد أن عمره الآن في الستين. يا ترى هل لا يزال هذا الإنسان يبيع الحمص المطبوخ "اللَبَلْبِي" بعربته؟ هيهات لو يعود الآن العم "قطر الندى وبل الصدى"، كما كانوا يسمونه ويصق معي على هذه الغيمة العجوز الشمطاء"، لم يبداً على وجه هذه العجوز أي شيء من الطيبة والحنان، لا بمظهرها ولا ملابسها.

كانت هذه الغيمة من العجائز القويات الجشعات، تبدو جالسةً مكومةً كالقممات، إنما على الأرجح طويلة ضخمة سمينة، مترهلة، متعرجة اللحوم، ترتدي ملابسٍ ضيقة تُظهرُ هضبات جسديها ووديانه وتعرجاته. تمنى لو تسقط هذه الغمامة العجوز وتشرق الشمس.

حلَم بضوء الشمس يسطع في عينيه. مجرد أحلامٍ وأمانٍ. عبرة في مقلتيه، وغمره الفرح. قال لنفسه: "أعتقد أنه من حقي أن أمارس هوايتي في الأحلام والتمنيات. هي الشيء الوحيد التي يمكن أن أحصل عليها مجاناً"، أما أن تتحقق أو لا، هذا أمر خاضع للظروف وطبعاً مشيئة الله. من يدري؟ قد تتحقق هذه الأحلام! الله أعلم! لكن الشيء الذي أزعجني فعلاً، هو أنني تأملت كثيراً، تذكرتُ الفقير". كان يتحدث مع نفسه ومسحة الحزن باديةً عليه.

وتألم أكثر، لا يقوى على فعل شيء لمساعدة هذا البائع الجوال وانتشاله من فقره، وازداد ألمه لكونه لا يعرف فيما إذا كان هذا الشريف لا يزال حياً يرزق أم رحل إلى الله. وإذا كان قد توفي فهل ياترى مات موت الله؟ أم من الفقر والنكد والهجم والجوع؟ تبتاً لها من حياة!

إنها فعلاً قصة مؤلمة للغاية جعلته يشعر بلا جدوى العيش رغم تفاؤله الكبير فيها أحياناً. أو على الأقل أنه كان يعتقد أنه متفائل، لكنه على أية حال يعلم أن أصدقاءه يسخرون من تفاؤله معتبرينه ساذجاً وغيبياً. ازداد حنقه على الغيوم، إنما في حقيقة الأمر سبب كل هذه الأفكار والذكريات. على أية حال يبدو أن القدر وحده هو الحاكم الأوحده في بلاد الغيوم الجهنمية هذه.

بَصَقَ مرة أخرى على الغيمة، عندها شعرَ بيد تلطمه، يد إنسان، مغلفة بقماش خاكي، تصورها يد عسكري جبان يخشى الأقوياء، يستبد بكل الضعفاء، لم تكن ظاهرةً في الصورة المشوشة. لم يرَ غير يد خالته الوحداية المسكينة، لم تملك شيئاً في هذه الدنيا غير وجهه المنحوس وقميص خاكي تركه لها أخوه المقتول في الجبهة، تركه لها للذكرى بدون رجعة، وعدّها بأنه سيذهب بعد انتهاء خدمته العسكرية، إلى بلاد البترول ويعود منها وملابسه مشبعة برائحته وجيوبه مليئة.

تَصَوَّرَ أنه سيجعلها تودع وإلى الأبد أحزانها وذكرياتها عن زوجها ووالدته ووالده، هلكوا جميعهم إلا هي في حادث وصفته صحف الصباح والمساء آنذاك بأنه مروع!

لم يعد يتذكّر منه شيئاً، يريدها هي ايضاً أن تنسى إلى الأبد سقوط سيارتهم، في نحر مليء بالطمى وفضلات الحيوانات والناس. ماتوا جميعاً إلا هي! أجل، بقيت الخالة على قيد الحياة، كتب الله لها حياةً جديدةً، إي والله، نجت بأعجوبة!

كان "عصام كآبة" كما يسمونه، صاحب الوجه المنحوس "الطايح الحظ" كما كان يسمي نفسه، يلعب النرد مع أخيه الأكبر في البيت. كانت خالته المسكينة ترقد في مستشفى "المستقبل"، عندما أخبروها عن موت الجميع، صارت تبكي نائحة تولول نادية، قالوا لها مواسين كأن في كلامهم سخرية:

- الحمد لله أن المستقبل أمام أبناء أختك المرحومة، البركة فيهم، إن شاء الله يتوفق زيد وعصام وهمام.

قال محدثاً نفسه عن قرف وإحباط لم يشعر بمثلهما في حياته كلها: "أنا عصام كآبة كما يسموني، طايح الحظ والبخت، منحوس بكل ما تعنيه الكلمة من معانٍ باطنية وداخلية وخارجية، أنا عصام المنحوس، كانوا يقولون عني بأني شاب متشائم على عكس أخي زيد، أصبح مهندسَ نفط. نعم، هكذا كانوا يصرون على أن زيديا شاب متعلم، فرح، مرح، يجب المرح والمرج، يتصور أنه فعلاً سيطر على النحاس والبؤس وتخلص منهما، ويعتقد أنه لا مفر لبلاد البترول من استقباله ولا يمكن لها أن تستغني عن شهادته وقدرته وعبقريته، لم يحالفه الحظ، سيقَ

إلى جبهة الحرب وتحولت جثته إلى أشلاء في محرقتها. لأخيه الثالث همام ايضاً قصة أخرى ليست أقل مأساوية عن أخيه زيد.

ذهب هذا الشاب بعد تخرجه من الجامعة مباشرة إلى هناك، حيث المال، لم يُعُدْ منها حياً، بل مات متسماً بيد ممرضة لا تتقن شيئاً غير هز الرأس والبطن ولهجة محلية "مكسرة".

على أية حال لم تَحْتَفِ اليد التي لطمته تماماً، بل عاودت الظهور. إنها يد عسكري حقيقي هذه المرة. صاح العسكري به صارخاً، طالباً منه أن يكف عن الإلقاء. كان وقتها يلقي قصيدة عن الأشقر المختفي خلف نظارتيه. المفروض به أن يسكت، يتجنبه، لم يستطع الصمت كعادته. قال للعسكري الغاضب من قراءة القصيدة المثيرة:

- أخي شنو تريد مني؟

- أنت شتمت الحكومة. إنسان أغبر. مَنْ هو المختفي يا أغبر الوجه؟ مَنْ تقصد؟ ها، من؟
صَحِّحْ ساخراً من كلمة "أغبر". لم يسمعها منذ أكثر من عقد من السنوات، قال لنفسه "أغبر، أغبر!" استلطفها، استذوقها واستطعمها كأنها أكلة شهية طيبة المذاق، حلوة على مسامعه رغم معناها السلي، ويدندن: أغبر يا أغبراني، على وزن أغنية: أسمر يا اسمراني، وفكرَ بها كثيراً قائلاً له بسخرية:

- هذا اللي تسميه أغبر هو القديس.

ردَّ عليه في الحال، بانت أسنانه، بدا وجهه الوسيم ذو العينين الواسعتين السوداوين المتوثبتين والشاربين الطويلين السوداوين، كحيوان وحشي يَهْمُ لافتراس طريدته:

- أنت مخرف؟ أي قديس هذا؟

يَشْعُرُ برجفة في لسانه وفكيه متخبطاً نفسه صغير الحجم كالفأر، ضعيفاً نحيفاً يواجه جلاداً طاغيةً، أجابه بدون أن يشعر بسماع صوته:

- القديس هو أنا يا مخرف، لهذا أنا طايح حظي وبختي، أنا هو الأغبر ولا يوجد أحد غيري أكثر غبرة مني في هذه الدنيا، لا أعرف اللف ولا الدوران. يعجبك أم لا؟

عندها ضربه هذا العسكري ضربةً قويةً، صَفَعَهُ مرَّةً أخرى صَفْعَةً أحدثت رنيناً قوياً في أذنه ثم ركله وأخذ يعضه بعصية، نَمَشَ جسمه نَمَشًا، تحول إلى وحش مارد، جبار، أسود اللون كبير الحجم، حاول عصام تجنُّبه، درأه، رده عنه، صدّه ودفعه عنه بكل ما أوتي من قوة.

جَرَّبَ عصام الإمساك به من بطنه، دون جدوى، شَعَرَ فجأةً بنعومة جلد هذا الحيوان، فَرَوَّتَهُ وضخامة بطنه، عبثاً حاول التمكن منه، أعاد الكرة، لم يقوَ على ذلك، لم يقدر الإمساك به. بطنه كبيرة وفروثه سوداء ناعمة الملمس. صرَّح بأعلى صوته كان اليأس يدبُّ في جسده وأعماق روحه شاعراً "أن المنية قد أنشبت أظفارها" كما يقول الشاعر:

- ياناس ياناس!! إلحقوا لي! ساعدوني! الله يخليكم ساعدوني!

الغريب في الأمر أن عصاما هذا لم يسمع صوته، بل إنَّ أحدا لم يسمعه. قال لنفسه: "عجيب، غريب أمر صوتي هذا!! والغريب أيضاً أن صوتي لم يخرج من حنجرتي ولا من فمي ولا من بين ثغرات أسناني أو من خلال فراغ ضرسى المخلوع. لكن شيئاً مهماً لا بد لي من الإشارة إليه هو أنني سمعتُ صدى صوتي في قلبي".

هذا أمرٌ غريبٌ وهامٌّ للغاية برأيه، يعني أن قلبه قوي نابضٌ وصامدٌ أمام الوحش المفترس. الأمر الثاني الذي لا يقل أهمية عن الأول هو أن صوته كان فعلاً ينتقل بذبذبات خفيفةٍ كذرات الرمل المتساقطة من بين أسنانه، ثم سُدَّتْ الثغرات كلها به ما عدا مكان الضرس المخلوع. شَعَرَ بصوته يزحفُ بطيئاً كالسلفحفاة، تَصَوَّرَهَا ذكيةً للغاية، تمشي واثقةً الخطى باحتماً عن منفذٍ جديدٍ متصورةً نفسها رقيقةً كالأفعى أو كالحنكليز، لدنةً، مرنةً تستطيع المرور من خلال الفتحات الصغيرة.

الغريب في الأمر أيضاً هو أن هذه السلفحفاة، التي كان يتعاطف معها، اختفتُ ويبدو أنها يأسَتْ من محاولاتها، تركتُ الأمرَ للآخرين أو قد تكون عملتُ سحراً لنفسها. ذابتُ السلفحفاة، حلَّ الثعبان محلها.

أطلَّ "الحنش" برأسه من فتحة ضرئهِ المخلوع، يَأْنُ تحتَ وطأة أسنانه الضاغطة. تَمَّتَمَ لنفسه:
"مسكين هذا الحنش الأبقع، مسكين صوتي، لولا سني المقلوع ماتَ كما قضت من قبله
السلحفاة ولضاع كل اثر لصوتي". قال بصوت مسموع:

- أَلْفَ رحمة عليك يا مخلوع! عاش المخلوع! تسقط الرمال والكلاب والذئاب والأفعي
والحنكليز!

شعَرَ عصام فجأة بلمطة قوية، ثم ركلة، تبعثها أخرى أقوى من السابقة في مكان حساس، هناك
حيث الذرية، من قبل شخص قوي، ضخم الجثة، جاحظ العينين، كث الحاجبين، غليظ
الشفنتين، كان يردد جملاً ناقصةً مبتورةً فهمَ منها ما معناه:

- تَشْتُمُ الحكومة؟! كلب، حقير، مَن المخلوع؟ قل: مَن هو المخلوع؟!
عندها صرخ صرخةً عاليةً قائلاً لهم متوسلاً:

- بالله ضرسي هو المخلوع، والله العظيم المقلوع هو ضرسي، اقسم لكم بالله لم أخلع لا حاكمي
ولا صاحبي، لم أفلع غير ضرسي. طبيب الأسنان هو الذي قلعه.
وحتى لا تغضبوا عليّ، أقولُ لكم: تعيش الحكومة! يا! تعيش! فلسطين عربي، فلتسقط
الصهيونية! بالروح بالدم نفديك يا أبو...

لكن دون جدوى، كانت الركلات تأتيه من كل الجوانب أكثر عدّة وعداداً وازداد عدد الرجال،
الأشداء، الأشاوس، يضربونه مردّدين:

- تشتم الحكومة يا كلب! من المخلوع يا أغبر؟ تضحك علينا: بالروح بالدم نفديك يا أبو...
وركلة بعد ركلة، كان يصرخ ويصرخ، كان صدى صياحه قوياً في هذه المرة، ليس في قلبه
فحسب، بل في قلبها وهذا أمر عظيم، بل أكثر من ذلك ويصعب عليه الآن تقدير قيمته أو
وصفه بكلماتٍ عاديةٍ. فعلاً، يعجز لسانه عن وصف مشاعره الجياشة إزاء هذا القلب الكبير أو
"الكلب" كما كانت هي تلفظه بصعوبة. تمنى أن يكون الأمر حقيقةً وليس زيفاً، بل خاف أن
يكون هذا الفرح الشاعري مجرد حلمٍ. لكنه على أية حال شعَرَ بأنه تخلص من غمامة الغيوم
وشؤمها. وهذا لوحده أمر هام للغاية.

استيقظَ من نومه. رفعَ رأسه. كانت، تلك التي رنَّ صدى صوته في قلبها، متمددةً إلى جانبه مبتسمةً مستفسرةً "أنت حلمان خبيبي؟"! أجابها بكسلٍ:

- حلمان؟

أمعنَ النظرَ في عينيها الناعستين ووجنتيها وشفثيها المرطبتين، الجميلتين، تعضُّ أحدهما بأسنانها البيضاء كالوفر، تذكّر قولَ الشاعر "وعضَّتْ على العنّاب بالبرْد".

لا يزال ممدداً في سريره. رفعَ جسده قليلاً لينظر إلى الخارج من خلال شبابه، أزاح الستارة قليلاً عن نافذة غرفته في الطابق السادس عشر. البناية عالية تطل على ساحة محطة المترو. كان الجو بارداً والثلوج تَهطل باستمرار. هناك فتاة شابة تبيع الورد.

تقف متلفعةً برداء صوف تضعه على ملابسها الشتوية. إلى الجانب الآخر من الشارع تخطو امرأة كبيرة السن كما يبدو عليها من مشيتها، تسحبُ زحاقةً حفيدها الممدد عليها كأنه كتلة ملفوفة ببطانية.

يُراقبُ كلَّ هذه المشاهد من خلال زخارف الجليد المرسومة على بعض أجزاء زجاجة نافذته. بقي يتمعن بهذه الرسوم حتى أسدلَّ الستارة وعيناه لا تزالان شبه مغمضتين.

جالَّ بعينه في أرجاء الغرفة، نظر إلى الصغير النائم في سريره. تأكد من أن كلَّ شيء كان حلماً. مرَّ أصابعه على شفثيه متذكراً العسكريين والمخابرات والرمل والسلحفاة والأفعى متحسناً رأسيهما بلسانه، شعر بطعم الرمل وملوحته، تمنى أن ينسى منظر السلحفاة في فمه، حاول أن يتخلصَ من طعم جلدها.

احترار في تحديد طعم السلحفاة بلسانه. تذكر مياه الساحل الملحبة. راق له منظر السلحفاة وهي تحاول المشي تحت الرمال.

أمسك لسانه بأصابعه ليتأكد من وجوده بينما كانت "خلمان خبيبي" تراقبه ممعنة النظر فيه، تتفحصه مبتسمة. قالت له بعد أن رفعت جسدها قليلاً متكأةً على وسادتها وهي ترتب شعرها الأشقر الطويل:

- لماذا تمسك لسانك وتتحسس به بأصبعك، هل قطعوه في الحلم؟ هل قطعوا شيئاً آخر؟!

حكى لها القصة مبتسماً. سألته هل كان الحلم بالعربية؟ أجابها بأن الحلم كان حقاً خليطاً وأن العم ابو نبيل، بائع "اللبلي والفروج" كان يقول في الحلم بعض الجمل الجاهزة بالعربية وبغيرها. أما الجدة ماريًا إيفانوفنا، التي تمشي ببطأ كالبطة من ثقل أوسمة الحرب والسلام كانت طيبة معه حتى في الغيوم. غرقا في ضحكٍ قادهما إلى عناق عميق بينما كان صغيرهما يغط في نومه العميق و "براءة الأطفال في عينيه"!

Moscow 1979-82

* نشرت قصة "الغيوم" في مجلة المدى، العدد 35 (1) 2002

الهروب *

يبدو أن الجميع ينتظر. ماذا ينتظرون؟ لا أحد يمكن له الإجابة على هذا السؤال قبل أن يتمعن كثيراً ببهيماتهم وأشياء يحملونها معهم. الأرجح أنهم مثلاً ينتظرون قدوم حافلة. جمهرة الشباب المنتظرين مستعدة للسفر إلى مكان ما. هيئاتهم تشير إلى ذلك. هكذا يبدو الأمر. هذا مجرد حدس أو تخمين ولا أحد يعلم بالضبط سبب وقوفهم وانتظارهم. الله أعلم ما في خفايا الأمور.

تبدو على الشباب مظاهر الدراسة الجامعية. هندامهم وطريقة حديثهم وأسلوبهم وملابسهم واختلاطهم مع الفتيات يوحي بذلك. يتوسّطهم شخص تبدو عليه علامات الأستاذية والتفكير الطويل والعميق والتنظير والتفسير والتبشير والتنوير والتبرير والتدبير. عيناه تخفيان ماضياً طويلاً مليئاً بإجابات جاهزة على أعقد المسائل الفكرية وبأشياء كثيرة وكبيرة وحاضرٍ منحورٍ "محمورٍ" مدحورٍ.

همس أحد الشباب بشيء ما في أذن هذا الرجل. يتميز "المنظر" بوجهٍ جدّي ذي ملامح غامضة، ملتج، يعتمر نظارةً طبيةً ذات إطار بني أنيق مناسب للون بشرته الخنطي.

لا شك أن الطالب الجامعي أخبر هذا الإنسان شيئاً ما. من يدرى ماذا قال له؟ العلم عند الله. كانت مسحة الرجاء باديةً بوضوح على وجه الشاب أثناء همسه في أذن التربوي المنظر المدبر الميرر المصير الملتحي المنتحي المنتهي وكان الأخير يصغي صامتاً واضعاً كف يده اليمنى تحت حنكه، موجّهاً نظراته إليه هازأً رأسه دلالةً على الإصغاء والانتباه.

حالما انتهى الهمس حرّك الأستاذ يديه إلى الأمام، كأنه يقول بصمت: "هذه أمور لا علاقة لي بها". هكذا تشير الإيماءات، من يدرى؟ محتمل العكس صحيح! والله أعلم ما في الصدور وخفايا الأمور!

هناك امرأة تدب فيها الحياة. هذه المرأة تتميز بالأمومة والجدية. واضح أنها اعتادت إصدار الأوامر. تُشيرُ بيدها نحو اليسار واليمين، كأنها تقول: تعال إلى هنا! أقعد هناك! تبدو شابّة. في زهرة شبابها.

ليس بالضبط، إلا أن الأكيد، بل المؤكد أنها امرأة تدب فيها العزيمة والإرادة والحياة. أم!

قد تكون في عمر الشباب، لكن ملامح الجدية على وجهها جعلها تبدو أكبر من عمرها بقليل، قد يكون العكس صحيحاً! تبدو أصغر من عمرها بقليل.

قد يكون هذا الكلام فنطازياً وغير مقنع، فعلاً يختار المرء في تقدير أعمار بعض الناس. وهذه المرأة من هذا النوع من هؤلاء البشر.

عينها عسلتان جديتان. شعرها طويلٌ ناعمٌ وسيلٌ، أسودٌ، تملُّ بعضُ خِصَلِه إلى اللون البني الفاتح بفعل الحناء والشمس.

تتميزُ هذه المرأةُ بمسحةٍ جمالٍ خاصةٍ، لا تُجَاعِدُ ملحوظة في وجهها الناعم البشرة. هناك انسجام بين لونِ بشرةِ وجهها وشعرها الأسود. والأهم من هذا وذاك أن نظراتها ذات لونٍ داخلي، خفي، غير مرئي، أو إحساس من مستوى خاص.

بشرتها البيضاء ولون شعرها الأسود يعطيانها روعةً ساحرةً تُضاف إلى قدرتها على الحديث بالإشارات والإيماءات والنظرات والهمسات.

امرأةٌ طيبةٌ معطاءة، والله أعلم إن كان هذا الأمر مجردَ تصوراتٍ أو انطباعاتٍ شخصيةٍ، لكن الأمر الأكيد، بل المؤكد أن الجميع كما يظهر متفقٌ على أن نظراتها صادقةٌ وساحرةٌ.

هذا رأي قد يعتبره بعضهم: "مبالغاً فيه"، مع ذلك يتضح من تعامل الآخرين معها أنه أقرب إلى الحقيقة. لكن مع ذلك يمكن الشك بما.

كان يبدو على الشباب أنهم يتحاشون هذه المرأة القيادية. لماذا؟ الله أعلم. الفتيات كن يقتربن منها ويصغين إليها بانتباه. عيونهن مليئةٌ بالإعجاب والفخر والسعادة، كأنهن فرحات لسيطرة امرأة على هؤلاء الرجال السمر. هكذا هو الجو العام.

الأمر الأكيد والمؤكد أن إحدى الفتيات همست في أذن صديقتها ناظرةً نحو الشاب، الواقف بجذر إلى جانب المرأة المتسلطة. ضحكت الشابة الأخرى. لا بد أن الأولى همست لصديقتها شيئاً ما مضحكاً، هزلياً مثل: "مسكين، حاسب نفسه شخصيةً كبيرةً علينا!" أو "راح يبول على نفسه"، وإلى آخره من هذه التعليقات الشبائية في أجواء الاختلاط الحديثة عليهم. هكذا هو الأمر في مخيلتهما. الله أعلم بما همست البنث لصديقتها وسبب ضحكهما.

من الواضح، الأمر الأكيد، بل المؤكد أنهن كن فرحاتٍ، يقفنَ ويضحكن ويتحدثن بلباقةٍ. نظرَ أحدُ الشباب إليهن بحنقٍ. كانت عيناه تقولان: "الكلب يتسبّع قدام بيته". ازدادَ فرحُ الفتيات عندما أشارت إليهن المرأة الرجل الحديدي "تاث شر" بلبامةٍ من طرف عينها اليسرى كأنها تقول: "الترمن بالهدوء! عيب يا بنات!"

الفتيات خجلنَ، بلعنَ ريقهن، تظاهرن بطاعتها منكساتِ الرؤوس قليلاً، هامساتٍ بصوتٍ منخفضٍ يكاد يكون غير مسموع: العفو دكتوراه!

أخيراً وصلت حافلةً، تحقّق حدسنا، بدأ الجميع بالتوجه نحوها والصعود إليها. كلُّ أحدٍ أخذَ مكانه فيها. خيّم الهدوء للحظاتٍ بعد أن جلس الشباب و"الأستاذ" و"المرأة الأم". بدأ السائق ذو الكرش العظيم يضع بعض الحقائق في المكان المخصص لها. كرشه ضخّم، خصره عريضٌ، قميصه يفلت من محزمه، يتهدل، سرواله الأزرق، ينزل قليلاً عن وسطه. بانّت مؤخرته قليلاً، بيضاء طفوليةً. الفتيات تطلّعنَ إلى بداية الخط الفاصل بين رديه، تبادلن النظراتِ.

عجيزته ضخمةٌ، يرمقها بخجلٍ شرقيّ. ضحكَن بصمتٍ. اكتفين بالابتسامات! السائق الأشقر، الذي تبدو عليه ملامح الطفولة والطيبة والبراءة غير مبالٍ بردفيه، نشطٌ، يعمل بحماس كأنه ينقل أفراد عائلته، يرمقهم بنظراتٍ ودّيّة، متحدثاً إليهم بالإنجليزية. لسأته يملأ فمه، "الغده" يملأ رقبته، يضغطُ على فكّيه، يتحدث بصعوبة، محرّكاً فكّيه الممتلئتين هنا وهناك.

تأكدَ السائقُ من صعود الجميع. قرأ قائمة الأسماء المكتوبة بالإنجليزية. بعدما تحقّق مرّةً أخرى من حضور الركاب كلهم بدون استثناء، توجه نحو مقعده، جلس عليه امام المقود، بدأ بتشغيل محرك الحافلة. تحركت، استدارت يساراً وبميناً في شارع عريض، ثم انطلقت الحافلة تسير بسرعة خيالية، كالبرق، بل أسرع منه بكثير.

أغمض الأستاذ عينيه، غلبه النعاس قليلاً، تخيّل المركبة تنطلق في الهواء لا على الأرض، إتناه الخوف، من شدة الهلع، الحافلة فعلاً انطلقت كالصاروخ، اجتازت طرقاً كثيرةً، جديدة ونظيفة، تحيطها من الجانبين غابات وبحيرات جميلة، فتح الأستاذُ عينيه متخيلاً أن الباص على حين غرة بدأ يدخل في مناطق تمتُّ لروحه بصلة قري، شمّ رائحة خاصة، قريبة منه.

ترائي له أن هناك أشياء تتساقط على سقف الحافلة، أحسن بالدفء الشديد، أطلّ بوجهه من النافذة، لم ير الغابات ولا البحيرات.

شاهد حشوداً من البشر يتعاشش بعضهم على بعض كالحشائش غير مبالين بسرعتها، دخلت في سوق شعبي مسقف مثل بازارات مراکش، الناس يتطلعون رافعين أيديهم تحيةً وسلاماً. تسيرُ الحافلة على أقدام بعض الرجال والنساء والأطفال النائمين على جانبي السوق، أقدامهم نحيفةً، عظامٌ شبه عارية.

تأسّف الأستاذ لما يرى، شعَرَ بالغصة والألم والاستباحة، همّ بالنهوض من مقعده ليوقف السائق، لاحظ لامبالاة الناس، استمروا في مزاحهم وضحكهم وتحياتهم للحافلة واقفين على جانبي السوق يرفعون أياديهم، بعضهم، والحق يُقال يُسرّع مهرولاً نحو المدهوسين لنجدتهم، لم يكونوا مكترثين لدهس السيارة لهم أو مهتمين للأمر إطلاقاً، قسّم منهم اكتفى بسحب رجله بعد أن مرت عجلات الحافلة عليها، بينما نهضَ شاب آخر مرتّباً ملابسه الرثة الفضفاضة متمماً بكلماتٍ، لم يسمعها الأستاذ، توقعه قال شيئاً مضحكاً ولاحظ أن الجميع تجاوب معه في الضحك. واصلت الحافلة انطلاقها الصاروخية، لم يعد بوسع الأستاذ متابعة المشاهد من خلال نافذتها. انقطعت اللقطات، واحترق الفيلم!

* * *

يجلس الرجل الجدّي، الذي تبدو عليه ملامح الأستاذية والتنظير والتدبير في السيارة. المركبة في هذه المرة مكشوفةٌ وليست حافلةً. تلك اختفت هي وركابها الشباب، وحلّت محلّها سيارةٌ نقلٍ قديمةٌ ووسخةٌ.

مركبةٌ نقلٍ بضائعٍ، سيارةٌ شحن أو بالأحرى "بيك أب"، عربية نقل خاصة بالمواد الانشائية. باختصار: إنها لوري صغير. هكذا كانت تبدو الصورة الأخيرة للأستاذ برفوق! وقد شوّه الزمنُ أستاذيته. يبدو أنه مُهَرَّبٌ في لوري كبيرٍ هذه المرة!

تبدو بقايا هذه المواد الإنشائية مبعثرةً، واضحةً في هذا اللوري: قليل من النورة البيضاء، بعض القطع الخشبية، أكوامٌ إسمنتٍ صغيرة، وطابوق مكسّر وأحجار بأشكال مختلفة.

الأستاذ يَضُمُّ في هذا الحين طفلةً صغيرةً. الجو باردٌ، الريح عاتيةٌ تصفَعُ وجهه، أراد أن يحمي بنته الصغيرة المسكينة من البرد، وضعَ يده اليميني على أذنها. حاول أن يمازحها قائلاً:

- قولي: لوري وراء لوري، لوري وراء لوري! وبسرعة، ها، تقدرين؟
لم تجبه بشيء. تشعرُ بالبرد.

المرأة "الحديدية" تجلس إلى جانبه، إختفت منها علائم الأمر والنهي، اصبح وجهها في هذه المرة أكثر صرامة، حزينة ومتألمة، نظراتها كسيرة، وتبدو أكبر من عمرها بكثير، شعرها أشيب منفوش، غير مرتب.

أشياء كثيرة تغيرت في ملاحظها، هناك أمرٌ غامضٌ! الله أعلم ما في خبايا الصدور، سبحانه معير الأحوال. تلبسُ المرأة قميصاً قطنياً، كانت لا تباي بالبرد والهواء. الله اعلم إن كانت تشعر به أم لا، إلا أن الأکید والمؤكد أنها تعاني جزاء العذاب والتعب من رحلات طويلة مخفوفة بالمخاطر. وهناك أمران آخران، واضحان في نظراتها كما عهدناها: العزم والإيمان!

الرجل الجدّي الملتحي إنزاحت منه علائم الأستاذية، دخل بيتاً كبيراً فيه حجرات كثيرة وواسعة، أرضها مصنوعة من أحجارٍ عريضةٍ مربعة الشكل بيّنة فاتحة اللون "فُرشي". استهوته هذه الكلمة القديمة، تمتم "يبدو أنهم كانوا يسمونها "فرشي"، قد يكون لأنها مفروشة شيئاً ما". كأنه حجر من بقايا سومر وبابل.

قال لنفسه فرحاً: هذه حجرات وليست غرفاً! إنها واسعةٌ وقديمةٌ ذكّرتَه بمنزل جدّه القديم، يُسمون الغرفة حجرة. لكن دار جده تتوسطه باحة بينما تتوزع الحجرات والمرافق حولها. أما هنا فالأمر غريب عجيب! الغرفة الأولى أصغر من التي تليها والثانية أصغر من الثالثة وهكذا. يعني باختصار غرفة داخل غرفة.

ردّد بين نفسه مسلياً إياها: "قل لثلاث مرّات: غرفة داخل غرفة!"، ابتسم وصار يردد العبارة أكثر من مرة أثناء دخوله فيها، يدخلها دون أن يجد مخزجاً، تصوّر نفسه في متاهة لا تختلف كثيراً عن حياته. كيف سيخرج من هذا "الحوش" القديم إذن؟ أمرٌ شغل باله لفترةٍ وجيزةٍ ثم نساه. لماذا

نساه؟ الله أعلم. هذا المنزل قديم، كثير الغرف والباحات والدهاليز، مسكون بالجن، لكنه غير مخيف بالنسبة للأستاذ.

شعر أن شخصاً ما يتفقد بيت العجائب والغرائب هذا كما كان يخلو له أن يسميه أحياناً. يبدو أن هذا الغريب جاء ليستطلع البيت الفارغ ليسكن فيه. همّ الرجل الأستاذ الجدي الحزين المهموم "المفروم" بالخروج. لاحظت أمام ناظريه دراجة هوائية قديمة.

تفحص عجلاتها، تأكد من سلامتها. أراد أن ينطلق بها. غير رأيه متوجهاً نحو الباب الرئيس. ظهر هذا الباب فجأة. كان الباب كبيراً عندما دخل الأستاذ "المفروم" المبنى القديم، يشبه البوابة الواسعة، خشبها أحمر، متسخة حتى السواد من حوافها، مرصعة بدوائر حديدية مثل بوابات العصور الوسيطة، لكنها تغيرت فجأة وصارت باباً اعتيادياً صغيراً.

عند فتحه الباب لأول مرة لاحظت أن هناك باحةً وحديقةً صغيرةً مهملة متروكة، وجد أمامه سلماً يؤدي إلى الباب الخارجي. كانت السلالم قديمةً ضيقةً عاليةً طويلةً، مصنوعة من الحجر المربع العريض أيضاً "الفرشي".

تهيأ للأستاذ بأن الأفاعي والثعابين والكوبرا تختبئ في شقوق جدران البيت وثقبه. وتذكر حشّ الصحراء الكبرى وعقاربها الصفراء والعراييد السامة من الطفولة. ارتاب حقاً وأدركه الخوف والقلق، وانطفأ وجهه الشاحب.

وتوجس الرجل الجدي خيفةً من هذا السلم الضيق العالي قليل الميلان.

تطلّع إلى هيئته وحذائه بنظرة غرائبية عجائبية. حذاؤه قديمٌ بلا كعبٍ. سرواله عتيقٌ بال، قميصه شتوي متهرىء. ضرب الأستاذ ذو الحذاء المخلوع العتبة الأولى بقدمه اليمنى ضربةً قويةً منطلقاً يتحرك إلى الأمام بتؤدة.

ماهي إلا لحظات حتى أصبح يقفز قفزاتٍ سريعةً على أنغام الرقص الإسباني وتانغو وكارمن حتى وصل إلى الباب الخارجي. خشبي صغير، لا يجلب الانتباه، كأنه منفذ سري خاص! فتحه بسرعةٍ وعزيمةٍ راسختين كأنه مقدمٌ على عملٍ كبيرٍ. خرج من العتمة، فرك عينيه، الشمس ساطعةٌ والسماء صافيةٌ ناصعة. كانت هناك امرأةٌ عجوز تجلس إلى جانب المرأة القيادية الجديدة.

لم تعد كذلك أبداً، انتهى ذلك الزمان وتغير الآن كل شيء فيها. انطفأت. هبت طفلة صغيرة جميلة راکضة نحو الرجل الجدّي، المهموم، المغموم، المهذوم، الملطوم، "المفروم" صاحب الحذاء المخلوع المزمووم.

- بابا، بابا!

احتضنها فرحاً بها! ارتطم رأسها برأسه أو رأسه برأسها، لا يهم هذا الأمر، لكن المهم أنها بكت كثيراً من شدة فرح اللقاء. شعر بالألم.

قالت المرأة الجديدة ذات ملامح الأمومة في ابتسامية تحثت من وجهها علائم الأمر والنهي:
- مو مشكله، تكبيرين وتنسين، ماما! فومي من الأرض، ملايسك تتوسخ إذا بقيت تتمرغلين بالتراب!

سأل الأب في حزن عميق وبصوتٍ منخفضٍ ناظراً إلى المرأة الحزينة متلمساً شعراً ابنته:

- يوجعك رأسك بنتي؟ تعالي حبيتي، تعالي!

شعر هو أيضاً بألم في رأسه. تحسّسه بيده اليمنى. اندهش لسائلٍ دافئ، شعر به في رأسه.

* * *

فتح عينيه غير مصدّقٍ ما يرى حوله. تفحصت نظرائه المكان. أين ابنته؟ أين زوجته المرأة الشابة؟ أين أمه المرأة العجوز؟ أين آلام رأسه؟ تحسّس رأسه مرةً ثانية، وجد أن كل شيء على ما يرام. لا شيء من هذا كله. شيء ما كان موجوداً هناك. أراد أن يقوم ليغتسل، أجلّ الفكرة. عرف أنه لا يزال ينتظر وحيداً بدون عائلته في هذا المكان البعيد، في أعماق الغابات الإسكندنافية. عاد إلى النوم حزيناً!

* ناكيبول، جزيرة فوين، الدنمارك 1990 - Danmark- Nakibyl-

نشرت قصة الهروب في القدس العربي الصادرة في لندن بتاريخ 11 مارس/ آذار 1999

* العيان الدائرتان *

في البداية كنت أظن أن السير على الأقدام متعة كبيرة. لا، لا شيء من هذا الأمر إطلاقاً. هذا كلام فارغ، هراء. لم أظن شيئاً على الإطلاق. لم أفكر بشيء... كل ما في الأمر أنني كنت أسير، أسير، أسير، إلى أين؟ لم أكن أدري ولا أعلم. كنت أسيراً للمسير وشم الهواء الطلق ولم أفكر بشيء خاص. الشيء الذي أذكره أن السماء كانت صافيةً والدنيا هائلةً والشمس ساطعةً محرقةً، أتلقى بلهيبها وبحرارة الإسفلت لأول مرة في هذا الشارع العريض بعد فراقٍ طويل، دعني أتذكر كم كانت مدته..

- لا تسمّ كلّ الأشياء بأسمائها... لا تتعب نفسك... الناس لا يباليون بمثل هذه التفاصيل... المهم ما في الأمر أنك كنت تسير في شارع الطفولة قبل غربة طويلة... غير مهم كم هي مدة الفراق... يا أخي خلّصنا واحك لنا القصة كلها، منذ بدايتها حتى نهايتها. وإذا كان مزاجك يلح عليك أن تتذكر كم سنة افتقرت عن الشارع العريض فعليك أن تذكر الرقم التقريبي وكفى. كم؟ هل نسيت؟ يا رجل، دوختنا.

- لا، لا، طبعاً لم أنس. آه.. انتظر لأتذكر، نعم تذكرت الأمر بالتمام والكمال كما يقولون... لقد..، بلاش "لقد" إفتقرت عن هذا الشارع العريض فترة دامت سبع عشرة سنة. يا إلهي... هل هذا صحيح؟ يمكن أن يكون هذا الأمر حقيقةً؟ معقول؟ نعم. هذا هو عين الحقيقة، المهم، كنت أتلقى بحرارة الأسفلت، أرجوك لا تعترض على هذه الكلمة، ماشي، اتفقنا؟ ماذا؟

لا تعجبك كلمة "الأسفلت"؟ لماذا؟ آه، فهمتك، لأنها ليست كلمة عربية، طيب، طيب سأقول الزفت أو "القطران" أو "الجير" بدلاً عنها، المهم لا تغضب عليّ.

أرجوك لا تقاطعني كثيراً. شفت؟ نسيته الموضوع. آه.. تذكرت حرارة "الجير" وكيف يسبح من شدة الحر، كنا نلعب عليه كرة القدم أيام زمان، منذ الصباح الباكر حتى المساء، وكنت أناادي مع أولاد المحلة: إلى متى يبقى البعير على التل؟ فتد علينا مجموعة أخرى من أصحابنا بصوت

أعلى من أصواتنا: يبقى البعير على التل حتى المساء! وهكذا. كان شاعرنا معروفاً آنذاك في منطقتنا.. آه ما أحلاه، شارع الطفولة والصباب.. والعينين الدائرتين.. والعمّازات من وراء ستائر الشبابيك، وكراتنا المسكينة، كان الحاج عبد السلام يقطعها بالسكين أمام أعيننا متلذذاً بألما وحزننا. كان الحاج عصبيا يزعج من لعب كرة القدم أمام بيته و..

قف! من فضلك لا تسترسل، لا تتعبنا بذكرياتك، نحن لا نعترف بالشوق، أو بالأحرى لا نريد له أن يأخذ مأخذه منا... أرجوك، حدثنا عن حرارة الأرض.

ماذا بعد هذه الحرارة؟ هل كُويت رجلك بها؟ يا ليت لو تكوي السخونة لسانك، ونخلص منه ومن عذاباته! لسانك حصانك، إن صنته صانك!

- آه نعم، لساني حصاني، إن صنته صاني، العفو أقصد صانتي! طيب، طيب، كنتُ أسير، لا عفوا في هذه المرة كنت أمشي وكان بيدي عكازٌ واحدٌ... لا، عفوا لم يكن عكازاً واحداً بل ثلاثة عكازاتٍ قصيرة، كان العكاز الواحد منها يشبه المسدسات القديمة، كان جدي يسميها "الوُزُورُ" !! من أين هذه الكلمة؟ لا أعرف بالضبط، ولكن لا بد أنها من الفرنسية "ريفارفير". ساعني لا أعرف بالضبط.

- المهم.. لا تسترسل.. لا علاقة لنا بجذك العشائري ولا بمسدساته، دعنا من هذه الأحاديث الجانبية، استمر في الزبدة، لبّ القضية وبيت القصيد.

طيب، حاضر، اسمع القصة: ومن بعيد، لا ليس من بعيد جداً، لمحتُ أطفالاً يحملون أشياءً مثل المسدسات، أقصد مثل العكازات السوداء. أنظرُ إليهم نظراتٍ فضوليةً خاطفةً سريعة، متسرّعٌ في كل شيء، أريد معرفة الأمور باللمحة. وازداد الفضول عندما لمحت وجوهاً تشبه البوليس، ليسوا شرطة أيام زمان المرتشين، البسطاء من أهل الله، بل من البوليس المحترفين، أقصد رجال الامن الأصليين... إي، بلى، من البوليس. كانوا بيضاً، حُمراً، قساةً الوجوه والعيون، بملابس مدنية..

نعم أزياءٌ وهم مدنيّة، مظهرهم يوحي أنهم متعلمون، يريدون الإمساك بالأطفال و..
- وأنت؟ ألسنتَ طفلاً؟ يعني شنو؟ أنت مو طفل؟ ما أنت برده طفل يا أختينا؟

- يبين عليك من سؤالك أنت تتهمكم، صرت تحكي بالمصري والعراقي، مع ذلك أجييك وأقول لك بلي، نعم كنتُ طفلاً، لكني كنت أسخرُ منهم، أراقبهم من بعيد وأستهزء بهم، رأيتهم يمسكون أحد الأطفال، أخذوا منه عكازاً واحداً، أخرجوا من داخله منشوراً خاصاً، الظاهر، سريراً، ورقة صغيرة، أو هكذا كانت تبدو، أوراق رقيقة، شفافة، خفيفة، مطوية عدة طيات. فتحوها، صارت كبيرة، طويلة عريضة بحجم الشارع العريض، حيث كانت أمي تنتظري فيه حتى تعيدني إلى البيت بعد اللعب.

المهم، حدثنا عن المهم. ماذا بعد؟ شنو صار؟ لا تتشعب بالحكي وتعلِّم أصول الكلام: الدقة والاختصار، خير الكلام ما قلَّ ودلَّ. هكذا قالت العرب.

قلت لك أكثر من مرة لا تكن ضعيفاً أمام ذكريات الطفولة، تستهلك مشاعرك وطاقاتك، عليك استخدامها عند الضرورة القصوى، وتذكّر أن حياتك ليست ملكاً لك بل للآخرين، مفهوم؟

والآن احكِ لنا القصة، ماذا حدث لك فيما بعد؟ شنو صار معك؟ يله بسرعة ولا تدوِّخنا!

- يا أخي أنت الظاهر عليك مصاب بداء السرعة، يعني مثل "عباس مستعجل". ألا تعرف بأن داء السرعة أخطر من السرطان، لا تضحك، لا تسخر من كلامي، أنا أحكي معك جدّيات، والله عن جد، السرعة أكبر خطر على المجتمع.

الإنجليز عندهم مثل يقول: أسرعوا ببطاً. أنت واحد مسرع، مستعجل، عجول وأنا راح أحكي لك القصة مثلما يروق لي، مثلما يعجبني.

يا سيدي رأيتهم يفتحون الورقة، شفتُ فيها رسوماً وتخطيطات كبيرة وكثيرة، تشبه تصميمات البيوت السكنية. فيها غرف صغيرة وكبيرة وممرات ومدخل ومجازات وشوارع وحروف وعلامات استفهام والخط، ما فهمت منها شيئاً، بس سمعتهم يصرخون بالأطفال: "كشفتناكم، عرفنا كل شيء، فضحنا المخطّط. سلموا أنفسكم بأسرع وقت، وإلا.."

تصوّر، رجال البوليس أيضاً مصابون بداء السرعة، مثلك بالضبط، والأطفال ضحكوا منهم ولم يبالوا لهم، أصبحت أخاف منهم، أخشاهم جداً وسيطر الرعب عليّ فجأة، شعرتُ بقشعريرة

تسري في جسدي، أهجس شيئاً ما، خليني أقولها لك بصراحةٍ متناهيةٍ والحكي بيننا: "عيني الخوف مو عيب"، وازداد فرعي وهلعي لما شفت الصغار يخنفون، ما عدت أراهم، يا إلهي أين هم؟ لكن سمعت أصواتاً هجيّةً، وحشيةً إلى أبعد الحدود: طاق، طيق، طاق، طيق وما هي إلا لحظات حتى فقدت الوعي.. إي لا تتطلع لي هيك، أغمي عليّ وعليكم السلام وانتهى الأمر. ولا تتعجب لمثل هذا الأمر، هذه حالة فزع إنسانية عادية.

أعتقد أنني نمت تحت شجرة وارفة، كبيرة عالية، معمرة. كنت في مكان بعيد عنهم وما كان باستطاعتهم مراقبتي. نعست، غفوت، نمتُ ولم أذق طعم الرقاد. كنت في هذه المرة أركض بسرعةٍ حافياً، لابساً بجامة مخططة، الغريب أنني لم أتلصّ ولم أعانٍ من حرارة الإسفلت، عفواً القطران كما تريد. فجأة التقيتُ بخالي المدمن السكرير وكنت أغني: مطر، مطر، عالٍ فدوّه أروح لابن خالي!...

ماذا تقول؟ لا تعرف هذه الأغنية؟ غير مهم! هذه مشكلتك ولا تقاطعني كثيراً! دعني أوصل الحكي رجاءً! أوقفني خالي في وسط الطريق، سألني: ليش تركض يا قاسم؟ سكتُ كما أعتقد وأتذكر، ولم أحبه، اندهشَ خالي للأمر؟ استعجلني. تصوّر، حتى هذا السكرير مصابٌ بداء السرعة أيضاً.. كلُّ الناس المصابين بداء السرعة يتأخرون في أعمالهم. خالي مخمورٌ كالعادة، هيك طبعه، إي، نعم، يحب الخمر والغناء والطرب وسب الحكومة عندما يجلو له، يقفُ ثملاً في رأس الشارع صارخاً: قوة!، قوة!، قوة! عندها يأتي أحد رجال الامن ويقوده إلى مركز الشرطة، يشكّون بصلاته مع اليساريين.

وعندما يطلقون سراحه من مركز الشرطة، يضحك الآخرون مستهزئين، يقولون عنه "هذا السكرير شنو علاقته باليساريين؟" "كُجّه؟" "مرحبا؟ ههههه!" يذهب إلى أقرب حانة، يشرب الخمر ثم يمشي في الليل مغنياً أغنية يوسف عمر "دشداشه صبغ النيل..". تخيلتُ خالي فعلاً لابساً الدشداشه العراقية، طويل القامة، أحمر الوجه، يرمق الآخرين بنظرات مستفهمة، عيناه جاحظتان، طويل الأنف ينزل على شفتين كغم الأرنب، عليهما شاربان أصفران.

المهم ما في الأمر أن خالي مسكني من كتفي قاتلاً لي مجدية، وبشعور من المسؤولية لم أتوقعه منه:

- ارجع للبيت، أمك تنتظرك، الدنيا ليل وخطر.

أجبتة:

- أمي؟ أمي؟ امي طلبت مني مَتيّ بارده!

لم يسمعي. لم يبال لي وهذه طبيعة المستعجلين، لا يصغون لغيرهم، يسألون ولا يسمعون الأجوبة!

* * *

المهم ما في الأمر أن خالي تركني لحالي. أو مثل ما كانت جارتنا كاتيا "الروسية" تقول: ترك خالك لخالك! مسكينه كاتيا، تعلمتْ أغلب الحروف إلا الحاء والضاد والذال والقاف! كنا نسخر منها، في الحقيقة نضحك عليها، أو بالأحرى "نصبُ عليها"، نتنمّر! هذا هو حال الدنيا في هذه البلاد، ناسها يزدرون بعضهم بعضاً.

تصوّر، كانت كاتيا تمشي مع زوجها الدكتور عماد هي وأطفالهما في الطريق الموصل عند تساقط الأمطار. امرأة سمينّة، "مربرية" على قولة أمي، يعني "تمشي الهوبنا كما يمشي الوجي الوحل" كما يقول الشاعر العربي. لم تنجُ كاتيا من أقاويل النساء: الظاهر هذه امرأة فقيرة، يجوز يتيمه، معقوله؟ ألمانيه وتتحمل الطين والأوساخ عندنا؟ والله هذه ولا تشبه الألمانية، لا رشاقه ولا جمال. عيني الألمانية كلهن حلوات ومثل المدامات. قلتُ لوالدي:

- يُمّه، هذه روسية مو ألمانيه،

لم تبالِ الأم لكلامي، سمعتها تتمتم بصوت خافت، فهمتُ منه أن لافرق بين الألمانية والروسيات. ثم سألتُ والدّه هامسةً فيما إذا كانت كاتيا ألمانية الأصل حقاً كما أخبره زوجها الدكتور عماد. وأخيراً ختمت الحديث عنها بأن الدكتور عماد درسَ في ألمانيا وتزوجها هناك وليس في روسيا، "معناها ألمانيه".

قال لنفسه "ألا ترى أنك نسيت نفسك وانغمرت بقصة كاتيا الألمانية أو الروسية؟ لا تنسَ قصة خالك، بالله عليك".

لا والله ما نسيت قصته، إلا أنا حقاً كنت أحترم كاتيا الأم والزوجة المخلصة، والله، والحق يقال إنها أصيلةٌ مخلصَةٌ في رغبتها لتعلم العربية، وفتحت عيوني على أشياء، عمري ما كنت أحلم بها وساعدتني على كشف أسرار اللغة. علمتني الروسية منذ صباي وجعلتني أبحث عن المعاني العربية المضبوطة، ولو كان برأسي خير لأخذتُ بنصيحتها وتعلمتُ منها الألمانية. كنتُ أضحك كثيراً عندما كانت تقول: مزبوت، يعني مضبوط! أو "السياره مريزه!" يعني: السيارة مريضه، تقصد: عاطلة. لكنها، هذه الأستاذة الألمانية الروسية كانت متواضعةً لمآحة، تفهم الأشياء بسرعه، تلقفها وهي طايره لا تهمها المظاهر.

أما خالي، لم ينتبه لي ولم يسمعي ولم يبال لي عندما رأني أجري، أهروول بل أركضُ سريعاً أهرب الأرض نهباً، ههههه! أتسابقُ مع الريح، أركض حتى أحصل على الماء البارد، المثلج، توقفتُ فجأةً، سألتُ نفسي: ماء بارد؟ عندنا في البيت موجود منه الكثير مجمّد في غلب "حليب الكوليكونز" المعدنية.

الأفضل أن أرجع إلى البيت. غيرتُ رأبي، واصلتُ الركضَ السريعَ مثل الطلقة، ثم شعرتُ بالتعب، توقفتُ قليلاً وأنا أهث بقوة حد الاختناق، بالكاد أتنفس.

* * *

هناك، في المكان، الذي توقفتُ فيه، لمحتُ امرأةً وطفلةً، قد تكون ابنتها، لكنه أمر غير أكيد ولا يمكن البت فيه الآن. لم تكن البنت طفلةً صغيرةً، بل صبية يانعة، أصغر مني قليلاً. نظرات البنت أخاذة، عيناها دائريتان سوداوان، فيهما نضج وأمومة، لم أفهم أكثر من هذه الأشياء رغم انتباهي إلى شفيتها الغليظتين. كانت المرأة تبيع الثلج، تقف إلى جانبها الصبية ذات العينين الدائريتين. لمحتُ هذه الشريفة، سمعتها تحكي بصوتٍ خافتٍ مع البنت مشيرةً بأصابعها إليّ. شعرتُ بما تتحدثُ عني بسوءٍ، ثم سمعتها تقولُ للبنت:

- انتبهي إليه! هو بعينه، هو نفسه!

...انتظر، لازم أتذكر كل شيء بالضبط، انقطع الشريط، انقطعت سلسلَةُ الأحداث، تقريباً نسيت، ...أهاا، شيء غامض، تذكرتُ، مررتُ اصابع يدي اليمنى على عيني اليمنى، أردتُ أن

أمرّرها على اليسرى، أغمضتُ عينيّ وفتحتهما، أغمضتهما وفتحتهما، مرة ثانيةً وثالثةً ورابعةً. وفي الخامسة وجدتُ الطفلةَ صارت أكبر من مجرد صببية، يعني بالعربيّ الفصيح: صارتُ عروساً، جالسةً بجاني وأنا كنت قد ودعت الطفولة والصغار "الزعاطيط" والعكازات السود وصرت مثل الشباب الكبار، وكانت هي أيضاً مثلي، يا ربي! عيناها الدائريتان مليئتان بالجمال والسحر، فيهما جنون لم أنتبه له في النظرات الأولى، لا أعرف ما هو كنهه، الذي أستطيعُ قوله هو إنه جنون جذاب رغم خطورته وعدوانيته، لا أقوى على فهمه.

بغته تجلسُ الشابة ممسكةً بقطعةٍ قماشٍ رطبةٍ صغيرة، بل بمندليلٍ مبللٍ، تهددني بنظراتها، شعرتُ بالخوف، حاولتُ الهربَ منها، اقتربتُ مني، أكثر فأكثر كلما أطلق العنان لقدمي.

تمتتُ لنفسِي: الهزيمة غنيمة! انطلقتُ كالغزال، تواجهني وجهاً لوجه، اقتربتُ مني، انتبهتُ لوجهها الأبيض المحاط بالشعر الفاحم، تشبه الفتاة اليافعة، لا أعتقد أنها هي نفسها، قد تكون تلك المرأة، بائعة الثلج نفسها، اعتقدتُ أنها أم البنت الشابة.

أمسكتُ المرأةَ القوية، بائعة الثلج، رأسي الصغيرَ براحة يدها اليمنى الغليظة، باغتتني، كانت تحين الفرص للإيقاع بي، قرّبتَه من يدها اليسرى، تمسكُ بما قطعة قماش مبللة ذات رائحة كريهة، وضعتها على فمي، أرادت أن تخنقني، الملعونة.

كانت قويةً، ضعفتُ أمامها، لكنني نتفضت بسرعةٍ خاطفاً منها الخرقه المبللة قائلاً بطريقة سينمائية: "أنا ما فعلتُ أي شيء. أنا بستها بوسة هوائية وبسن، أنا لم أقبلها أبداً، صحيح أنا أعجبتُ بما من أول نظره، لكن أنا ما قبلتها، هي اللي قبلتني، نعم هي اللي قبلتني.

قالت لي: "أنت حلو وجميل، الله جميل يحب الجمال"، فجأةً، احتضنتني وقبلتني، رحّتُ أتذوقُ الرحيق كطفل رضيع، وما ارتويت والله العظيم".

تراجعتُ قليلاً من أمامي وابتسامة صفراء تغطي ثغرها، بينما صرّتُ في هذه الأثناء أعصر المندليل المبلل بيدي قائلاً لها " هذا للذكرى.. للذكرى هل تفهمين؟ "

مدّت يدها اليمنى، فرحتُ، كنتُ أتصورها تريد أن تتلمسني، فتحتُ أصابعها وأرادتُ أن تخنقني مرةً أخرى. تصوبُ نظراتها القاسية من عينيها السوداوين الكحيلتين ضاغطةً على أسنانها مضيقَةً

الحناق بكفيها القويتين على رقبتي بكلّ ما أوتيتُ من قوة. يداها غليظتان سميتان. لم تكن هذه المرأة هيّنةً كما تصوورتها، بل عفريته. بأن وجهها على حقيقته، فيه ملامح حكايات ساحرات القرون الوسطى. لم تتكلم، إنما تتقن لغة العيون. عيناها قاسيتان لم أعرف لهما مثيلاً. حاولتُ أن أفلت من يديها، جرّبتُ مرّات ومرّات أن أفلت من حناقها. تجيد عملها ويبدو عليها أنها احترفته منذ ربح من الزمن، أتقنت كلّ دقائقه وتفصيلاته. تخنقني كأنها صقرٌ أو عُقاب ماهر أجهز من أعالي السماء على طريدته، ليلتقطها بمخالبه ويحلّق بها إلى مغارات قمم الجبال. تذكرتُ خالي، تمنيت أن يأتي ويساعدني، دون جدوى، وكاتبا وأهمني ذكراها، والأطفال الذين أربعوا البوليس.

حاولتُ وجربتُ، أعدتُ الكرة حتى تملّصت منها بصعوبة وأعجوبة وصرثُ أعدو، لم أرم المندبل، بل ضللتُ ماسكاً إياه بين أصابع كف يدي اليمنى كأني فزتُ بشيء ثمين. أتذكر اني كنتُ أعصره بحرقه، أحسُّ بقطرات الدموع تتساقط على أصابعي وشفتيّ، شعرتُ بملموحتها متذكراً أرض العراق السبخة، وصرثُ أبكي حزناً عليه ثم جففتُ المأقي به مندهشاً للأمر، كيف اصبح المندبل المبلل جافاً، لكن المهم ما في الأمر، هو أني مسحُ عيني به، بحرقه القماش ذاتها، وانتبهتُ إلى لوئها الأخضر. لم يكن لوئها بالأصل كذلك، تغيّر فجأةً.

* * *

أنا بطبيعتي لا أبالي لمثل هذه الأمور الشكلية، لم أفكر كثيراً في هذا الأمر، أغمي عليّ حين من الوقت. الشيء الذي لا أزال أتذكره بشكل جيد هو أني غفوتُ في فترة الإغماء ورأيتُ حلماً رومانتيكياً جميلاً: بنت شابة حلوة، تشبه صديقة تعرفتُ إليها أيام زمان، اسمها ديناره، فتاة أوزبكية تختلط في وجنتيها دماء العرب القدامى مع كل أقوام آسيا، ترتدي ثياباً تقليديةً ملونةً، مزركشةً لماعةً، تقعد معي على الأرض، فجأةً نفضتُ ديناره لترقص رقصاتٍ رائعةً مليئةً بالطاقة والحوية والأثونة والحنان والجمال.

طرتُ فرحاً، حلقتُ عالياً من فرط غبطتي وسعادتي، على أنغام موسيقى زرياب.

استحضرتُ في مخيلتي ديناره، ذات العينين الزائغتين المختلطة الألوان، رأيتُ فيهما كل مكان من الشرق، وكارمن وأسميرالدا الجميلة وأحدب نوتردام وراقصات المسرح البولشوي والأوزبيكيات وهنَّ يرقصن بجداولهن الطويلة وملابسهن الحريرية المخططة الزاهية الألوان.

عندما رقصتُ لي وتصورتُ نفسي عباس بن فرناس أسبحُ في الهواء، أطوف، هممتُ بتقبيلها، سقطتُ على الأرض مغمى عليها، غادرتنا بصمت. ما هي إلا لحظات حتى جاء أخوتها وكل رجال عشيرتها مطالبين بالتأثر، صحتُ وصرختُ حزناً وألماً حتى أفقت من النوم.

فززتُ من النوم، سُعدتُ كثيراً، لم يكن موثُ الجميلة ديناره إلا حلماً، وحزنتُ أكثر لأنها لم ترقص لي حقاً، ازداد حزني، لم أتلدذ بطعم التحليق مثل عباس بن فرناس لمدة طويلة.

لم يكن الأمر حقيقةً ولم ترقص لي إلا في الحلم. وا أسفاه، وا حسرتاه، وا معتصماه! وأهم ما في الأمر، هو أنني عندما استيقظتُ من النوم لم أكن أمسك المنديل بيدي ولم تجلس الفتاة الجميلة الساحرة قربي، بل كان على مقربة مني مجموعة أطفال، أحدهم أعرج، كانوا جميعهم يقاتلون بالمسدسات أولئك الرجال الذين رأيتهم في بداية الأمر، الذين تصورتهم من الشرطة. وكنت حائراً، وحدي لا من منقذ ولا معين. الحلُّ الوحيد هو الهروب من الساحرة، العُدو بكل ما أوتيتُ من قوةٍ

إي والله كنت أهرولُ وأركضُ وأجري بسرعة في الطريق البعيد عن المقاتلين خوفاً من رصاصةٍ طائشةٍ، ضاعفتُ سرعةَ الركض، صرْتُ أعدو كالصاروخ، كالبرق كأني مصاب بحالة هستيرية، فهمتُ بأني بحاجة للعدو لدرجة أنني عبثاً حاولت.

هرولتُ وجريتُ وركضتُ وعدوتُ كسيل الشلالات المتدفق من قمم الجبال، ثم قفزتُ وسقطتُ من علي. وقعتُ على أرض أسفلتية، لم أشعر بحرارتهما، لم أرَ والدتي في انتظاري مثلما كانت تفعل أيام زمان. خالي لم يعد له أثر. فص ملح وذاب. قالوا لي إن رجال الامن والمخابرات الحكومية ضربوه وكبلوا يديه عندما كان يسير في الشوارع مثلاً يشتم الحكومة صارخاً: قوة!، قوة!، قوة!

*

*

*

لم أكن طفلاً إلا أن صرختي الجنونية أيقظت صديقتي الراقدة بجواري. أفاقَت الصديقةُ من نومها هابئةً لتحتضنني كما لو كنت طفلها الصغير متسائلة كالمفجوعة وهي تلفظ اسمي بلكنة لم تتخلص منها: "كاسم، خبيبي"، نظرتُ بصمتٍ إلى عينيها الخضراوين المفزوعتين المتألمتين وشعرها الأصفر الطويل.

* * *

تذكرتُ امي، والعينين الدائريتين وخالي وشتائمه للحكومة والأطفال والشوارع العريض والمسدسات والمنشورات السرية والخراط والسقوط من علٍ قائلاً لنفسه "الحمد لله كابوس وانقضى". نظرتُ إليها مرة أخرى، كانت في هذه المرة تمسك قذح ماء، قدمته إليّ قائلةً: "خذ، اشرب! كان عندك كابوس!" تناولته من يدها وفي داخلي يسري شعور عميق بالفرح، ابتسمتُ لي ابتسامة حب. استهوتني كثيراً بشفتيها، ازداد شعوري بالبهجة والفرح. قلتُ لنفسه: "لستُ وحيداً في هذا العالم."

Moscow 1982

* نُشرت قصة "العينان الدائريتان" في مجلة المدى الصادرة في دمشق، العدد 33 (3) 2001، دمشق

الصاروخ الخشبي*

كانت الغرفة مطيئةً بلونٍ رصاصي فاتح. السكون يخيم عليها. سكون .. سكون لم أر مثله في حياتي. تبدو هذه الغرفة كأنها مكانٌ مخصص للراحة والانتظار.

انتظار من؟ ماذا؟ الموت؟ لا يبدو على هذا المكان أية صلة بالحياة، إنها الموت الزؤام.

شعرتُ كأن هذه الغرفة تقع على حافة العالم، في مكانٍ عالٍ، على قمة عاليةٍ، مطلة على الهواء لا تستند على أرض أو جبال، طالعة كالتنوء من هذا الجبل العالي كأنها شرفة مطلة على الناس، قريبةٌ جداً من السماء. أريد النزول، ليس السقوط، أو بالأحرى أجرب الهبوط في الهاوية، من على شفا حفرة من النار، فأنعم بطعم الموت. انتابني فرحة خاصة وشعور عميق بالأسى والأسف.

أتذكرُ أنني قلت لنفسي عاصباً شفتي السفلى: مع الأسف! الحياة حلوة! شعرتُ كأني في وادٍ والعالم كله في وادٍ آخر.

فكرتُ بأن هذا قد يعني الموت وفيما إذا كان هذا الرحيل الأبدي حقاً هادئاً أو بالأحرى صامتاً وساكناً. أحسستُ بأني مقبل عليه، تأملت كثيراً، لا أحب الصمت ولا السكون وطبعاً لا أود الانتقال إلى العالم الآخر، أنا إنسانٌ متفائل وأتمنى لنفسي وللآخرين عمراً مديداً.

و مع ذلك فأنا لا أنكر السرور الداخلي العارم بهذه الرحلة الأبدية المقبلة، كأني سأكتشفُ قمةً جديدةً من قمم الهملايا أو شيئاً لم يستطع البشر سبر أسراره، لم أشعرُ بيد الموت تمسك بي، بتلابيبي أو تخنقي. كان يهمس لي مُحفراً إيّاي بالقدم نحو كما يُرعب الكبار الأطفال.

بغتةً ... شعرتُ بهجوم مفاجيء، سمعتُ أصواتاً عاليةً، صهيل خيولٍ وكلماتٍ مبتورةً، غير مفهومة! كانا يتراءيان لي كشبحين مضحكين في ملابس سوداء... ثيابهما الطويلة المعتمة

مفتوحة من الأمام، تحت محزميهما... ملثمان بلثامين أسودين كأنهما قادمان من هناك!

في الحقيقة أنا لا أتذكر بالضبط وبالتحديد أي نوع من الثياب يرتديان، أي زي؟ ومن أي الناس هم؟ كأنهما من كوكب آخر!

قد يكون هذان الفارسان قادمين من جبال القفقاز، من الفرسان الجيورجيين أو الأذربيجانيين أو الأستينيين أو الداغستانيين أو الشيشان، أو من العرب العاربة والمستعربة، تذكرت فيما بعد أن منظرهما كان مخيفاً مروعاً، وقد أتذكر مظهرهما جيداً فأمعُن في وصفهما. أجل، أجل،... كانا على درجة من المهابة، كانا طويلين، فارعين، ضخمين، يمتشقان السيوف. عندما أَمَاط اللثام عن وجهيهما، بانا ملتحيين طويلين، أتذكر أنني لاحظتُ أثر جرحٍ قديم كان يبدو واضحاً فوق العين اليمنى للفارس الأول، الواقف أمام الثاني. شواربهما طويلةٌ وغليلة. هجما عليّ بدون سابق إنذار واختفى أي أثر للغرفة الهادئة النظيفة، المطلية جدرانها باللون الرصاصي الفاتح.

* * *

أقاومهما وحدي وأحاول أن أعاكهما. أعجبتُ في حقيقة الأمر بقوتهما، انههرتُ بقيافتهما، رحتُ أضربهما بكفي الأيمن، وأرفسهما بقدمي، كانا بالطبع أقوى مني بكثير. خارت قواي وكدت أسقط لولا حضور صديق قديم لي، كان طويلاً رشيقاً، مقداماً بأسلاً وفارساً شجاعاً، صرخ بهما مزجراً كأنه على خشبة مسرح:

- يالكم من حُقرء سفلة... أتركوا هذا المسكين... همج من عصر الغاب!

بيده عكاز خشبي، أسطواني الشكل، رفيع، طويل، يلوّج به مهدداً بكسره، أخذنا يتوسلان به ألا يكسره. عندها شعرْتُ بالاطمئنان والأمان والهدوء وعودة الدماء إلى قلبي ورأسي، سمعتُهما يتكلمان بلغة من اللغات القفقازية، التي تعلمتها عندما أقمت هناك أيام الدراسة، صرتُ أفهم من كلامهم الكثير.

يتحدثان فيما بينهما عن العصا والماضي، أصواتهما خشنة جهورية، أخذنا يصرخان:

- يا الله، يا الله! إنه يريد أن يكسر العصا. بالله عليك لا تكسرها، أطلب ما تشاء، نتوسل إليك، كنا نتصورها عند صاحبك هذا، أعطنا إياها وسنذهب إلى الجبال، الشيوخ ينتظروننا، لا بد أن نعودَ بها إليهم! مصائر قرانا مرتبطة بها، إننا تعاوِذ شيوخنا الأوائل!

فهمتُ القصة! إتنا بني الأسي، والغضب منهما والحقن عليهما.

وجدت علاقة ملابس خشبية، ألوحُحُ بها مهدداً إياها بها، متمماً بتعاويد جدتي حضرتني من ذاكرة الطفولة. دُعِرا من كلامي بالعربية، أمسكها في هذه المرة كالصاروخ، تماماً كما يفعل المقاتلون عندما يحملون البازوكا أو السلاح على أكتافهم.

أوجّه بإصرار علاقةً الملابس الصاروخية باتجاههما، يهرولان مسرعين نحو العصا الخشبية، الإسطوانية الشكل، ظهرت في هذه الأثناء قطعة كبيرة جداً، لم تكن سوداء اللون ولا مرقطة ولا رمادية. لونها غريبٌ عليّ، لم أر لها ولا لونها مثيلاً، رمتنهما القطعة بنظرة واحدةٍ فيها كل شيء، تلاشت على الفور ملامحهما من أمامي بسرعة البرق. لم يكن صديقي القديم موجوداً. فص ملح وذاب. قلقت عليه، أردت أن أسأل القطعة عنه، هي أيضاً اختفت وعاد الهدوء المميت وأنا أنظر إلى العلاقة الخشبية.

* * *

صاحبي القديم، ذلك الفارس، الذي لم أذكر ملامحه الدقيقة، يجلس هذه المرة إلى جانبي في عربة يجرها جوادان قويان من الجياد العربية الأصيلة. كان صديقي فارساً، يلبس ملابس فروسية، قديمةً جميلةً، مليئةً بالنياشين، يحثُّ الجوادين على سرعة العدو، كنتُ ممسكاً بعلاقة الملابس الخشبية موجهاً إياها توجيهاً صاروخياً نحو العدوِّين المختفين!

* نُشرت قصة الصاروخ الخشي في صحيفة القدس العربي 16 شباط 1999

الجزدان*

أسرع مهرولاً لاهثاً نحو القطار قبل انطلاقه. قفز بحركة رياضية رامياً جسده في أول عربة وصل إليها. جلس على أحد مقاعدها الوثيرة. تنهّد تنهيدة عميقة، تحسّسه براحتي يديه، تطلع بعينه إلى فضاء المكان رافعا رأسه إلى الأعلى، شعر بنفسه كما لو أنه يجلس في بهو فندقٍ راقٍ. اللون الأزرق الفاتح يضيء هدوءً وسكينةً على الأجواء. شعر بشيء لم يحصل عليه منذ عدة أيام مليئة بضغط العمل: الاسترخاء. أغمض عينيه قليلاً متصوراً نفسه يسبح في البحر، بل يغوص في أعماقه، تمنى أن ينام في قاعه حيث الحيد والطحالب، الأسماك الصغيرة الملونة تسبح بين أعضاء جسده، تُسحبُ روحه إلى مكانٍ ناءٍ، هادئٍ في الرُزفة.

السمكات يلبطن من خلال رجليه ويديه، بينما يحاول أن يمسك إحداهنّ قائلاً لنفسه بصوت غير مسموع: "تعالى، ملعونة، هذه المرة لن تفلتي مني، لازم أمسكك!" لكن بلا جدوى، تنزلق من بين كفيّه مخلقة الحسرة، ليس بدون الإحساس بالبهجة، متمنياً لها رحلة سعيدة في المياه مفعمة بالتألق. يحسُّ بذلك متخيلاً نظراته الهادئة المصوبة من خلال جفنيه المغلقتين إلى الأسماك. لم يدُم المنام طويلاً. "حلم خير" كما كانت أمّه تقول له كلما يخبرها عن رؤيته للسمك في الأحلام.

فتح عينيه، تجلس أمامه فتاة جميلة للغاية بمقاييس الجمال الخاصة به، بشرة "إرتيرية"، سمراء فاتحة قليلاً أو حنطية، شفتان مزيج من التصميم الأفريقي والإيطالي، شعرٌ سبلٌ أسودٌ وعينان ليستا غائرتين تماماً، تبدوان كذلك من الكحل، لا أدري، محتمل، تحيط بهما أهدابٌ طويلةٌ، ساحرة، انتبه إلى أنفها الدقيق، أضفت عليه خيوط الشمس الساطعة لمعاناً ساحراً أخذاً.

لم يبدُ عليها أنها تهتمُّ بصيحات الزينة ومواد التجميل الأخيرة لكن قرطاً على شكل حلقة كان يتدلى كالأرجوحة كلما حركت وجهها. دائرة فضية معلقة في شحمة أذن صغيرة لوجه طويل قليلاً. "اختيارٌ موفقٌ!" قال لنفسه متصوراً إياها تتأرجح داخلها كأنها في سيرك.

شَمَّ عِطْرَهَا، شعرَ بالدوار، أو بالأحرى بشيء يُشبه الغيبوبة أو الثمالة، لكنه على أية حالٍ مريحٌ وممتعٌ، فيه نشوة النصر والسعادة. "أي نصر هذا وأية سعادة هذه يا شيخ؟"، لأم نفسه، إنه أيضا مجرد حلمٍ قصيرٍ من أحلام يقظته اليومية.

واضح أنها ليست أفريقية تماماً! إنه غير متيقن من ذلك وحائر. مجرد حدسٍ أو تخمين. بشرتها مائلة إلى السمرة، شعرها سبل أسود فحسب، "مخلّطة" أو هجين.

وَدَّ لو يبقى يتمعن فيها، نَظَرَتْ إليه مبتسمةً، رَدَّ عليها بأحسن منها. ابتسم لها بعينين فرحتين مبتهجتين برّاقتين لامعتين مغسولتين بدمعتين نقيتين لم تُذرفا بعد. كانت عيناها مرآته، التي رأى فيهما بريق عينيهِ وتألقهما من فرط فرجه لذكرى عتيقة. رفع رأسه ناظراً إلى الأمام.

من جهة اليسار كانت هناك امرأة أخرى تجلس في الجانب المقابل له، وضعت حقيبتها على المنضدة أمامها، نظرت إليه ثم رفعتها واحتضنتها كأنها تحشى عليها من السرقة، في الخمسين أو أقل، تبدو أصغر من ذلك! "ما أدراي؟" قال لنفسه ساخراً، تفوح منها رائحة أنوثة ناضجة. تظهر على وجه تلك المرأة الأخرى ملامح العز والوقار والاعتناء بنفسها، جميلةٌ بكل مقاييس الجمال العامة، ومع ذلك لا يعتبرها غير عادية أو جذابة لدرجة كبيرة. على الأقل بالنسبة له. شعرٌ أشقرٌ طويلٌ سبلٌ لماحٌ ساحرٌ مشدودٌ من جهة الجبين بشرطٍ أحمرٍ حريري، عيناها خضراوان واسعتان، وجهٌ طولي الشكل، أو هكذا يبدو، غمّازتا الخدين ثُبليان حسناً، يتوسطه أنفٌ مستقيمٌ يطلُّ على شفتين ممتلئتين كأنها صوفيا لورين، بشرة بيضاء، تبدو حمرة الشمس ضاربةً على ساعديها العاريين. ترتدي تنورةً قصيرةً حمراء اللون وتلبس حذاءً أحمر أنيقاً.

ومع ذلك، فهي امرأةٌ عاديةٌ الجمالٍ حسب رأيه. لو سمَّعه الآخرون، وبالذات "ربعنا" لقالوا له: "شقاء! وتقول عنها عادية" ثم أنت من سألك؟ من طلب رأيك؟ مَنْ حمى حمامك؟ وما دخلك بها؟ كلام فارغ! هههه!" هذا هو ذوقه والجمالُ أذواقٌ كما يقولون.

انتبه إلى الشقراء الرشيقة اللماعة بفعل مواد التجميل، فتحت حقيبتها الحمراء، أخرجت منها جزدانا أحمر اللون، جلدياً، صغيراً، تفحصته بنظراتها الهادئة متلمسةً إياه بأناملها الرقيقة، كان

يراقبها فاعزَّ الفم مندهشاً، يَشعُرُ بها تنظُرٌ إليه من طرف عينها اليسرى بينما هو يفكر بتلك الصبيبة "الإيرتيرية" الجالسة أمامه يُطيلُ النظرَ إليها.

تتلاقى العيون، يَمِطُّ شفتيه، تقوم بنفس الحركة! صغيرة بعمر الزهور.

شَعَرَتِ المرأةُ التي تُدَكِّرُهُ بشفتي صوفيا لورين بمراقبته لها، رَفَعَتْ رَأْسَهَا بِاتِّجَاهِهِ. أَدَارَ وَجْهَهُ حَالاً إلى "جارتها" الإِيرْتِيرِيَّة، طَبِيعِيَّة، لا أثر لأي مراهم على وجهها، فَكَّرَ أن شعرها يمكن أن يكون مصبوغاً بالأسود، السواد يسبي العباد، تَحَيَّلَ نَفْسَهُ يَسْأَلُهَا عن أصلها، نظراته اتجهت من جديد صوبَ صوفيا لورين، أناملها تُقَلِّبُ الجِزْدَانَ الأحمر الجلدي المُوَطَّرَ بشريط بلاستيكي أبيض وهي تحرك شفتيها بدلح، أخذ يتمعن في الجزدان بينما كانت تفتحه وتضع البطاقات الشخصية والصحية والمصرفية الممغنطة فيه، أخرجت بعض القصاصات الصغيرة من حقيبتها لترتبها وتدخلها في جيوبها الخفية، عَبَطَهُ، بل حَسَدَهُ وتمنى أن يكون بمكانه، أو ورقةً لتتلمَّسه أناملها ويشمَّ عِطْرَهَا.

ابتسم ساخراً من نفسه على هذه الأمنية كأنه مراهق، أردف قائلاً لنفسه "ما يشبَّع الجوعان شم الشعابيط"، هههه! تذكَّرَ أُمَّه، كانت تقولُه متَهَكِّمَةً، ومَرَّ في خياله وَجْهَهَا، يداها الحنطيتان وأصابعُها ووقوفها في المطبخ لساعاتٍ طويلة، تقوم بكل شيء بيديها، تطبخ بهما، تغسل الصحون بهما، تَحِيْطُ بهما وبقدميها بجاماتنا الشتوية "البازة" المقلمة بالأزرق جالسةً أمام ماكنة سنجر، تعجن بهما، تحبز بهما الخبز في التنور، شكلها نسخةً طبق الأصل من صوفيا لورين، بل أنصح، أكثر تَأَلُّقاً منها، "عَرَبِيَّة" أصلية لم تعرف غير "الدَّيْرَم والبِسْوَاك"، اختفت الوالدة بلمح البصر وبقي يتحسر على قرص خبز صغير "حَنُونَة" من تنويرها، لا يزال مذاقه في فمه، يتحسَّسه دوماً منذ فارقتها قبل ثلاثة عقود ونيف.

جزدأتها على الأرجح جديد، كأنها تستعمله لأول مرة، قالَ لنفسه مندهشاً "يا إلهي إنه هو بعينه، أية صدفة هذه؟!"، "جزدان الوالدة مُهَيَّرٌ، وَعَدَّتْهَا بواحد آخر، جديد، اشتريته لها"، كأنها انتبهت له يُرَاقِبُهَا، رفعت رَأْسَهَا نحوه، نظَرُ إليها بعينين مرتبكتين، أدار وجهه إلى الفتاة الإِيرْتِيرِيَّة، نقرأ مجلةً إعلانات أوروبية.

تابع مرة أخرى صوفيا لورين، تكتب شيئاً على ورقة صغيرة ثم دستها في جزدانها الصغير، تتفحصه بينما هو يتابعها بعينين مسمرتين راغباً في رؤية ماركتها المختومة عليه، يصعب عليه تشخيصه من بُعد. أقنع نفسه أنه ختم الجمل بالتأكيد، في وسط الجزدان. تخيل نفسه أنه يراقبها بعينين مفضوحتين وفم مفتوح مثل معاقٍ، يريد أن يتشبث بأي شيء يعينه على الرؤية. حاول أن يخفي ذلك. جلس كأي موظف محترم بعمره. وأخذ ينظر بجديّة، التقت نظراته بالإرتيرية، ابتسمت منكسّة رأسها، كأنها تقول له "مفضوح"!

من شبه المستحيل أن يرى ماركة "الجمل" الصغيرة على الجزدان من هذه المسافة البعيدة، اقتنع بذلك، واستسلم، "أمرنا لله الواحد القهار" تتم بين نفسه، استمر يستمتع بالنظر إلى أناملها ممسكة بالجزدان الجديد كأنه هدية العيد. فرحت والدته، شكرته مبتسمة قائلةً "يااه، عيناً مثل جزداني الأول، القديم"، ابتسم هو أيضاً، قال لها رافعاً سبابته مؤشراً "أمه، الله يخليج، بس، خلّص، لازم تذبّين جزدانك القديم بالزبل!"

غضبت، برطمت شفيتها قائلةً: "درووح شوف غيرها، مستحيل، آبي معتّزه بمذاك الجزدان القديم، عندي به ذكريات مع المرحوم والدك". رفعت صوفيا لورين رأسها إليه، رمقته بنظراتٍ مستفهمّة قاسية قليلاً، بأنّ جمال خصلات شعرها اللماعة المنسدلة على عينيها وصفحة خدّها اليسرى، مطّت شفيتها منزعةً، أدارت وجهها نحو نافذة القطار إلى اليمين. يبدو عليها الازدراء قليلاً، لم يشوه شيئاً خاصاً في شخصيتها، لم تكن هذه المرأة الواثقة المعتدّة بنفسها مغرورةً، اعتزّأها واضحٌ في نظراتها، غير مقزّر أو منفرٍ. ابتسم بعفويةٍ طفوليةٍ، مما حكّه بينما أخرج من جيبه جزداناً جلدياً أحمر مطوراً بشريط بلاستيك أبيض اللون، كأنه يعاتبها: "أنا قصدي شريف ونيتي حسنة، لست وحدك عندك مثله". الشقراء تتصوره يراقبها. شعر بها تراقبه من زاوية عينها اليسرى، من خلال رموشها الطويلة.

فتح جزدانه وراح يتصفّحه كأنه مفكّرة صغيرة، كانت تنظر إليه بينما هو يتابعها من طرف عينه و"حاجبه". وهو يدندن "سَلَّم علي بطرف عينه وحاجبه! سَلَّم"! لم تكن أهدأه طويلاً مثلها، خاف أن تكتشف صوفيا لورين نظراته.

نفسُ جزدانها، صناعةٌ مراكشيةٌ مغربيةٌ غير موجودة هنا في هذا البلد، قلبه بيديه مرّةً أخرى، فتحه بينما كانت هي تنظر إليه من هناك متفحصَةً. استمرّ يراقبها بطرف عينه اليسرى شاعراً باتسامتها، رفع وجهه باتجاهها، رمقها بنفس نظرتها المريبة الأخيرة بمحاكاةٍ ساخرةٍ كأنه ممثل كوميدي، أدارت رأسها إلى جهة النافذة مبتسمةً.

مررت أصابع يدها اليمنى خلال خصلات شعرها في حركة مفتعلة، شعرت بالمزاح. لم يبدُ علي وجهها شيء من ذلك، إلا أن هناك ابتسامةً خفيةً كادت تظهر على شفيتها. قال لنفسه "يبدو أن شفيتها داغتان ببشاشةٍ داخليةٍ"، ثم تساءل "ماذا يعني أن تكون ابتسامتها داخلية؟ مخفية؟ مُبهمة؟ مَقموعة؟ ممنوعة؟ هل هذه فلسفة جديدة؟" حرّك يده تلقائياً مستخفاً بما يقول. شعر بالإرتيرية ذات الجمال الطبيعي تراقبهُ وهو يتحدث مع نفسه، التقت نظراتهما مرة أخرى.

ابتسمت له ضاغطةً على شفيتها ببراءة. شعر باهتمامها به أو مداراتها له كأنها تجامل كهلاً خجولاً.

إنه ليس شيخاً على أية حال، قد يكون بعمر والدها، لكن من يدري وقد يكون أصغر منه، إلا أنه من المؤكد أنها بعمر ابنه وقد تكون زميلته في الدراسة أو في نفس صفّه، هذا البلد الأوروبي الجميل صغير، والناس هنا يعرفون بعضهم بعضاً، كارثة!

لو رآه ولده يتجول معها! أما إذا عرفت ابنته بعلاقته معها فستحل المصيبة، بل الطامة الكبرى ليس على البيت، بل العالم كلّهُ! ستهدُّ هيكله! نظر إليها بجياء وبشكل رسمي وتصوّر ابنه وابنته يراقبانه. فَرِحَا هذه المرّة لسلوك والدهما الأرملة المحترم معها! إنها أصغر منه بكثير، تتمم هو "لو كانت أكبر، لو! ثم ماذا؟ احترم نفسك!".

وقفَ القطار في المحطة العريقة العتيدة. كل شيء هنا محسوب بدقة! لم ينهض من مكانه، انتظرَ حتى تأخذ الشقراء طريقها إلى بابه، وقعت نظراتها عليه مبتسمةً، انزاح عن وجهها الارتياح، بدت بشرة وجهها أقل نعومة، اختفت قليلاً لمعثة، وقفَت إلى جانبه، كانت أقصر منه قليلاً لولا كعبها العالي، رأى طبقة المساحيق كبيرةً على وجهها بكل وضوح، شمَّ رائحتها، وحمَّ أن عطرها ماركة جيْفِنجِي الفرنسي الشهير، وقف خلفها، استدارت قليلاً نحوه، ليصير بمواجهتها، انتهز فرصة انتظارها خروج الركاب من القطار، سأها مبتسماً، ملوِّحاً بجزدانه الأحمر اللون:

- يا ترى هل يحملُ جزدانك نفسَ ماركة الجمل؟

ابتسمتُ، بل ضحكت قائلة:

- بالتأكيد!

- لماذا بالتأكيد؟

شعر أنها لا تود إخراج جزدانها من حقيبتها.

- ألا ترى أنه نسخة طبق الأصل من جزداني؟ من أين اشتريته؟

- من المغرب، من مراكش.

- ألم أقل لك؟ وهذا ما قمت به أنا بالضبط! كنت في سفرة سياحية، واليوم هو أول يوم

استخدمه.

- وأنا أيضاً!

شعر بالراحة تغمره، فرح لتجاوبها معه، أحسّ فعلاً بدفء شفيتها، فكَّر أن يقول لها شيئاً ما، لم

يعرفه بالضبط. احتار فيما يمكن أن يهمس به لها. في هذه الأثناء رأى الفتاة السمراء الحنطاوية

الإرتيرية رافعةً يدها محييةً إياه بكفها غير متكلفة والابتسامة تملأ وجهها، جعلته يسرُّ قليلاً

بخياله نحو الماضي الجميل، عاد إلى عشرين سنة أو أكثر بقليل متذكراً صديقه اليوغسلافية

القديمة، تشبهها بالضبط، تلك الشابة، حلوةٌ ولذيذةٌ، تفاحة تتدلَّى من غصن شجرة، شهية،

نديّة، طريّة، جميلة الجميلات، تمزج بين الجمال السلافي والإيطالي والغجري، بنت الجنرال

اليوغسلافي، تعرّف إليها ذات يوم في القطار المنطلق من عاصمة الجليد ماراً في الأنفاق تحت جبال يوغسلافيا وإيطاليا وسافر معها رحلات العمر أيام الشباب.
"كانت الفتاة اليوغسلافية تتقافز مهرولةً حافيةً من هذه العربة إلى تلك، يتطاير شعرها الكستنائي، مذعورةً شاردةً كالغزالة البرية، وصوت القطار مرتفعٌ، حتى وجدت نفسها في عربتنا هاربةً من صرامة أبيها الجنرال. واستقبلناها بترحابٍ تعاطفاً معها". حدّث نفسه كأنه يكتب مذكراته!

فرح لهذه الذكرى. لكنه عاد إلى وعيه مذعوراً كأنه خاف من فقدان شيء تركه وأهمله، بل غفل عنه. جالت نظرائه في المحطة باحثَةً عنها، افتقدَها ولم يبقَ لها أثر وسط الزحام.
أدار وجهه قليلاً نحو صوفيا لورين، فوجيء بما تشبّح وجهها عنه مبتسمةً مسرعةً مهرولةً كسُتور بريّ مسرعٍ باتجاه قطارٍ ثانٍ، بينما سار هو أيضا ببطأ خلفها مفكراً بالإرتيرية والجزدان وخبز والدته والشقراء ذات الشفتين الدافئتين التي لم تكن غير عادية!

94-1990

* نُشرت قصة "الجزدان" في صحيفة القدس العربي بتاريخ 15-11-1998

اللقاء والموت*

أعلن الكابتن هبوط طائرته الهولندية في مطار القلعة الدولي! بدأ ركابها الهولنديون والاوروبيون وبعض القلعيين والعرب الاستعداد للخروج منها. كان جان ساهماً بأفكاره غير مصدق بأنه حقا في مطار القلعة، وأنه قد تحدث له مفاجآت تفوق خياله. بقي لبرهة سارحاً بأفكاره، يشعر بين الفينة والأخرى بقشعريرة تسري في بدنه. يا ترى ما الذي سيحدث له عندما تفتح الطائرة أبوابها وتطأ قدماه أرضَ القلعة النارية بعد فراق طويل؟ ماذا سيحدث له عندما ستلامس يده أعمدة شارع قطعه آلاف المرات؟ هل سيدرف الدموع عندما يجلس في مقهاه؟ هل بقي أحد من أصدقائه القدامى على قيد الحياة؟ أسئلة كثيرة دارت في مخيلته جعلته يسرح أكثر وأبعد ساجحا في أحلام اليقظة حتى انتشلتته يد زميلته الشابة الجالسة إلى جانبه، تبدأ اليوم معه رحلة سياحية. قالت له مبتسمة:

- صخ النوم يا شيخ!

ردَّ عليها هادئاً بلُغتها:

- هذه المرة الاولى، لن أُصحح فيها لكنتك! من الافضل أن تتكلمي العربية بلكنة أجنبية واضحة. أنت أجنبية، لست عربية وما شعرك الأسود إلا....

قاطعته قائلة:

- ألهذا الحد خائف أنت؟

وضعت يدها على كتفه شادة من أزره، نُحضت معه مرة واحدة، حملا حقيبيتهما الصغيرتين. فتحت حقيبتها اليدوية، أخذت تتمرر متأكدة من زينتها. نظر إليها في ارتباك لم يعهده سابقاً محدثاً نفسه قائلاً "ترى ماذا سيحدث لي مع هذه المرأة هناك؟ هل سيُمرغونا بالتراب؟".
عينها غائرتان قليلا، تميلان إلى اللون الأخضر، يعلوهما حاجبان كسنائيان فاتحان معقودان على أنف صغير، مرتفع قليلاً. شفتاها المزوقتان بدهان وردي فاتح تبدوان رقيقتين، منسجمتين مع قميصها الوردية. شعرها متوسط الطول، مائل إلى السواد.

تذكّر أنه طلب منها أن تصبغ شعرها باللون الأصفر، أفضل لها، إنها أوروبية "مضبوطة" كما كان يقول لها، رفضت ذلك. لون شعرها الكستنائي الضارب إلى السواد يتناسب مع بشرتها البيضاء. حرّكت شعرها إلى الخلف فاهمة نظراته إليها، قالت له:

- هكذا أفضل، أريد أن أبدو مثلهنّ، امرأة عربية، ألا تجد شعري جميلاً؟
بدءاً في الهبوط من على سلّم الطائرة، تقدمته، جان ينظر إلى الأمام بدهشة، يمسّد شعره الخفيف طوراً، يمسح صلعته الصغيرة تارة أخرى، بينما تحدّثه بإعجاب عن كل شيء في بلاد القلعة:

- الناس هنا في هذا البلد أقوياء، شامخون، ألا تراهم كذلك يا جان؟
لم يجد ضيراً من التعليق عليها قائلاً:

- يبدو أنك رأيت رجلاً قوياً أعجبك!

لم ترغب في التعليق عليه، ثم شعرت بضرورة ذلك:

- أنت متشائم، تعادي نظام القلعة وتخلط بين الأهالي والنظام ولا ترى فيه أية إيجابيات، بالمناسبة أنت تكرههم كما هم يعادونك. أمر رهيب! هذه مشكلتكم أنتم في الشرق الأوسط! إما أسود أو أبيض! أنتم تجعلون الاعتقادات السياسية مثل الأديان وتخلطون الأمور العامة بالشخصية، لكنكم بشر تعيشون حياتكم بفطرة ورومانتيكية تتشوق لها، ولا نقدر عليها، الشرق جميل وأكثر حيوية من بلادنا، شتأونا طويل، المدن عندنا هادئة، ساكنة، داخلية، منظّمة للغاية، كل شيء يتم بالمواعيد والاتفاقات، مينة بينما هي على العكس عندكم، أكثر تلقائية، أنظر إلى حركة الناس، إنهم أكثر حميمية ودفاً... إنها مجرد انطباعات!

استمرت مبدية إعجابها بالشرق. يحاول أن ينظر إليها نظرات صامتة متعاطفة. يُشاطرهما انطباعاتها، مكتفياً بهز رأسه وتمسيد لحيته السوداء بيده، ودّ لو يقول لها إنّ انطباعاتك عاطفية وتعميمية، اكتفى بالتطلع إليها مُلملماً شفتيه محرّكاً رأسه يميناً ويساراً.

ماهي إلا لحظات حتى وجدا نفسيهما جنباً إلى جنب مع ركاب طائرتهما في طابور صغير أمام مكتب ضابط الجوازات. قدمت ماري جوازَ سفرها. تنبأهى بمعرفتها اللغة العربية بينما كان جان يتحاشى التكلم بها. ابتسم الضابط ابتسامةً صغيرةً هامساً لزميله بكلماتٍ غير مسموعةٍ، ضحكا على إثرها.

أتم الضابط الإجراءات بسرعة بينما كان يتفرس بين الوهلة والآخرى في عيني جان الواسعتين السوداوين الكحيلتين المميزتين ذات الرموش الطويلة.

قدّم جان جواز سفره، حرّك وجهه بطريقة كوميدية، ضحك المسافرون الآخرون، ابتسم الضابط لهذه الدعابة متمعناً في نظراته إليه قائلاً له في نبرة ذات وقع خاص:

- فنان أصلي!

ثم راح الضابط ينعم في التحديق، بانث عليه علامات الارتياح والفرح كطفل حصل على لقيّة أو لعبةٍ جديدةٍ، يتطلع جان هو أيضا إليه مبجلقاً مبتسماً متظاهراً بالامبالاة، أخذ يعبث بحقيبته اليدوية. سأله الضابط الشاب:

- اسمك؟

- جان بيير

- متأكد؟

قالها مازحاً متودداً بصوت خافت يكاد يكون غير مسموع. ارتبك جان على الفور. أظهر قدراً كبيراً من التوازن وعدم الاكتراث كأن كلام الضابط مجرد مزاح ليس إلا.

الضابط سمين الوجه، قصير القامة، عريض المنكبين، نظراته باسمةٌ مشوبةٌ بالحزن، يحدق بتركيز في صورة جان المصقفة على الصفحة الاولى من جواز السفر، رفع رأسه نحو جان سائلاً إياه:

- زوجتك؟

- نعم، إنها زميلتي، استاذة مستعربة في قسم اللغة العربية.

سلّمه الضابط جوازَه قائلاً له بعربية فصيحة:

- وعروة الورد، ماهي أخباره؟

ردّ عليه جان بالإنجليزية

- عفواً؟ ماذا تقول؟

- معقول أنت مستشرق ولا تعرف هذا الاسم، الشاعر العربي عروة بن الورد، كيف نسبته؟
عندها تتمم جان قليلاً مع الضابط قائلاً إنه يعرف القليل عن عروة، لم يبالِ الضابط بجوابه،
توجّه نحو الركاب الآخرين مشيراً إليهم بأن يتقدموا بجوازاتهم.

ازداد قلق جان، تأكدت مخاوفه، سرعان ما تبددت حينما سلّمه الضابط جوازَه قائلاً له
بالإنجليزية:

- شكراً

تقدم قليلاً مع صديقه ماري. وقفا ينتظران المستقبلين في زاوية من صالة المطار.

عندما انتهى الضابط من ختم الجوازات تناول سيجارة متخيلاً صديقه القديم... شعّر طويلًا بلا
ذقن، متذكراً إياه عندما أطلق لحيته في إحدى العطل الصيفية أيام النضال الطلابي... " يا إلهي،
إنه يشبهه، هو بعينه وعيانه، يجوز يشبهه، الله يخلق من الشبه أربعين" وتألّم كثيراً لتلك الذكرى.
عاود النظر إلى ماري وجان كأتهما كانا ينتظران مَنْ يستقبلهما، تحرك الضابط نحوهما، انشغلت
ماري بالحديث مع سائحة أخرى، قال لهما الضابط بلغة التودد الرسمي:

- أهلاً وسهلاً بكم جميعاً في جمهورية القلعة العربية الشعبية الاشتراكية الديمقراطية، بلاد
الحضارات والتاريخ والحاضر والمستقبل،

لم يكن هناك من يفهم إنجليزيته الركيكة، ولم يصغوا له حقاً، شعّر جان بالضيق، بينما إنتابت
الضابط حالة حجل وارتباك وخرج، سحب نفساً طويلاً، وأطلق زفيراً مليئاً بالدخان، إنتهز
الفرصة ليهمس لجان:

- خلّي بالك من زوزو! يا أبو عروة... عُمر وأتعدى الثلاثين، أنت عروة والعيون هنا ساهرة.
انتبه على نفسك!

قال عبارته الأخيرة، وابتسامة تغطي شفثيه.

عندها تذكّره جان، إنه هو، يالها من صدفة غريبة عجيبة، هل كان يتصور أنه سيلتقي به بعد هذه الغربة الطويلة، وأين؟ في المطار؟ ساد صمت لبرهة قصيرة، قطع جان حبل الصمت قائلاً بعربية فصيحة:

- لم أفهم كلامك أيها الضابط! عمّ تتحدث؟ أنا هولندي ولا علاقة لي بأي واحد اسمه عروة!
- لا تفهمني غلط. أنا أريد مساعدتك، تركت لك رقم تلفوني على المنضدة البيضاء. اتصل بي عند عودتك إلى هولنده، يجوز تحتاج لمساعدة.

ماهي إلا لحظات حتى وجد نفسه يجلس جنب ماري في الحافلة الكبيرة أمام المطار وهما يفكران بأمر الضابط ورقم الهاتف الذي كتبه له على القصاصة. إنه قلقٌ وخائفٌ للغاية.

تدور في رأسه تساؤلات من قبيل "ماذا يمكن ان يحصل لي؟ هل يمكن ان يشي بي هذا الضابط الصديق القديم لدى السلطات؟ وماذا سيقول لرجال الأمن عني؟ هل سيخبرهم باسمي الحقيقي؟ وهل سيقول لهم بأني كنت شاباً ثورياً أكّتي نفسي باسم شاعر الفقراء العربي القديم عروه بن الورد؟ ياله من اسم جميل ورومانسي!

لم أكن معجبا بشعر عروه فحسب بل بأسلوبه الحياتي الثوري، يسرق هو واصحابه الصعاليك الأغنياء، يوزّع الغنائم على المعدمين، إنه روبن هود العرب، عاش ومات في القرن الخامس، وبعد كل هذه القرون آتي انا الشاب المتحمس في القرن العشرين لأبعثه من جديد، أتكتفي باسمه تيمناً به. لم يكن هذا اسماً سرياً حزيناً اخترّته لنفسي، بل كنية كنت أتداولها بين اوساط الثوريين في النشاطات العامة.

ومع ذلك فإن أخبرهم هذا الضابط بهذا الاسم سيفتشون عنه في ملفاتهم، ماذا سيعملون بي؟ إنها قصة قديمة، لا، لا لا توجد حكاية قديمة عند رجال الأمن، هؤلاء ذئاب، وحوش كاسرة تنقض على الطرائد حالما تسنح لهم الفرصة.

ومع ذلك افرض، افرض مثلاً أن هذا الضابط سيشي بي وأن رجال الأمن سيعتقلوني! ليكن ذلك وانا مستعد لتحمل كل شيء، انا في النهاية مواطن هولندي، ولم أفترف اية جريمة او

ذنب، صحيح ان السلطات هنا مستعدة لانتهاك حقوق الإنسان وضرب كل شيء عرض الحائط، لكن لا أعتقد انها ستسيء إلى العلاقات مع هولنده بسببي أو اي شخص آخر صغير غير مهم مثلي.

لم يكن هذا الضابط الشاب حقاً منتظماً معنا في منظمات الشبيبة بكل معنى الكلمة، إلا أنه كان متعاطفاً حقيقياً وصادقاً بسلوكه معنا ويجمع لنا التبرعات المالية باستمرار ويشترك في نشاطاتنا الجماهيرية العامة. كان هذا الضابط أصيلاً من عائلة محترمة، لا يعرف الغش والخداع، حتى عندما قرر أن يقطع صلته معنا كي يضمن قبوله في الكلية العسكرية او الشرطة طبعاً بعد تخرجه من الثانوية، كان واضحاً وصادقاً ومباشراً. أتذكر جيداً أنه اتصل بي وطلب اللقاء معي على انفراد، وأخبرني رسمياً بنيته تلك وجهاً لوجه.

كان يمكن له في ذلك الوقت أن يشي بي ليوافقوا على إنخراطه في الشرطة أو الجيش المحصورة على أتباع الحزب الحاكم. لم يفعل ذلك، ضميره لم يسمح له. لا، لا، لا أعتقد أنه سيفعل هذا الآن، والداه عرفا كيف يربّياه وكان الجميع يشهد بأخلاقهما.

وقفَ جان وماري مع السيِّاح الآخرين بانتظار حافلة مخصصة لهم لتقلهم إلى أحد فنادق المدينة. كان جان ينظر بعينين شرهتين متطلعا إلى ما حوله، بينما كانت ماري تراقبه، أمسكت بيديه ساحبة إياه وسط المسافرين. انتبه جان إلى تصرفها المفاجيء قائلاً لنفسه " هذا أحسن، "حشر مع الناس عيد"، ثم قال لها بصوت مسموع:

- تعرني يا ماري، هذه هي أول مرة أرى فيها هذا المكان.

* * *

فجأة، مَشَتْ قطة صغيرة على حافة شبّاك عالٍ في بنايةٍ مقابل المطار. أقلق هذا المنظر ماري. خشيت أن تسقط الهرة من أعلاها. نَحَضَّت ماري، تُطَلُّ برأسها من نافذة الحافلة، تتأكد من سلامة هذه الحيوانة الأليفة. قال جان بنبرة كسيرة:

- تصوري، القطة "تتمندل"، تسير كأنها عارضة أزياء رغم ضيق المكان! ليتني قطة، نحن في محنة كبيرة وأنت تفكرين ب"أم سبع ارواح" كما نقول بالعربية!

ضحكت ماري قائلةً له بالعربية والهولندية:

- الحسود لا يسود، حتى القطة لم تنج من عينيك السوداوين الحسودتين. تغار منها؟ كَلِّه واحد: قطة، إنسان لا فرق. أنت أيضاً، لسنا في محنة، اطمئن! لن تطالك يَدُ! هولنده!

قالت الكلمة الاخيرة بنبرة مسرحية.

المسافرون يتطلعون بإعجاب أو فضول واندهاش إلى مناظر المدينة، فاذوراتها ومقاهيها ودكاكينها من خلال زجاج الحافلة المنطلقة بهم نحو الفندق. أقلقهم أنها تبدو مدينة أوروبية في بعض الأحيان وأزيلت ملامحها الشرقاوسطية. "مع ذلك شرقية مشوقة" يرددون بين أنفسهم. بعض هؤلاء الركاب من النوع الذي يسخر من بلدانهم الأوروبية الباردة، يرددون عبارات التندر كلما رأوا الناس في حركة مزدحمة، أو عندما يتكلمون بإنفعالية واضحة تحت لمعان الشمس الساطعة على مباني المدينة وشوارعها.

عندما دخل جان غرفته في فندق من الدرجة الاولى، مظل على نهر جميل ذي شاطئ ساحر، تنتشر حوله الحدائق والمقاهي والبارات الليلية، كانت ماري تتحدث مع امرأة عجوزٍ أمام الباب، تعاني من الدوخة، ماري تنصحها بالامتناع عن تناول حبوب الصداع على معدة فارغة، ذكّرتها بشرب الكثير من الماء، وعدتها بالخروج معها ثم ودّعتها على أمل اللقاء بها.

دخلت ماري الغرفة، رأت جان يتصفح مفكرةً صغيرةً أخفتها ماري، متطلعاً إلى أرقام الهواتف، أدركت على الفور أنه يود الاتصال الهاتفي، قالت له جازمةً:

- انتظر، ليس الآن. لكلِّ شيء أوانه.

استمعَ جان لها، اقتنع. ابتعدَ عن جهاز الهاتف قليلاً. قال لها:

- نعم! عندك حق. الأفضل التريث.

تناولت ماري السماعةً مبتسمةً، أدارت قرصَ الأرقام، اخذت تتكلم بالهولندية:

- مرحبا

-

- نعم وصلنا الآن، نحن في الفندق، هذا صحيح. إذن أنت تعرف المكان جيدا. متى ستأتي؟
.... بعد نصف ساعة! أوكي! نحن بانتظارك في صالة الفندق.

جلس جان إلى جانب ماري، حول منضدة زجاجية معتمة، يتوسطهما بن خالتها، مساعد القنصل الهولندي في عاصمة جمهورية القلعة العربية الاشتراكية الديمقراطية.

جاء النادل إليهم حاملاً صينية فيها ثلاثة فناجين قهوة. كانت أوجه الشبه بين ماري ومارك واضحة العيان: العينان الخضراوان الصغيرتان، أرنبه الانف والشعر المائل الى السواد.

حدثها مارك عن ظروف عمله وعادات سكان القلعة وتقاليدهم وتاريخهم الحضاري ووضعهم الحالي واضطهاد الحاكم وأبنائه لهم. أخبرته ماري عن جان وغربته القاسية الطويلة عن أهله. أكد لها قائلاً وعيناه صوب ماري:

- لا يمكن لأحد أن يمسّ هـ بمساس طالما أنه مواطن هولندي على شرط ألا يقوم بأي شيء غير قانوني ويثير السلطات هنا، وإلا فإنها ستضرب كل شيء عرض الحائط، عندها لن تنفعنا لا هولنده ولا الامم المتحدة.

- غرقوا في ضحكة عميقة بينما قال مارك:

- هذا هو واقع الحال ولا يمكن نكرانه، وأنهم هنا قادرون على توجيه تهمة التجسس والخيانة العظمى وتنفيذ حكم الاعدام في أسرع ما يمكن ...

تقدمت نحوهم في هذه الاثناء فتاتان سويديتان من نفس مجموعتهما السياحية، سلمتا عليهما، رحّب الجميع بهما، دارت بينهما أحاديث مختلفة عن الحياة في السويد وسكان القلعة.

بعد برهة وجيزة اقترح عليهما مارك أن ترافقاهم في جولتهم بالسيارة، رحبتا بالفكرة مسرورتين.

في الطريق طلبت ماري من مارك أن يأخذهم إلى الجامعة ليزوروا قسم اللغة العربية، تساءلت الفتاتان السويديتان عن إمكانية دراسة العربية فيها، ردّ عليهما مارك بأن الامر ليس مستحيلاً.

يفكر جان بزيارة ذلك البيت القديم، يحلم برؤيته وأشجاره الباسقة، شعرت ماري بشروده،

مررت يديها على شعره بين الفينة والاخرى. أوقف مارك سيارته أمام الجامعة، عرضت

السويديتان على الجميع مرافقتهما. شكروهما على دعوتهما. ودعتهما الفتاتان بعد أن تأكدتا من وجود عنوان الفندق لديهما.

انطلقت بهم السيارة من جديد. رجا جان ماركا أن يدخل بسيارته نحو الشارع العريض، علّق مارك باقتضاب:

- أنا أعرف هذه المدينة، لكنني لا أعرف هذا الحي جيدا،

أشارَ جان إليه بأن يدخل في شارع فرعي تضلله أشجار اليوكالبتوس. تذكر تلك الشتلات الصغيرة والدراجة الهوائية والمشاتل واللقاءات السرية، وكتابة الشعارات الممنوعة على الحيطان وتوزيع المنشورات بينما كان رفيقاه يحرسانه، يا ترى أين هما الآن؟ سمع مرةً عن أحدهما هرب إلى الجبال مع المقاتلين، أما الثاني فقد اختفى في مجاهل الاهوار فيما بعد.

يا ترى كيف هو حالهما في هذه الأيام؟ أية مأساة يمكن أن تلحق بهما لو كانا ضمن عداد الأحياء في هذه القلعة النارية؟ وأية سعادة كان يمكن أن تغمر أمهما لو كانا ولدين طائعين يسمعان كلام والديهما ولا يتدخلان بالسياسة؟ لا ليس الامر كذلك، هذا مجرد هراء، لا أحد في هذه القلعة مرتاح البال إن تدخلتَ بالسياسة أم لا، هؤلاء يأخذون مبدأً: إن لم تكن معي فأنت ضدي! انتبه جان إلى اجتياز مارك شارع الكالبيتوس مبتعداً عنه كثيراً.

نسي جان نفسه سارحاً في خياله بذكرياته القديمة أيام الشباب، بينما تستمع ماري إلى أحاديث مارك، تَشعرُ بصعوبة وضع جان النفسي متعاطفة معه. كل ما كانت ماري تتمناه هو أن يمرَّ الوقتُ بسلام ويعودوا من حيث أتوا وأن تسير كلُّ الامورِ حسب الخطة المتفق عليها وبدون تهورٍ أو تسرع.

فجأةً طلب جان من مارك أن يرجع إلى نفس الشارع، اعترضت ماري مهدئةً إياه، قالت متوسلةً بمسكةً بذراعه:

- بالله عليك يا جان... ليس الآن... انتظر ولا تفسد الخطة علينا

- لا، لا يمكن، أريد أن ألقى نظرة أخرى على البيت فقط، ...

- أرجوك يا عزيزي ... انتظر قليلاً وستسير الأمور على أحسن ما يرام، ستري أن كل شيء سيكون رائعاً. إني أريد أن يكون كل شيء معداً سلفاً...
- أرجوك كفي عن ذلك يا ماري، إنه بيثنا القديم، هنا ولدث وترعرعت
- إصغ لي يا جان، سنتلقي اليوم بالسفير، أليس الامر كذلك يا مارك؟
- لا تحاولي يا ماري فأنا أعيش أحلى لحظات حياتي ولا بد أن أرى البيت مهما كلف الامر، أرجوك يا مارك توجه نحو الشارع الذي كنا فيه.
- انتظر يا جان، لا تعاند، أريدها مسرحية من إخراجي وإعدادي، سنتلقي اليوم بزملاء مارك والسفير، سنمرح اليوم وستكلم بالموضوع ... دعنا نفرح اليوم ... لا بد من إخبار أهلك وتحضيرهم إن كنت تريد لقاءهم، قد تحدث صدمة كبيرة لهم، فكر جيداً، لا تكن أنانياً بالله عليك يا جان ...
- أرجوك يا ماري، لا تفسدي عليّ لحظة التألق. دعيني أعيش الانتشاء، إنها فعلاً الحالة الشعرية، لا بد لي من إلقاء نظرة على أشجار الكالبيتوس، إنها طفولتي ... قاطعته ضاحكةً بعد أن لاحظت بروده وعدم ممانعته:
- يا ترى هل هي أشجار الكالبيتوس أم حب قديم؟
- ثم أردفت مهدئة إياه:
- لأجلي، ... انتظر قليلاً وستري الكالبيتوس والتين والزيتون ...
- ثم تابعت ضاحكةً بالعربية، ساخرةً من بلاد القلعة:
- وطور سنين وهذا البلد الأمين، البلد الأمين!!
- قال جان موجهاً حديثه إلى مارك:
- أرجوك يا مارك، عُد إلى طريق الكالبيتوس
- ردّ عليه مارك بالإيجاب قائلاً بعربية ضعيفة ذات لكنة واضحة:
- تفزّل، ولا يهّمك يا خبيبي، "تدلل عيني" بالعراقي!
- شعرت ماري باليأس، قالت مستسلمةً للامر:

- أوه يا إلهي.. إنها مشيئة الله، ليكن لك هذا يا جان، لكن أستحلفك بالله بدون استفزازات ومغامرات وحرق أعصاب الآخرين.

- اعتمدي عليّ.

قال جان كلمته بدون تركيز، كان التعب يبدو على وجهه ونبضات "كلبه" كما كانت ماري تقول تضرب بسرعة.

اتجه مارك بسيارته نحو الكالبيتوس. نظر أحد الاطفال إليهم، كان هناك رجل كبير يتطلع إلى سيارتهم اثناء دخولها الشارع الفرعي. بقي يرمقهم حتى أصبحت السيارة بعيدة عنه. توقف مارك أمام الكالبيتوس، أخذ جان يتمعن في تلك الوريقات الصغيرة من الشجرة العالية، جالت نظراته بسرعة عجيبة كلّ المكان، البيت، الحديقة.

أحسنّ بهدوء مزعج يحيط البناية والحديقة، لمح بعد قليل فتاةً في العشرينات من عمرها. "يا الله، من تكون هذه؟ هل تكون هي أم غيرها؟" حدّثَ نفسه متسائلاً. كان وجهها غريباً عليه. لم يستطع التعرف إليها أو تشخيصها. لم يرها ضمن الصور التي كانوا يبعثونها إليه أيام دراسته في الخارج.

"لا بد أنّها ابنة الجيران" طمئنَ نفسه، أو أنه أرادَ أن يقدِّ نفسه من دوامة التفكير، الإرباك والوهن باديان عليه. أرادت ماري أن تقول له شيئاً، تراجعت عن فعل ذلك لمجرد التقاء نظراتها بعينيه، فهمتُ منهما الأفضل لها ألا تقول شيئاً، أن تلتزم الصمت ومراقبة ما يجري.

نزلَ جان من السيارة. حدثَ ذلك بعفوية غريبة من نوعها. فتحَ بابَ السيارة مترجلاً منها. هكذا وبتلقائية وكل بساطة خرقتُ كلَّ الخطة المتفق عليها. نظر إلى ماري ومارك مبتسماً، متظاهراً برباطة الجأش، قابلاه بابتسامة وهدوء، ماذا عساها أن يفعلا في مثل هذه اللحظة الانفعالية، قالت ماري محدثةً نفسها "هنا لا ينفع المنطق والكلام العقلاني ولا يصمد أمام الإحساسات والمشاعر الجياشة. كلمة واحدة قد تشعل حريقاً كبيراً.. قد تُثارُ ضجةٌ.. السكوت من ذهب في مثل هذه الحالات".

التقت نظرات الفتاة داخل سور البيت بعيني جان، حاول مرة أخرى تشخيصها، خانته ذاكرته ولم يحالفه الحظ. كانت الفتاة تقف في زاوية من زوايا حديقة المنزل، خافت من نظراته قليلا، لا، ليس كذلك بالضبط، لم تكن نظرته عدوانية، بدا عليها الارتباك، كانت عيناها تفصح عن شعور غريب تجاه هذا القادم الجديد، خشيت من نفسها، قلقت على نفسها، شعرت بصدمة ضاقت بها، يا إلهي لم تعرف ماذا تفعل، إنه هاجس يراودها، ليست متأكدة تماما مما يساورها... هناك أمرٌ ما ينبؤها بشيء جديد، قد ترف البشارة، لا تعرف بالضبط ماذا تقول لنفسها. وجهه نفس الصورة العالقة في ذهنها، يا الله هل يعقل أن يكون... لا، لا، لا، مستحيل، هذا غير ممكن، لِمَ لا، لم لا يكون هو، يا الله!

إنه نفس الصورة، التي أطلعها أهل زوجها عليها، قالوا لها: هذا هو حماك، سافر من القلعة هاربا للدراسة في الخارج، ذهب عنا ولم يعد!

نعم، إنه هو حباية ومقسومة، الله يخلق من الشبه أربعين، لكنه هو، وجهه لم يتغير، ذات الملامح واللحية والعينين الكحيلتين والأهداب الطويلة، لكن هذا مستحيل!
إنه قانون الغرائب والعجائب واللامعقول، قبل نصف ساعة ذكرته عمتي، قالت: يا ليت لو يكون جني الآن، ياليتها يأتينا ويشرب وإيانا الشاي العراقي المهيل، ابني أريد أشوفه قبل ما أموت وانغمرت في البكاء، حاول عمي أن يهدأها، قال لها مواسيا إياها: "شوفي عينك إذا ما إجانا عن قريب!"

ويكي، يا الله! هل تحققت أمنيتهما؟ أرادت البنت الشابة أن تقول شيئا، رغبت أن تصرخ، امتلكها الخوف، شعرت أن فمها ممتلئ بالماء، بالدقيق، بالرمل... خافت، بالضبط مثل خوفها عندما كانت تحلم في صغرها بقدوم اللص عليها أثناء نومها، كانت تمتنع عن الصراخ من شدة الفزع، بل لا تقوى على النطق بأي شيء، أحسست بنفسها كعصفور صغير مقصوص الجناحين في يوم ممطر، ودّت لو تختفي خلف أجمات الآس والدفلى في حديقتهم.

هرعت نحو الداخل، يدها اليمنى متجهة نحوه مشيرةً إليه بإصبعها، ناظرةً إليه فاغرةً الفم، لم تعرف بالضبط لمُ هربت، يبدو أنها حدست شيئاً لا تعلمه بالضبط، لا تفهمه بكل معنى الكلمة، أو لا تجد له تفسيراً، شيء مبالغت لها لم توقعه إطلاقاً!
إنه ضرب من الخيال، الشيء الوحيد الذي تعرفه هو أنها بدأت تشعر بأن أمراً مهماً سيقع، رآته يتجه بخطاه نحو الباب الصغير، توقفت قليلاً، ابتسامةً حائرةً بدأت تطلُّ على ثغرها، على شفيتها المرتجفتين! أرادَ جان أن يدق جرسَ باب الحديقة، بقي الأمرُ غامضاً بالنسبة لها، لم تفهم شيئاً مما يجري أمامَ عينيها، لم تقل له مثلاً: من أنت؟ ماذا تريد؟، لم تَعْتَدِ على مثل هذه المفاجآت والغموض ... والقدسية إلى هذا الحد.

لم يكن أمامها غير الصباح بتلقائية وكانت الرجفات تسري في أوصالها من رأسها حتى أخمص قدميها، قشعريرة تسري في جسدها، أحسَّت بجلدها يمتلأ بالزغب وكأنها تلامس الشعيرات الصغيرة بأصابعها، راودتها رغباتٌ خليطة، فيها خوفٌ ورجفةُ النشوة، تشنَّجٌ بدُّها، عُقد لسائها، أرادت ان تقول شيئاً كأنها تعاني من مخاض ولادة، استجمعت كلَّ قواها، ضغطت على أصابع كفيها، فتحت رجليها كأنها تريد أن تلد وليداً جديداً، صرخت بأعلى صوتها كالمفجوعة "

عممممممه، عمه، تعالي شوفي منو هذا!! "

هبت المرأة العجوز من داخل الصالة مولولة:

- خير عمّة؟ عمه خير؟ اشبيح؟

العجوز في انتظار دائم، أمسكت الفتاة من كتفها بيد مرتجفة، كأنها تتحسسها للتأكد من سلامتها، قالت لها بصوت متقطع، متهدج:

- قولي لي، اشصار بيع يا بنتي؟

عُقد لسان الفتاة، اكتفت بالإشارة إلى باب المنزل، أخذت المسنة تصرخُ بها متسائلة:

- بنتي الله يخليج اشصار بيع؟

قالت كلمتها الأخيرة متجهةً نحو باب الحديقة الخارجي تاركَةً الفتاة الشابة عند مدخل البيت، دُهشت الأم لما تراه، نادت كئنتها مستغيثةً:

- عفاف، عفاف، تعالي هنا، أريد أشوف ... أريد أفهم، بين آني بحلم، آني عيوني جُرك ما أشوف زين بها، بس بيّين أكو شيء جاي من الله سبحانه وتعالى، بيّين أكو شي مو طبيعي، يا إلهي ما أعظمك، جلت قدرتك!

عندها فهم جان، الذي تراجع قليلاً ووقف إلى جانب مارك الجالس في سيارته، قال له:

- إنها زوجة أخي الأصغر، هذا ما أتذكره من آخر رسالة استلمتها منهم.

كانت العجوز تراقبهما من داخل شرفة البيت العالية قليلاً، لم يستطع جان البقاء في مكانه، اتّجه نحو الباب الخارجي مرة أخرى لا إرادياً، فكر أن يقوم بدور تمثيلي مازحاً والدته العجوز، أراد أن يتظاهر بالاستفسار عن شيء، رغب أن يفعل شيئاً إرادياً، لم يقوَ على ذلك، أراد أن يقول شيئاً، خارت قواه، أراد أن يسألها سؤالاً موضوعياً بعقلانية وهدوء، أراد أن يفعل أو يفعله شيئاً...

هناك شيء واحد حسم كل هذه الافكار وخلط الاوراق كلّها، صرخةٌ مدويةٌ في أذنه، أطلقتها الأم كالمفجوعة المستغيثة، ردّدت اسمه بصوت عالٍ مولولة باكية.

فهمت ماري الأمر، أرادت أن تتدارك الموقف، فكرت بالخروج من السيارة هي وابن خالتها، تراجععت، خافت أن تُثار الشكوك حولهما ويتعقد الموضوع أكثر فأكثر.

وبسرعة البرق كان العناق عميقاً، كانت تُسمع هناك جلبة وأصواتٌ من داخل البيت وصوت رجل مسنٍ يقولُ مندهشاً شاكياً:

- معقول؟ مستحيل!! هذا حلم هسته ذكرناه، هذه قدرة إلهية!

خرج بعض الجيران. كانت العجوز لا تزال تحتضنُ ابنها نائحةً صارخةً:

- ابني! ابني!

أراد جان أن يتمالك أعصابه، ويغير اللعبة، أن يقول لها إنها على خطأ وأنه ليس ابنها وإنه يريد أن يسألها عن شيء ما، دون جدوى، انهمرت الدموع من عينيه. بدأت ماري تبكي، كان مارك يشعر بالقلق قليلاً، تمنى لو يعود جان إلى السيارة ويتجهوا جميعاً إلى بيته.

تمالكت العجوز أعصابها وهي تنظر إلى سيارة الميرسيديس الفارحة، بينما خرج في هذه الأثناء شيخ من داخل الدار راكضا يصرخ بعصبية:

- معقوله؟ الله أكبر، وين ابني أريد أشوفه! ليش هذا الظلم ياري، ليش؟ لك يوم يا ظالم!
وإستسلم للبكاء، عثرت قدماه بعتبة باب الدار الخشبي، سقط دون أن يُسمع له صوتٌ،
اتجهت الأنظار كلها إليه وانطلق العويل من كل الجهات، صرخ جان بأعلى صوته:

- يابا، يابا! الله يخليك يابا!

مزقت المرأة العجوز العالم كله بصراخها المدوي، بينما كان جان يولول وينوح كالعجوز، أراد أن
يمزق صدره، يضرب وجهه بيديه بقوة.

فوجيء بيد ناعمة تهدأ من روعه وتفيقه من نومه قائلة:

- سعيد!، سعيد! أفعد، الساعة التاسعة، لازم تروح للشغل
رفع رأسه بصعوبة، شعر بالصداع، مرر يديه على وجهه قائلاً لنفسه يائسا " هذا حلم "، دفن
رأسه تحت الوسادة باكيًا بصمت.

الصحراء الكبرى- إسكندنافيا 1986-1990

*نشرت قصة اللقاء والموت في صحيفة الزمان بتاريخ 12-13 يونيو حزيران 2003

المهاجر *

كان عليّ اليوم أن أرى فيلمَ المهاجر! اتصلتُ بي شريكة حياتي، أو "نصفي الآخر الأفضل" كما يحلو لزميلتي أن تسمي زوجها! كنتُ في عملي وأخبرتني بالأمر فجأةً. تطلعتُ إلى الأوراق المتناثرة هنا وهناك فوق منضدتي، شعرتُ بالإحباط تماماً. عاتبْتُها قائلاً لها:

- كان المفروض أن تخبروني قبل هذا الوقت!"

قلتُ لي بلا اكتراث:

- أنا أصلاً ما عرفت بعرض الفيلم بالتلفزيون إلا قبل عدة دقائق. هكذا حدثت الأمور دون سابق إنذار.

أبديتُ امتعاضي، بينما ردّت هي عليّ متهكّمة:

- أنت تحكي عن الحياة وكأنها حرب، صديقتي عفاف اتصلت بي تلفونيا، أخبرتني عن الفيلم وانتهى الأمر.

رددتُ غاضباً:

- طبعاً حرب! طبعاً حرب! "، وضعتُ السماعرة بدون أن أودّعها. كنت حانقاً، لم أكن أُرغب أن أظهر فقدان توازني، عملت كلَّ شيء وكأن الأمور اعتيادية، كنت متألماً فعلاً، بالتأكيد ليس بسبب العرض المفاجئ لفيلم المهاجر فحسب.

عدتُ إلى البيت مجهداً، أعاني من النعاس والضغط، والدوخة خائفاً أن تتحوّل إلى صداع، والأخير إلى شقيقةٍ.

تناولتُ أقراص الأسبيرين بعد وجبة الأكل مباشرة. مددتُ جسمي، تسطّحتُ على الكنبه أشاهد الفيلم بعينين شبه مغمضتين. قاومتُ التعب والنعاس، اندجمتُ مع الفيلم، كأني أعيشه بكل تفاصيله، تذكرتُ اللاجئتين، أعملُ معهم، ألتقي بهم، أتقاسم همومهم وأحزانهم دوماً. لم يطلب أحد منّي هذا الدور، لكنني لا أقوى على غير ذلك. فسحّرتُ لهم المجال لطلب العون

والمشورة عند الضرورة، يتواصلون معي على مدار الساعة، تأملتُ كثيراً، بل شعرت بنار تلتهب في جسدي، أي حريق كان هذا؟ ثم انطفأتُ.

غاب الفيلم عني وبقيتُ أفكاره في رأسي.. كان عليّ ألا أستلقي على الكنب، ولا على فراش النوم قبل وقته، بل عليّ أن أقوم بذلك في ساعة متأخرة من الليل وبعد أن ينهار جسدي ويدركني النعاس حثّاً، عندها سأضمن النوم حتى الصباح كما أحلم وأتمنى دوماً.

هذا ما قاله الطبيب النفسي لأحد مرضاه اللاجئيين عندما كنت أترجم له، إنه شخص طيب وإنساني، مشكلته أنه يكرّر ببطء الإسطوانة ذاتها بصوتٍ خافتٍ وسكونٍ وبرودٍ، أبرد من ظهر السقّا، يستّمونه المعتوه! اليوم، أتذكر أنه قال لمريضه النفسي:

- لا تضطجع في الفراش قبل ساعة النوم المتأخرة، قبل المهجيع، وقبل أن تتأكد فعلاً بأن عقلك لن ينشغل بأفكار مقلقة لئلا يصيبك الأرق.
وكرّر له لازمته:

- عليك أن تجهد جسمك عضلياً في النهار، تشم الهواء الطلق في الغابة، لدينا غابات جميلة هنا، انس همومك القديمة، استرخ قدر المستطاع، لا تنس أن تمارس الرياضة!
قال عبارته الأخيرة هازماً رأسه مغطياً شفثيه بكفّ يده اليسرى كأنه يخفي ضحكته خجلاً من كلامه الساذج. متطلعاً إلى المريض بعينين حزينتين.
وكان المريض أيضاً يكرر له الإسطوانة نفسها كما في كل جلسة:

- هذا كلام سهل، جرب أن تعيش عندنا مرةً واحدةً وتعاني ظروفنا، جرب أن تجرّب على الهرب من وطنك بدون عائلتك وأطفالك وأن تترك عملك وأصدقائك، أنا كان لي كيان وشخصية واحترام من قبل الجميع، أما الآن فأنا لاشيء، ينظرون لي نظرةً هاشمية، عفوا أقصد هامشية، ويعتبروني مجرد نكرة، على قولة المثل: اللي طلع من داره، نقص مقداره، كيف أسترخي وأنا مدمّر لا أعرف عن عائلتي أيّ شيء، أكلهم، شربهم، ملابسهم، صحتهم؟

وكالعادة ينهار المريض الغريب وينهمر في البكاء بعيداً عن دياره وأهله آلاف الأميال، بينما يردّد الدكتور النفساني:

- مع ذلك جرب أن تشم الهواء الطلق والانشغال بأعمال يومية تلهيك وتجهّد جسدك لتنام في الليل.

* * *

الذي حصل اليوم هو أيّ مددتْ جسدي قبل وقت النوم بكثير، لكنني كنت خائر القوى، غلبي النعاس، لم أقاومه وانتهى الأمر!

في النوم، حلمتُ، رأيتُ رؤيا فيها أحداث كثيرة لا أتذكرها طبعاً كلها، أعتقد أنني شاهدتُ حلماً قديماً كأني جالس في صالة عرض أفلام، يعني سينما. إنها رؤية جديدة لتمام عتيق بقي يلازمي لفترة طويلة، طبعة محدثة لنسخة سابقة.

حلمتُ بأحد الزعماء من الذين تربعوا على العرش واستحوذوا على كل شيء، ومع ذلك ينادون بشعار كبير: الديمقراطية والسلطة والثروة والسلاح للشعب والأمة، ويرفع شعارات أخرى كبيرة وكثيرة مكتوبة على الحيطان والكتب المدرسية وتتردد في الإذاعات ومحطات التلفزيون والحارات والشوارع، وفي لافتات القماش المعلقة في كل الأماكن والورق ويرفع يده دائماً محيياً شعبه العظيم مطالباً إياه بالثورة على الظلم!

يصرخ هذا الشعب يومياً: بالروح بالدم... ومع ذلك يحلم أكثر من ثلاثة أرباعه بالهروب إلى خارج بلاده حيث اللجوء، ويعاني أكثر من نصفه من الفاقة والعوز والحرمان والحالات والأمراض النفسية. وقسم صغير يعيش على الهتافات والفتات، أما الباقي منه فهو مجرد وقود للحروب والقتل والدمار والاضطرابات والفوضى. حاولت أن أقوم بمسائل الطرح والجمع والضرب والقسمة لأكتشف من يقف مع هذا الرئيس، ومن يجب أن يعيش في كنفه الثوري، لم أخرج بنتيجة غير أن الجميع معه وضده في الوقت نفسه! إنه أمر أكثر من محيّر وعجيب وغريب ورهيب ومريب.

المتزوجون والأطباء العامون ونظراؤهم النفسانيون والمحللون النفسانيون الاجتماعيون والمرمضات والمرمضون والشرطة والمحامون والسياسيون التقدميون والعنصريون المعادون للأجانب والمتعاطفون معهم وأعضاء البلديات والبرلمانات والصحفيون هم أكثر من ينشغل بهم في "بلدان اللجوء" كما يسمونها.

أتذكر أن هذا القائد الثوري والزعيم الفذ قال لي، في الحلم طبعاً فأنا، والحقيقة تقال لم يحصل لي الشرف أن تحدثت إليه مباشرة، إنه يعلم جيداً كيف يتعامل مع أبنائه. وقال لي بالحرف الواحد:

- هؤلاء ليسوا بشراً، بل بهائم، أيوه، نعم هذوله بهائم ما يستحقون الحياة حتى في الحضائر، أصلاً هذول ما يعرفون مصلحتهم، وعلينا أن نقلهم نقلة نوعية ونحوهم إلى رجال ثوريين بكل معنى الكلمة، فهمت؟ الذي يعجبه أن يصير رفيقاً ثورياً يبقى معانا، أما من ينكر علينا هذا الحق والواجب والمسؤولية ويتنكر له ولنا ولا يعجبه، خله يورينه عرض كتافه، الباب توسع ألف ألف جمل، واللي مش عاجبه، يبلط البحر ويشرب من ميته ويغور من وجهنا في ستين داهية، ويطلع برّه يعيش على فتات الاخرين ويصير من الكلاب السائبة".

أعتقد، إنه قال:

- في ستة وستين ألف داهية.

- بالمناسبة، كان هذا الزعيم يستخدم سبابته أثناء الحديث، ينطق نصف الجملة ويقى نصفها الآخر في رأسه، أو يعبر عنها ويشير إليها بإشارات وارتسامات على المتلقي ان ينتبه لها، ويخاطب حاشيته بعينه وشفتيه، يقلب على كل الموجات، وعينه تتحركان بطريقة يصعب وصفها، رجل معنوه بكل معنى الكلمة، لكن أهم ما يمكن أن يقال عنهما إنهما تتطلعان إلى السقف والأرض تراقبان كل شاردة وواردة، والأهم من ذلك أن هذا الزعيم الفذ صاحب المواهب، عاشق الحمايا من الذكور والإناث والمواكب والجلسات والمناقب، مهندس وطبيب، مدرس وحبيب، يتقن جميع لهجات العرب العاربة والمستعربة ولغات العالم الثالث الحية والميتة ولهجاته المعروفة والمجهولة.

وإنه، والحق يُقال كان يتحدث إليّ بنوع من الود والتواضع والاحترام، أو على الأقل أنه كان يتظاهر بذلك، يتسم عندما يقول كلماتٍ عربيةً من لهجاتٍ أخرى متطوعاً إلى رجاله الملتئمين وغير الملتئمين من الشباب والكهول، وكان لسان حال عينيه يقول:

- ليجرب من تسوّل له نفسه أن يعبث أو أن يصطاد في الماء العكر.

طبعاً لم أجادله رغم شعوري بأني صاحب حضوة وإجلال وإصغاء لديه، بل أردت وفكرت أن أنبس بينتِ شفّةٍ فحسب مقاطعاً إياه لأسأله عن سرّ انعدام الطحين في السوق. أردتُ أن أنقل له معاناة جماهيره ليس إلا، رغبتُ أن أقدمّ له خدمةً لا أكثر ولا أقل، كنت أفكر في طريقة طرح السؤال من منطلق وديّ وأخوي، "رفاقي" أو وطني، أو بسبب الرعاية التي أحاطني بها، لكن السؤال بقي متخمرّاً في رأسي ولم أجرؤ النطق به!

* * *

فجأة، وجدتُ نفسي في مكانٍ آخر، غارقاً في أكوام الطحين وفمي مملوء به. حاولت أن أصرخ، دون جدوى!

الدقيق الأبيض يسد كلّ منافذ فمي. وهناك من يركل مؤخرتي قائلاً بسخرية "كُل واشبع يا حمار، يا بهيمة..."، يبدو أن عيون الثورة ساهرة حقاً. لكن يا ترى كيف علموا ما في داخل عقلي؟ أمّزّ غريبٌ للغاية!

* * *

هذه الرؤيا قديمة! حلمتُ بها أيام زمان أكثر من مرة، لكن بالأسود والأبيض، أما اليوم فيأني شاهدتها بطريقة أكثر عصرية، سكوب ملون! باختصار مثل الأفلام القديمة عندما تلونها شركات السينما.

كان الزعيم الثوري يرتدي ملابسٍ مليئةً بالنياشين، يعتمر نظارةً سوداء، يضع عصا تحت إبطه ويمسك بيده الثانية رواية على غلافها صورته الشخصية، يتحدث عن الأدب والتاريخ والجغرافية ويتفوه ببعض الكلمات الهزلية متعمداً لإضحاك المستمعين.

وكان أزلأمه يتطلعون إلى شفتيه، يضحكون، بل يقهقهون لمجرد ارتسام ابتسامة صغيرة عليهما ويهتفون بين فترة وأخرى:

- عاش! يعيش! الرفيق! القائد! الزعيم! بينما يؤشر هو بيده مبتسماً دلالةً على الرضا والتواضع والأبوة والأستاذية والقيادية، وكانت عيناه تتراقصان وتحركان وتنطنطنان "على كل الاتجاهات.

* * *

فزرتُ من النوم! احترقَ الفيلم! انقطعَت مشاهد الكابوس وضاعت خيوطه. تطلعتُ إلى الصالة، وجدت الهدوء والظلام يخيمان عليها، الجميع نيام، نظرتُ إلى ساعة الحائط، كانت تشير إلى منتصف الليل، قلتُ لِنفسي متشائماً: "لا إله إلا الله، يبدو أن رحلة الأرق بدأت". صارت مشاهد الكابوس تتوارد عليّ كالخواطر. بدأتُ أتذكر بعضَ مقاطعِهِ. حاولتُ تصورها. لم أفجح. لكنني تذكرت غرقِي أو بالأحرى دفني بالطحين وصورةَ الزعيم قائلاً لي:

- اهتم بأمورك وشغلك ودروسك وأنا خير من يفهم بهذول البهائم اللي يفكرون بالأمر التافهة والسخيفة مثل الدقيق والخبز ويتركون قضايا الوطن والثورة والسلاح!

الصحراء الكبرى - الدمرك 1987 - 2000

* نشرت قصة المهاجر في صحيفة القدس العربي بتاريخ 26 تشرين الأول 2000

لقاء في مكتب اللاجئین *

- تعال، شوف، من هناك؟ من تتوقع؟

قالت مريم لزوجها المشغول بقراءة صحيفة في قاعة الانتظار. الصالة صغيرة تقع في الطابق الأول من منظمة مساعدة اللاجئین، في وسطها بعض الكراسي، منسدتان دائريتان مغطتان بغطاءين زرقاوين فاتحين مطرزين من الحواشي، وُضعت عليهما أقداح خزفية زرقاء فاتحة اللون وإبريق شاي من نفس الطقم، وأصيصة سيراميك بنفسجية فيها زريعة ورد.

تقف الزوجة وسط السلم الخشبي مشيرةً بيديها الاثنتين بأن يأتي بسرعة نحوها قائلة بصوت يكاد يكون غير مسموع:

- تعال، اصعد، تعال شوف من هناك!

لم يبالي لها، كررت رجاءها له محركاً شفتيها وعينها المتوسلتين، تتجه نحو الأعلى مشيرة بسبابتها إلى فوق. نظر الزوج مندهشاً وغاضباً، يقول بعصبية:

- شنو القصة؟ اتركيني أقرأ!

وضعت إصبعها على فمها مشيرةً له بأن يلزم الصمت، تقدمت منه، امسكت كف يده اليمنى، قالت مكررةً:

- تعال، شوف المفاجأة!

ارتقى الاثنان السلم، توقفا عند منتصفه، أشارت الزوجة إلى شخص يجلس في زاوية غرفة الانتظار الصغيرة هامسةً في أذنه:

- تعرفه؟ تتذكره؟

نظر إليها بدهشة، تفرس في الرجل الواقف ملياً، في الأربعين من عمره، كبير الرأس، أصلعه، وجه ممتلىء، دائري، حُدد عريض، طويل، حليق ناعم لماع، تبدو ألوان الحائط الزرقاء الفاتحة في لمعانه، يا ترى من يكون هذا؟ إنه فعلاً وجه غير غريب، اقترب منه، تقوده نحو الرجل الغريب، بادرت به بالتحية، أدار وجهه نحوها، رمقهما مستفهماً، ابتسمت الزوجة، تجاوب معها بخجل، ابتسم محركاً

يديه مندهشاً، التقت نظراته بالزوج مستغرباً الأمر، كانت عيناه السوداوان الدائريتان تلمعان، تتحركان كاللؤلؤ، مرّر يده على شعره الكث المليء بالشيب مداريا خجله، تتم بكلمات غير مفهومة تماماً، شيء من قبيل:

- والله ما أعرف.. ها، آه، مو غريب عليّ...

استقرت العيون الأربع في مركز التقاء، مرّ فيه التاريخ والذكريات بسرعة كلمح البصر وصارا يرددان:
- معقول؟ صدق؟ كذب؟

قال الرجل الغريب مشيراً بإصبعه إلى الزوجة مبتسماً:

- أكيد أنتِ مريم، وهذا، معقوله هذا هادي؟

قاطعته الزوج متردداً:

- وأنت سامي! صحيح أنت سامي؟

- إي سامي بعينه! وأنت؟ أنت هادي؟ إذن أنت هادي، سبحان الله اشلون تغير شكلك!

وأخذ بعضهما بعضاً بالأحضان وكلاهما يقول للآخر:

- والله يا زمن! والله يا زمن!

قال سامي بصوت حزين:

- يا أخي كل شيء معقول في الحياة، إنها فعلاً مفاجأة غريبة وغير متوقعة، أنا بأمس الحاجة لكم وللأصدقاء، هذه صدفة عجيبة ورائعة، تصور، ما عندي كل صديق في هذه المدينة! هذه هي الحياة!

ردّ عليه هادي بهدوء:

- المثل يقول: الجبال لا تتلاقى لكن الرجال يلتقون!

- إي والله مقسوم لنا الالتقاء هنا في هذا المكتب بعد خمس عشرة سنة!

علّقت الزوجة مقاطعة إياهما مبتسمة بمزاح:

- صحّح معلوماتك، آخر مرة التقينا بهم في محطة روما!

ثم أردفت قائلةً:

- هادي ينسى بسرعة، هذه طبيعته

- صحيح، صحيح، العفو، لكن افترقنا قبل خمسة عشر عام على أية حال.

علق صديقهما سامي ضاحكاً:

- غلطان، أنت الظاهر بين الكبر بك، افترقنا قبل عشرين سنة بالضبط ...

ردّ عليه هادي قائلاً كالتمل بعبارة روسية كانا يستعملانها أيام زمان في جلسات السمر:

- **Evo mat umerla, evo mat umerla!** والدته ماتت! والدته ماتت!

وغرقا في ضحك متواصل، بادر سامي متسائلاً:

- بالمناسبة، بعدك تسوي "evo mat umerla" و...؟

ضحك الجميع، بينما كانت الزوجة تمسك كفيها الاثنتين مبتسمةً، محرّكة رأسها دلالةً على

السعادة، قاطعهم هادي قائلاً:

- نسيت، عندي موعد، لازم أروح للموعد الآن ..

ثم أردف قائلاً موجّهاً حديثه إلى سامي:

- خذ رقم تليفوننا وأعطني رقمك وانشاء الله نلتقي يوم السبت، تحيء أنت والعائلة، اتصل

بي وبعدين نلتقي في المحطة.

اتفق الجميع على الالتقاء والاحتفال والإحتفاء في بيت هادي. كتب سامي رقم الهاتف وودعهما

قائلاً:

- مفاجأة عجيبة! **Evo mat umerla!** والدته ماتت!

ضحك هادي متسائلاً:

- تذكر هذه القصة؟

* * *

الشقة مزدحمةً بثمانية أطفال، أولاد وبنات، يلهون ويلعبون ويتحدثون عدة لغات، عربي، إنجليزي،

روسي، ودمركي. الزوجتان تروحان وتجيئان في المطبخ تعدان الطعام بطريقة احتفالية.

يجلس الاثنان في صالة الجلوس، هادي وسامي يشريان بين آونة وأخرى قليلاً من الفودكا الروسية، غارقين في ضحكات عميقة، يختلفان على أسماء بعض الأماكن وتفصيلات قصص حياتهما، أو أسماء أصدقائهما القدامى، بينما كان ألبوم الصور العائلية مفتوحاً إلى جانبهما. رفع سامي كأسه إلى فمه قائلاً:

– Evo mat umerla! Za zdoroveia! والدته ماتت! صحتك!

– Zazdorovia! صحتك!

قالها هادي ضاحكاً متسائلاً بعد أن أخذ جرعته مرة واحدة على الطريقة الروسية:

– بالمناسبة، من هو اللي ماتت والدته؟

أجاب سامي بهدوء وبصوت خافت، وهو يفرك أرنية انفه:

– أعتقد أندريه، وأنتم كلكم كنتم متأثرين ومتألمين، أنت وصديقك عُمر اليمني وناصر أبو يمن انتهزتم الفرصة، على أساس تواسون أندريه بوفاة أمه وبقيتم حتى الصباح مفعوجين وتقولون "أمه ماتت! أمه ماتت! أمه ماتت! أمه ماتت!"

قاطع هادي قائلاً:

– لا، أبداً، هو عمر اللي استغل الفرصة لأن أندريه كان صديقه جدا ويسكن معه في نفس الغرفة، أما ناصر..

– المهم أنا أتذكر أنتم تركتم منزل الطلبة متجهين لمحطة القطار، وكان أندريه يبكي ويغني أغنية حزينة ويعزف الجيتار وعمر يمسكه، حاولت أن امنعك، ولكن بدون فائدة، قلت لي: معقول أترك صاحبي؟ أما صاحبي فلا أخلعه! أما صاحبي فلا أخلعه! كأنما أنت واقف على خشبة المسرح، اذكر أن ..

– وأنت؟ وين كنت في ذلك الوقت؟

– أنا كنت عند أصدقائي وما قدرت أحيي وإياكم، أذكر أنت قلت لي بطريقتك المتهاكمة، ههه! "روح بول ونام!" هههه! لكن بعد ساعة رجعت لغرفتك، أنتم جئتم من المحطة، شربتم بيره، واشترتيم تذكرة لأندريه، كنتم منتهين، "حفله ولموا كراسيها!" كما يقال، قلت لك: هادي

يكفي عاد، لازم تنام! لكن ما كنت تسمع كلامي، وعمر قال لي: اسمع يا عراقي يا متخلف! أما تقعد تواسينا في محنتنا أو تورينا عرض كتنافك! آني طبعا قررت البقاء لأن بصراحة خفت عليك! كنت تلقي الأشعار والخطب وتهدد بأن ترمي نفسك من الشباك، وعمر قلب الميز وهو يصرخ "أمه ماتت! أمه ماتت! تبا لها من حياة!"، ناصر كان يواسي أندريه... ثم أردف سامي قائلاً منادياً الزوجتين بالروسية:

- تصوروا أن أندريه المفجوع نفسه هدأ ونام في فراشه بينما انتهز هادي وعمر وناصر الفرصة واستمروا في حفلتهم وهم يبكون ويولولون قائلين: أمه ماتت!، أمه ماتت! ما هي علاقتكم أنتم بالأمر؟

وغرق الجميع في الضحك، بينما قالت مريم زوجة هادي ساخرةً:

- كذاب وممثل رقم واحد!

علق سامي على قولها:

- معلوم! خسرت استوديوهات هوليدود، وبالمناسبة هو يبين اليوم عنده نية شر!

الجميع ماعدا الأطفال، يقف في المطبخ، بينما هادي انتهى من صب قدحين منادياً سامي:

- تعال يا رجل، أنا لا أشرب أبدا، قطعت الشرب والتدخين ولولاك والذكريات لما شربت اليوم.

- بالضبط، حسب المزاج.. بالمناسبة تذكر خوان؟

- كان عندنا أكثر من خوان ... من منهم؟

- صديقك اللي يشبه جيفارا..

- أها، بلي تذكركه، يقولون كان يشتغل بمحطة التلفزيون البوليفية وانقطعت أخباره ...

وهنا رنَّ الهاتف، توقف عن الحديث، سمع زوجته تتكلم بصوت عالٍ:

- لا، صحيح؟ متى؟ قبل اسبوع؟ أسبوعين؟ طيب قولي لي اسم القطرة والأدوية الأخرى، طيب،

طيب، كتبها وانشاء الله تكون الأدوية عندكم بأسرع وقت، ربنا يسهل..

قال سامي لهادي بسخرية هادئة وبجذر:

- الله لا يقوها و"والدته ماتت"

- الله يستر، ما عندنا لا قوة ولا طاقة لهذه الأخبار،

نمض هادي متقدما نحو زوجته، قالت بعد أن وضعت سماعة الهاتف في مكانها:

- تمالك أعصابك، هذه أختك، اتصلت من بغداد، طلبت بعض الأدوية للضغط والأعصاب والقلب وقطرات العيون لأمك، الظاهر حتى القطرات غير موجودة عندهم حصار...!
انقطع الخط لكن الحمد لله بعدما لحقت تقول لي كل شيء.

غمزت بعينها إلى سامي مشيرة إليه إلى الامتناع عن الشرب، لم ينبس هادي ببنت شفة، اتجه نحو الزجاج، ملاً قدحين كبيرين، قدم الأول لصاحبه، اعترض سامي، أصر هادي على تناول كأسه، شربه كله مرةً واحدة صارخاً في هذه المرة بصدق:

- والدته ماتت! والدته ماتت! والدته ماتت! أي قطرات هذه؟ والدته ماتت! أي أم هذه؟ والدته ماتت! أي عيون هذه؟ والدته ماتت!

حاول الجميع تدارك الموقف واحترار زوجته، شعرت المرأة الروسية بالإحراج، بدأت تلوم زوجها، قالت لهادي كلمات مواساة، عبثاً أراد سامي أن يغير الموضوع، واصل هادي هذيانه كأن نوبة هستيرية قد انتابته، عثرت قدمه فجأة بلعبة من لعب الأطفال، سقط، أخذ يرفس برجليه ويضرب لعباً أخرى كثيرة في الأرض، حاول النهوض، وقعت على رأسه أصيصة الورد، صرخ وبقي يضرب بقدميه بينما كانت زوجته تمسك به قائلةً بهدوء:

- هادي! هادي! أقعد، أقعد صارت الساعة الثامنة إلا ربع! لازم تلحق تروح للشغل! الظاهر كان عندك كابوس، كنت تحكي وأنت نائم! اقعد، وقتك قليل!

Denmark 1995

* نشرت قصة "لقاء في مكتب اللاجئتين" في صحيفة الزمان بتاريخ 03 كانون الأول 2003

حكم الإعدام*

حدث ذلك قبل ان يدخل إلى دائرة عمله. همس زميله في أذنه كلمات غير مفهومة، تركه مسرعاً متجهاً نحو غرفة أخرى.

دخل آدم إلى مكتبه، جلس امام منضدته، أخذ يفكر بكلمات زميله:

- بعد يومين راح يعدمونك، اهرب، الله يخليك لا تذكر سيرتي على طرف لسانك، انا فكرت أن اساعدك وبس.

"يبين هذا حلمان! صدق؟ كذب؟ أي إعدام هذا الذي يتحدث عنه؟" وقبل أن يياشر عمله قرر أن يخرج من غرفته، اجتاز الممشى الضيق متجهاً نحو الممر الواسع المؤدي إلى خارج البناية. لاحظ أن الجميع يراقبه، بعضهم يتهامس مع نفر آخر من الناس يقفون في الممر.

قال لنفسه "كلام يعقوب صحيح، الماء يجري من تحت رجلي وأنا لا أدري"، لكن كيف يعدموني وانا لم اعمل شيئاً؟ وبدون محكمه؟ والله لا أعرف، يمكن حصل شئ خطأ في الموضوع، قد يعتذرون عنه فيما بعد وتُعاد لي سمعتي، يُحشى ان يصححوا الحكم بعد تنفيذ الإعدام بحقي!" ابتسم متمماً "ألم ترد الانتحار مراتٍ ومراتٍ، لكنك غيرت رأيك لجبنك وجبنك للحياة الزائلة؟ قد يكون أحدهم يشبهني ومحكوم عليه بالإعدام، تصوروني أنا المتهم!

او انهم قرروا إعدام كل واحد يشبه النسخه الاصليه". ماذا تقصد؟ يعني انا فوتوكوبي؟ "ياللعار! حتى هنا لست أصلياً؟ تفو عليك يا وجه النحس!"

ياترى ماذا سيفعلون إذا كان هناك اربعون إسان يشبه الاصيلي؟ ألم يقل المثل الله يخلق من الشبه أربعين؟ ماذا سيفعلون عندها، هل سينفذون حكم الإعدام بالجميع؟ وماهو المانع؟ بيني وبينك... أفضل، ياليت لو يخلصونا من هذه الدنيا. إي صحيح، بس تنفيذ حكم الإعدام بالجميع يكون أهون، على الأقل الواحد ما يموت لوحده. قال كلمته الأخيرة مهدتاً نفسه، وأردف محتجاً على أخيه، الواقف إلى جانبه فجأة:

- يا أخي من أين جئت بهذه الإشاعات؟ انت فعلاً حمار، وأنا كنتُ اتصورك اعقل منهم، طلعت أغبي من الحمار... ولو أن الحمار أطيب من الإنسان، صابر وصادق... و...

قبل ان يكمل حديثه جائته لطمة على رأسه من أخيه:

- جاسوس!! اطلع من هنا.

- الله يسامحك!

خرج الأخ الصغير بعد ان لبس نظاراتٍ سوداء، غيّر تسريحة شعره، أُعجب بنفسه وبالodor الجديد الذي يقوم به. من يدري قد يكتشفه أحد صانعي الابطال في هولي وود، من يعلم؟ فقد تصح حقيقة تهمة التجسس هذه، عندها "سيسافر" إلى السي. أي. أي وينتهي الأمر. كل شيء ممكن في هذه الدنيا.

يمشي "الجاسوسُ المنتكرُ" بنظارته السوداء في أحد شوارع المدينة الغاضبة مطمئناً قليلاً، ترك شاربيه يطولان، أجرى بعض "التعديلات التنكريه" على وجهه، فوجى بخبر منشور في الصحيفة، مطبوع بخط عريض مانثيت: "القبض على رئيس أكبر شبكة تجسس خطيرة في الشرق الاوسط وشمال افريقيا"، غمرته الفرحة، سيحصل على رواتب كبيرة، "يا إلهي، مدير شركة، العفو اقصد شبكه مرة واحده، كله نفس الشيء شبكه هي ايضا شركه، ياسلام، خلاص، انتهت المتاعب، سفرة واحده من خلال الحدود مع قطع الغنم والبدو، ومن هناك إلى العالم الحر واستلم الاموال! هههه! وبعدين أسدّد كل الديون القديمه والجديده، السابقة واللاحقة بالأموال الماحقة! فجأة صُدم صدمةً كبيرةً جائته كالصاعقة. وجدّ تحت تفصيلات الخبر في صفحة المحليات صورة أخيه وإلى جانبه بضعة أجهزة إلكترونيه صغيرة، جهاز تسجيل وفاكس وماكينه استنساخ، كُتب تحتها عميل الإمبرياليه مع ادوات التصوير والإنصات!

اندهش، أراد ان يتفوه بشيء، تملكه إحساس أن لسائه عُقد، اكتفى بشراء الصحيفة وانجّه مسرعاً إلى غرفته الصغيره، وشعور الألم يعذبه لأسباب لا يعرفها بالضبط، قد يكون لمنافسة أخيه على هذا المنصب الكبير! هههه!

أخذ يقرأ الخبر كله، وفهم أنّ محكمةً ستُشكّل اليوم لمحاكمة الجاسوس الكبير الذي اعترف باستلامه مبالغ طائلة من الجهات الأجنبية مقدّماً أسماء باقي الخونه وستُوجه له تهمة الخيانه العظمى ويُحاكم هو والآخرين محاكمةً عادلة وسينفذ حكم الشعب بهم. أنهى القراءة.

قال لنفسه "إذن انت الجاسوس الحقيقي يا شقيقي! كنتَ تعيّرتني بالتجسس. "فكر أن يذهب الى المحكمة ويجلس على أحد المقاعد الأمامية. سيرى أخاه ويذكره باتهامه إياه وتنكره له. "والله يا زمن، والله يا زمن، هكذا تدور دوائر الدنيا".

يجلس "الجاسوس الصغير" في الصف الاول من مقاعد المحكمة. ينظر إلى أخيه "العميل الكبير"، يحلف بأغلظ الأيمان بعدم معرفته بأي شبكة تجسس.

لم يصدقه أحد. نطق القاضي حكم الشعب النهائي بالشنق حتى الموت على العميل الكبير. نهضت مجموعة شبان بدأوا بالهتافات الحماسية: يسقط! يعيش!

سمع أحدهم يهمس لجليسه: "في الحقيقه هو فعلاً حكم عادل لئلا يغتال الجاسوس الاصلى، الله يخلق من الشبه أربعين، الله غالب". تساءل الجاسوس الصغير بين نفسه وإذا كان الشبه ستين أو تسعين، فماذا سيكون الأمر؟ ضحك. سيقتلون بعد أيام ليس أكثر.

قال لنفسه "كل شئ متوقف على المخابرات وقدرتها على التصدي للمؤامرات والقبض على المتآمرين الستين او التسعين" ضحك مع نفسه مرة أخرى، وقرر الإسراع في السير والاختفاء عن الأنظار "فإن عيون الثوره ترصده في كل مكان".

الجماهير غاضبة أشد الغضب، رأى فرقة شرطة يحميها لواء عسكري مدجج بالسلاح داهم شاباً نحيفاً يبيع المأكولات في عربة صغيرة. "بالتأكيد راح يحكموه بالاعدام"، قال ذلك رجل طاعن في السن، وسمع آخر يهمس لصديقه، "شاب فقير مسكين، مجرد كبش فداء، حائط واطيء نصيص!" ههه!

فكر الأخ الصغير "يبدو أنه واحد من الأربعين حرامي، بالمناسبه أين علي بابا؟ معقوله؟ يوجد أربعون حرامي بلا علي بابا ومن يدري؟ قد يكون هو الجاسوس الحقيقي وأنا المزور!"

ضحك مرة أخرى. حمد الله على هذه القصة الطريفه متذكراً الجاسوس الحقيقي سواء كان علي بابا أو غيره، إن أخذوه فقد يتكونه لحاله. نفس الشئ يمكن ان يحدث لأخيه الأكبر، من يدري؟ قد يُعدم ثم سيعتذرون لزوجة أخيه ويعوضونها، لا بأس! المهم خيرها بغيرها، عسى أن تكررهما شيئاً وهو خير لكم. سمع أحد الواقفين يقول:

- مسكين، فقير، هو والتهريب شنو علاقته!
ذهب "الجالسوس الخطير" إلى بيت أخيه، فتح الباب، دخل مسرعاً، جلس في إحدى الغرف.
أحد الأطفال اكتشفه رغم التنكر.
- عمو ليش لابس نظاره سوداء؟
- عمو ضد الشمس
- عمو انت قبل ماكنت تلبس نظاره سوداء!
- عمو صار عندي حساسيه بعيوني هذه الأيام
- عمو بس في البيت ما عندنا شمس
- عمو، صحيح، والله نسيت، راح انزعها.
خلع النظارة. بعد لحظات سمع طرقة على الباب. شعر برجفة تسري في عروقه، سمع صوت زوجة أخيه تقول:
- آدم في البيت، قاعد هناك.
"يا ترى تُكلمُ مَنْ هذه المرأه؟ صوت غريب! وماذا يمكن ان أفعل الآن عندما يدخل الرجل الغريب والغرفة كيف لي الهروب من اربعة جدران لا منفذ فيها؟ مصيبة! وقعت فيها". وقف خلف الباب خائفاً.
دخل أخوه إلى الغره صارخاً بالأطفال المندهشين. "يالاه من عم هذا، لم يطالعوا في وجهه البهجة والابتسامة مرةً واحدةً منذ عرفوه حتى اللحظة، وفي هذه الأيام الأخيرة يبدو ان امره صار فعلاً مثيراً للعجب والشفقة". فكرتُ بنت أخيه العبقرية.
تلازم بنتُ الأخ حجرتهما في الطابق الاعلى، تقرأ وتقرأ ليلاً نهاراً وفي النهايه نتائج امتحاناتها فاشله! الله يكون في عونها، كل الأربع وعشرين ساعة: عين بالكتاب وأخرى بالشباك.
- يله اطلعوا من هنا، اللعنه عليكم وعلى امكم وابوكم.
خرج الاطفال وكاد آدم الجالسوس الصغير يغمى عليه من المفاجأه!!

- لكن كيف يا أخي كلهم قالوا إن حكم الاعدام نُقِّد بك، كيف حصل أنك
مازلت... ححيحاً، العفو اقصد أنا غير فاهم الأمر، عفوا عنك؟ إذن انا ايضا سيعفون عني..
- فضحتنا، الله يفضحك!

قال عبارته رامياً الصحفيه بوجهه. فوجئ آدم بأمر الجريده، فتحتها، وجد فيها صورته محاوراً أحد
الصحفيين الاجانب، وصورة أخرى قالوا إنها له وهو مختفٍ بنظاره سوداء وقبعهٍ ومعطفٍ،
نُشرت ضمن خبر مانشيت عريض: الإمساك بقائد شبكة التجسس المعاديه للثوره. أراد أن يقرأ
بعض التفاصيل إلا ان اخاه لم يتركه:

- كيف تفضحنا؟ ماكان ناقصنا إلا تهمه التجسس، نحن عائله شريفه وعفيفه ومعروفه بين
الناس، كيف توسخ سمعتنا.

- أخي، أي تجسس تحكي عنه؟ أنا لا أعرف أي شيء!
- تضحك عليّ؟! وآلاف الدولارات التي استلمتها، هل كان ذلك بدون مقابل أم تظنها على
سواد عيونك؟

آخر تقرير كتبتّه عن وزارة الدفاع حصلت عليه أكثر من مائة ألف دولار..
قاطعهم آدم ساخراً:

- دولارات اميركيه ام كنديه؟ أخي انا مندهش لهذه المعلومات! حتى الصحف لم تنشرها،
الظاهر الماء ينضح بما فيه، والمثل العراقي يقول اللي "بعينه طلي يجمع..."،
- لم افهم قصدك، الله يخليك اشرحه لي! نورنا يا ابو العريف! ههه!
- يعني الذي يسرق نعجةً أو حولياً صغيراً ويخبأه في حجره أو حضنه "عبه" تحت ثيابه لا بد
وأن "يجمع" ويفضحه، جبل الكذب قصير! فهمت؟

وقبل ان يكمل لطمه على عينه اليمنى، والشرر يتطاير من عينيه، كأنه كلبٌ مسعور، تذكر
ذلك الكلب "المكلوب" الذي حاول عضه في طفولته، ظهر إليه فجأةً من بين أجمات
وأحراش غير مرتفعه، كان اسود اللون، سمينا، هجم عليه، اراد أن يقضم لحمه من جسمه، فحش

ملايسه، ابتعد عنه قليلا، تمالك نفسه، حاول تهدئته، تجاوب الكلب معه، تراجع قليلا، لكمة أخرى في رأسه، يضربه ويقرعه.

- آخ، آخ، يا الله! ليش تؤذيني، انا أخوك يا رجل..

- اهدأ، اهدأ، الظاهر البارحة كنت مكشّف وحلمت كثير، الساعه صارت التاسعه!!

انتبه إلى صوت صديقه، تحسس رقبتة، تلمس عينيه، جال بنظره نحو زوايا الغرفه كلها، تأكد ان كل شئ مما رآه لم يكن حقيقة "ياإلهي، ياللفرحه".

* نشرت قصة حكم الإعدام في صحيفة الزمان بتاريخ 27/26 كانون الثاني يناير 2002

موعد ترجمه

جلس متنفساً الصعداء! شعر بالراحة بعد فترة صاخبة. كان المقعد وثيراً، كأنه يجلس في قاعة نظيفة، "حلال الأكل لكم" قال لنفسه.

انتبه إلى رجل كبير السن يجلس على أحد المقاعد، تقدمت منه امرأة متأنقة، تبدو من تجاعيدها أكبر عُمرًا منه، سألته فيما إذا كانت مقاعد هذه العربة من الدرجة الأولى، ردّ عليها بالإيجاب. حمل صاحبنا حقيبتَه اليدوية، نهض متوجهاً إلى أماكن الدرجة الثانية. في العربة الأخرى حيث انتقل ليجلس، جلبت انتباهه عجائز أنيقات، نظيفات، تفوح منهن عطور طيبة، أسنانهن ناصعة البياض.

إحداهن تعتمر قبةً رصاصيةً، ترتدي سترةً جلديةً رصاصيةً اللون، ذات وجه دائري وعينين زرقاوين، مصفوفة الأسنان من الأمام على خط واحد، انتبه إلى العجوزتين الأخريين، تتحدثان بوقار وتبتسمان بهدوء. تمعن ملابسهنّ وتناسق ألوانها.

اليوم جمعه، يا ترى إلى أين يذهبن في هذا الصباح؟

الطقس باردٌ اليوم، لكن الشمس تشرق، تسطع أحياناً، باستحياء. تذكر "خيوط شمس آذار الذهبية" مبتسماً.

"هذا يوم عجيب غريب!" قال لنفسه متابعاً حركاتهنّ وإيماءاتهن، "اليوم مو يومي، كل شيء فشل". تتأب بصوتٍ مسموعٍ، انتبهن له، نظرن إليه متعاطفات متفهمات مبتسمات، ابتسم هو أيضاً لهنّ معتذراً وازعاً يده اليمنى على فمه مغطياً إياه، رغب أن يقول لإحداهن "عفواً" أو شيئاً ما آخر، نظرأها متفهمة، كنّ ودودات معه، يوزعن الابتسامات بين حين وآخر.

أراد أن يستوعب ماذا حدث له بالضبط في الساعات الفائتة، أغمض عينيه محاولاً إعادة المشاهد: أمس في الليل غلبه النعاس، في الثانية بعد منتصف الليل، ومع ذلك استفاق كعادته مبكراً، لم يأخذ كفايته من النوم، تناول فطوره، شرب الشاي، أعدّ حاجاته، حمل حقيبتَه اليدوية، خرج إلى الشارع متوجهاً إلى سيارته، تذكر مفتاحها، أين وضعه؟ الظاهر أنه نساه في

البيت، عاد الى داره، بحث عنه في كل زواياه، لم يجده، اتصل بزوجته، إنها في مكان عمله، المفتاحان موجودان في حقيبتها، نَسْتَهْمَا يوم أمس، هذا ما قالته له، ماذا تفعل؟ "ولا يهملك حبيبة قلبي أنتِ، نَسَيْتِ وانتهى الأمر"، بينما فَكَّرْتُ بيني وبين نفسي "هذه ليست المرة الأولى ولا الأخيرة، النساء عكس الرجال يتمكننَّ من إنجاز عدة أمور في وقت واحد! هكذا يزعمن، ويثقن بادعاءهن! لكنهن ينسِينَ أين يضعن الأشياء، ويضَيِّعنها!

ماذا سيفعل الآن بمواعيده؟ يا إلهي، اتصل بالمكاتب، الساعة الثامنة والرابع، لا أحد يرد، هرولاً، انتبه الى التلفون المحمول موتوريلاً، لم يشحنه يوم أمس، كأنه مسدس بلا رصاصات، لا بأس، ليحمله معه، هكذا فَكَّرَ، أو، بالأحرى لم يجد حلاًّ آخر، خرج مسرعاً، ساقّ دراجتَه نحو محطة روسكيلده، ركنها في مرآب الدراجات، قفلها وركضَ باتجاه طريق رقم 7، أين قطار هيلسينجور؟ فوجيء أنه أُلْغِيَ! يا إلهي، حتى أنت يا قطار هيلسينجور، اتجه الى خط كوبنهاجن، هناك في طريق 4 أو 5.

في محطة قطارات كوبنهاجن الرئيسة توجه الى مكتب الاستعلامات، جائته امرأة من غرفة في الداخل، قميئة تعشق عملها كما يظهر:

- أرجوك ان تساعدني، لدي موعد الساعة العاشرة في بلدية أَلِروود، ماهو أقصر طريق؟ اليس عليّ الذهاب إلى هيليرود؟

ألقت نظرة على نشرات مواعيد القطارات والحافلات، قالت بهدوء:

- اسمع، عليك ان تسرع الآن الى خط رقم 10 حيث سينطلق القطار المحلي الى هيليرود، ..

- لكنه بطيء، أليس هناك خط آخر؟

أجابته باقتضاب، شفتاها صغيرتان، "لمومتان" في إضمامة غريبة التكوين، كلّها نشاط وحيوية، تمنع فيها، ضعيفة كأنها يعسوب نحيف ونشط، "مغزل داده"، كما يسميه العراقيون ساخرين. تتوسط المكان كأنها تقف في منزلها، تسيطر على كل التفاصيل، من الواضح أنها من جماعة "العمل عبادة"، انشغلَ بها! يُفَكِّرُ مليّاً بها.

تضايقت من نظراته، لم يكن يحس أنه يتطلع فيها بإمعان، قطعت عليه سلسلة أفكاره، تحيلها تقول له: "اغرب عني، ورتني عرض كثافك! نزل ويدبك في السطح! يعني: شحاذ ويشارط!"، يبدو أنها أرادت ان تتخلص منه، قد يكون أزعجها بعينه الساهمتين في وجهها دون قصد أو سوء نية، حسمت الأمر كما لو أنها توجه طفلاً صغيراً شارداً أو مشاكساً:

- أسرع إلى خط رقم 10 إن كنت تريد الوصول إلى هيليرودز ومنها تعبر أو تأخذ حافلة إلى أليروود بدون تأخير، بسرعه!

- شكرا

قالها راكضاً نحو خط رقم 10

فتح عينيه، انتبه الى ان إحدى العجائز تشبه خالته، في الحقيقة خالة امه، "حليمة"، يدلعونها منذ صغرها، يسمونها حلوم، لماذا كانوا ينادونها خاله؟ لا يعرف.

كانت أمه تدعوها خاله، وتنادي ام خالتها "هدية": جدتي، قالت جدتي، راحت جدتي، إذن لماذا يناديها الأبناء أيضاً خاله؟ المفروض ان تكون بمثابة جدتهم، أليست هي أخت جدتهم لأمهم، يعني إذا كانت حقاً خالتها، أليس كذلك؟ جواب وجيه لسؤال محير! وكد إريكاً لديهم، لدرجة أنهم فكروا أنها لا خالتها ولا هم يجزون، كما تصوروا.

هم عشرة أطفال، سبع بنات وثلاثة أولاد، مشغولون بالدراسة يومياً ولا مجال لديهم للتفكير بهذا الأمر. كل الذي يتصوره أحياناً، أو يحس به، أنه اعتقد أنها أصلاً لم تكن حتى خالة أمه، كانوا يحبونها ويفرحون لزياراتها النادرة، تأتي لمساعدة أمهم في الولادات وعند مرضها. والدتهم تطير من الفرح عند قدموها إليهم، أما إذا كانت تأتيهم مع والدتها "الجدة الكبيرة" تعم بهجة خاصة دافئة في منزلهم.

في كل مرة يسألها أبنائها عن جدتها، عرفوا اسمها فيما بعد "هدية"، تطول خيوط القصص، تتشابك و"يحترق الفيلم". تداري الأم موقفها قائلة في كل مرة هازةً يدها:

- يمّه شليله وضايح راسها، من كنت صغيره، أقول لها جدّه، ولا بنتها خاله! هذه هي القصة.

عندما كبروا فهمَ الأمر، حكاية قديمة فيها غموض طفيف تحوّل إلى شبه سر، سأل والدته مرةً عن العلاقة، قالت له أمّه، "نعم، طبعاً جدّي "هديّه" تصير والدة أمي، بعد وفاة زوج جدّي الأول في الحرب التركية، يقولون قبل الحرب العالمية الأولى تزوجت رجلاً آخر، ولدت منه "حليمه" خالتي، اخوه الصغير تزوج المرحومة والديّ، يعني خالتي تصير أخت أمي من طرف الأم بس، لكن من أب آخر هو أخو والدي، يعني هي خالتي وابنة عمي بنفس الوقت، لهذا هي مثل خالتكم"، اندهش، لم يفهم، كتب الأسماء على ورقة، ليستفسر من والدته، أجابته: "باختصار، "هديه أم أمي، تزوجت صمد بعد وفاة زوجها الأول، ورثت أخويه الصغيرين، أحدهما كبر وتزوج بنتها من رجلها الأول اللي هي أمي "فاطمه"، يسمونها "فطوم"، أخوان: الكبير تزوج الأم (جدّي) والصغير تزوج ابنتها (أمي) فيما بعد! هذه هي القصة!"

أعتقد أنهم لم يحبوا الخوض فيها كأنها سر غير مرغوب فيه لغربتها! الأم وابنتها من زوجها الأول المتوفي تتزوجان شقيقين! أمرٌ نادر! أليس كذلك؟

كانت "هديّه" نظيفةً مريحةً هادئةً، مسنّةً، في التسعين من عمرها كما يعتقدون، قد تكون ولدت قبل نهاية القرن التاسع عشر بعقدين، تهتم بنفسها كثيراً، تقضي حاجاتها لوحدها، كان جدّه لأبيه يصير على أن عمرها قارب المائة عام، يقول عنها غيرّةً منها:

- رَجَلُهَا كان يحارب وي الاتراك وآني كنت وليد صغير، وهي كانت حامل بيكرها ...

لم تكن لتبالي بأقوابله، تتضايق منه، كانت وديعة كأنها قطة صغيرة ملوّنة العينين، مشغولة بحالها، الغريب أن كلامه قد يكون صحيحاً، لكن لا أحد يريد أن يصدّقه تعاطفاً معها. لديها "صندوق الولايات"، أسود كبير، مرصّع بمسامير معدنية أو فضية، مليء بالحاجات القديمة، في ذاكرتها قصص العراق من جنوبه إلى شماله، تسردها عندما يطيب خاطرها، غالباً ما يكون ذلك في حضور الوالد أو عندما تخرج من الحمام وتنتهي من زيتها وهي تفرك عينها بمنديلها المدعوك، وتمسح بقايا وجنتيها بقشور برتقالة تأكلها جالسة تحت شمس الشتاء.

ابنة الجدة، خالة أمّه اسمها "حليمة" يدلّعونها "حلّوم"، لم تكن كذلك، خجولة ومتواضعة، لا تتحدث إلا عند الضرورة، كانت أحياناً تشجع أمّها الجدة الكبيرة على سرد الحكايات، "على

أساس هي لبقة! "ههه! تبتسم لها، تضع أصابعها على ركبته، تستفسر منها بعض التوضيحات، هكذا تداري خجلها، لا بدّ أنها كررت هذه المحاولات أكثر من مرة عندما تكونان لوحدهما وتدربت على هذا "الدور" كأنها مقدمة برنامج! وصارت اليوم تتجرأ على إعادة الكرة أمام الآخرين، "متمنظةً" كأنها تجلس على خشبة المسرح، متجاوزة حدود خجلها المستدام، يشعر المرء بأنها امرأة مسكينة، مسلوية الإرادة، مقهورة ومظلومة.

كانت خالته أمّه، مسكينةً جميلةً، بيضاءَ البشرة عيناها زرقاوان، وأسنانها ليست مصفوفة من الأمام صفاً واحداً، تحيلها جالسةً إلى جانب عجاج القطار الأوروبيات، ملابسها تختلف تماماً، شيله سوداء، ثوب طويل غامق اللون. دائماً. هناك قصص خاصة بها لا يعرفها الصغار، عرفوا فيما بعد أن "بعلها" تزوّج عليها في عز شبابها و"تركها مكسورة الخاطر كالليمونة المعصورة، رماها كخرقة بالية، بينما تفرغت هي لأبنائها ووالدتها الجدة الكبيرة وأحفادها" كما يقولون، هذه هي قصتها باختصار!

منذ ذلك الحين لم تر الراحة، وطبعاً لم تركب قطاراً في حياتها! كانت إحدى العجائز تضع شالاً مزركش الألوان على ظهرها، تتطلع حوالها مبتسمةً، خالته تلف رأسها كله بالشيله، أو الفوطه، لم ير شعرها مرة واحدة، لا، لا، رأى أحياناً أطراف شعراتها الحمر الجانبية تخرج من حواف الشيله، كانت تشدها بقوة كأنها تحشى شيئاً يتسرب من رأسها، تقول يصيبها الصداع إن لم تربطها ربطاً محكماً.

هذه العجوز الجالسة أمامه لا تربط رأسها بشالها. تضعه على كتفيها يغطيه قليلاً شعرها الأشقر الطويل، بالتأكيد أنها لا تعاني من الصداع، لو كانت لديها مثل هذه المشكلة لربطته بشيلة خالته. هكذا فكّر مبتسماً! كلام فارغ! هراء!

تحيلها ترمي شالها المبهرج من على ظهرها، وتشد رأسها بعصّابة، "جرجعد"، أسود مذيّلاً بشراشيب ولبرات ذهبية للزينة تتدلّى "داير مداير" الرأس والوجه الأبيضان المنوّر. رمقها بحدوء من خلال عدسة كاميرته، التقط لها صورةً دون أن تحس به، التقت نظراتها به عندما كان يتطلع إليها، أنعم النظر في صورتها الملونة بعد تحميضها وتثبيتها في المحاليل حيث وضع ورق الصور،

وجه أبيض دائري، عينان زرقاوان، شفتان مبتسمتان يلقّنه من فوق "جرغد" أسود سنّ يلمع كالحرير، تتحرك حوله شرشيب خيوط البريسم كالأجراس، تتدلّى كما هي في شجرة الزيزفون عندما تزهر، مختلطة أحياناً بمخصلات شُقر، ذهبية صغيرة متسربة من تحت، غطّى الجرغد رقيبتها وصدرها أو "جيبها"! بصراحة صورة جميلة، قلبها متمعناً بها، آية من الجمال، لا فرق في الأمر، "خالته" أيضاً زرقاء العينين، أو خضراء، لم يعد يتذكّر، بيضاء البشرة، لكنها لا تتكلم وتخشى على نفسها من ابتسامتها أو حتى مجرد بشاشة طفيفة ولسانها وشفتيها، غطاء رأسها، تعدله باستمرار خوفاً من سقوطه. إنه "جرغدها"! حاول أن يتذكر أصل كلمة "جرغد"، تبدأ بحرف ج، لم تسعفه ذاكرته، الأرجح أنها فارسية أو كردية، وفكّر، يا ترى "شيله" كلمة عربية ام إنجليزية الأصل: شال؟

خالة أمّه وبنّت عمّها في الوقت نفسه بسيطة للغاية! تجلس ساعات ولا تنبس بنبت شفة كما يقول القصاصون، أما اذا كان زوج التي تسميها "خاله" حاضراً فإن الصمت يصير صمتين. لم تتكلم إلا إذا سألها عن الأيام الغابرة، تجيب بخجل، مرّة تضع يدها على حنكها، وأحياناً اخرى تغطي فمها بطرف شيلتها، ترتب ثوبها الأسود الطويل، تمرر يديها على اطرافه طوال الوقت، تغطي جسمها ببلوزها الأزرق الغامق. تسترّ نفسها! يسألها الوالد عن ايام زمان، والأقارب، يريد أن يحادثها، يحيطها بالمودة. تتجاوب معه باستحياء وحذر مرتبةً شيلة رأسها بين الفينة والأخرى. حركات روتينية متكررة على طوال الوقت! كانت خجولةً، تقطع ضحكها دائماً وأبداً واضعة يدها على فمها. يسترق الأطفال النظر الى اسنانها مرة او مرتين، لا يزال يتذكرها، إنها تشبه اسنان العجوز الشقراء الجالسة قبالة لكنها ليست كخالته، لا تخفيها بكف يدها، تبسم له عندما تلتقي نظراتهما. من يدري قد تكون اسنان هذه السيدة مركبة، بجوز، "خالته" لم تعانٍ من آلام أسنانها، لكنها كانت صفراء مهترئة. في حدود علمه.

لم يشغلها شيء غير أمها، الجدة الكبيرة، ماتت فيما بعد وبقيت مشغولةً بقصصها، وأبنائها وبناتها وأحفادها، وإن ارادت ان "تغيّر الجو" مثل عجائز القطار فإنها تذهب "تسيّر" إلى ابنتها، لتعني بأبنائها، او عندما تضع أمه مولوداً جديداً، تبقى عندها عدة أيام.

خفيفة الظل، مسكينه، طيبه، لا يُسمع شيءٌ مكروهٌ منها. لكن أين كانتا تسكنان هاتان العجوزتان؟ خالة الأم ووالدتها "الجدّة الكبيرة"؟ انشغل بهذا السؤال وفكّر أن يطرحه على والدته بالتلفون اليوم مساءً. سيسفسر منها بالتأكيد عن قصة حياتهما. سيسألها كيف حصل ذلك؟ أن يتزوج الأخ الكبير الأمّ الأرملة، بينما يكون شقيقه الصغير من حصة بنتها؟! "هاي اشلون دبرّتها الجدّة الكبيرة؟" يا ترى هل هي صفيقة؟ أم فعلاً أحبّبا بعضهما بعضاً؟ كل هذا من "جوّه" رأس الجدّة الكبيرة! ههه! ستضحك منه والدته، ستقول له "مالك وهذه القصص القديمة يا ابني؟".

وتخيّل جدّة أمه، عندما كانت أرملةً سابقاً، في نهاية القرن التاسع عشر ثم عاشت مع زوجها الجديد وابنتها في بيت صغير وقديم، لا بدّ أنه كان طينياً، وكان أخ زوجها، "حماها" صغيراً رثمه على يديها بنفسها، حتى صار شاباً يافعاً في السادسة عشرة من عمره، يعمل في البناء والتجارة، ساعدها في تشييد غرفة أخرى، لكنها من الطابوق بسقف جديد مدعم بالأعمدة الخشبية، وكانت ابنتها تصغره بثلاث سنوات، تنظر إليه مبتسمةً بإعجاب، لاحظت الجدّة الكبيرة ذلك في عيني ابنتها. بالتأكيد أنها انتهزت الفرصة، أعدّتها لتقبله ويكون شريك حياتها قبل أن تبلغ الثامنة عشرة! هكذا كانت الأمور تتم ببساطة!

يا ترى إلى اين يذهبن، العجائز المتمدنات في هذا الصباح الباكر البارد؟ لكن أيّ برد هذا؟ يرتدين ملابس صوفيةً ومعاطفَ نظيفةً مريحة، القطار دائي، يتحركن حسب المواعيد وأوقات الحافلات والمواصلات. كل شيء هنا مضبوط ومضمون بالدقّة والأمان!

يتكلمن وهنّ يوزعن الابتسامات، إحداهن همست في أذن جليستها، ضحكت الأخرى في صوت عالٍ.

يا ترى ماذا قالت لها؟ لا أحد يعلم. قد تكون أخبرتها عن شيء قديم، عن أيام زمان، لا بدّ ان

لهن قصصاً مشتركة كثيرة. عن الحب مثلاً أيام الشباب. نعم، الظاهر أنحن صديقات طفولة. "خالته" نادراً ما كانت تضحك بصوت عالٍ، على الأقل لم يرها يوماً تهمس مبتسمةً، ممكن أن تقول شيئاً ما مضحكاً لوالدته، لكن بجذر وخجل. صحيح هي ابنة عمّها، لكنها خالّتها أيضاً، أكبر منها سنّاً ليست من جيلها، مع ذلك غريب أمرها!

نزلن من القطار بعد توقفه في المحطة. العجائز الأوروبيات اصطحنَ الخالة، بقي "حفيدُها" جالساً لوحده في القطار يراقبها من بعيد وقلبه عليها، حزنَ لرفاقهن وقلقَ قليلاً عليها، كيف ستواصل خالته معهن؟ بأية لغة ستكلمهن؟ تسير معهن متلفتةً إلى الوراء كأنها خائفة مذعورة، طمأن نفسه متمتماً "ماكو مشكله".

أجل، أخذن "خالته" معهن فرحاتٍ بها، لاحظن أن إحداهن ترجوها أن تعيرها فيما بعد "شيلتها" السوداء، مانعت الخالة خجلة لا تعرف كيف تتصرف، لم تفهمها بالضبط، بل تظاهرت بذلك، اقتنعت بالتدريج وهي تحرك يديها موافقةً هازئةً رأسها، اتجهن نحو مقهى المحطة، تتطلع الخالة إلى المكان بجذر، مبتسمةً كأنها مبهورة بنظافته، لم تعلم ماذا تعمل، ظلت واقفةً بينهن غريبة حائرة، لا تدري كيف ستجلس على الكرسي وتضع قدمها على الأرض مسترخيةً، ظلت واقفةً حائرة، جاءتها "صديقتها" الجديدة العجوز الشقراء، تلك التي رجتها أن تعيرها "الشيله" لتراها، احتضنتها وأجلستها إلى جانبها. تخيلها تروي كل هذه التجربة لأمه، تأخذ راحتها وتضحك معها بصوتٍ عالٍ. تمون الخالة على ابنة أختها وتثق بها، إنها ابنة عمّها أيضاً، أمر غريب!

تذكرُ أمراً مهماً، عاد لوعيه فجأة، جرت الاتصال بمكتب الترجمة، لا يزال في بطارية الهاتف المنقول دقيقتان أو أكثر قليلاً، عليه أن يقول، بل يسرد كل شيء في ثوانٍ. سيشرح لهم البلوى، رنّ الهاتف.

- مرحباً! أنا متجه الى هيليرود بالقطار، سيارتي عطلت، لن أذهب الى الأماكن الأخرى، بطارية الهاتف بلا شحن، سأتأخر

- أوكي، سأرتب كل شيء، اتجه الى هيليرود، لكن

ردّت عليه سكرتيرة مكتب الترجمة، انقطع الخط قبل أن تنهي مكالمتها، انتهى شحن بطارية هاتفه، ماتت الشاحنة! تنهّد بعمق، أغمضَ عينيه مرتاحاً بعد أن هدّأته السكرتيرة متفهمةً وضعه. وصلت الرسالة!

بقي وحده يفكر بخالته مع العجائز الأنيقات الشُّقر، وجه أبيض أصفر شاحب، ناحل، عينان مدورتان غائرتان، حركات يدها المستمرة، تمسح وجهها، تفرك عينيها، ترتب شيلتها. سيهتَمَنَ بها وستعلّمهن العَزَل وكتابة الحروف العربية، نعم، تعلمتها في الكتاتيب، تكتب وتقرأ قليلاً، هذا ما سمعه من والدته في صغره، ستتذكر الحروف وإن نسيها منذ زمن طويل، ستستعيد الثقة بالنفس والاطمئنان، ستعود لها الحياة وستكون طبيعية، العافية بالتدريج! ستنسى التردد والخوف وستضحك معهن بصوت عالٍ دون أن تغطي فمها بكف يدها، لا يهم أن يرى الناس هنا شفيتها وأسنانها حتى لو كانت عجوزاً، سيسألنّها عن الحب الأول في حياتها، ستتلقت ميمناً ويساراً قبل الإجابة، لكنها ستتجزأ هنا في هذا البلد الآمن، تشير بسبابتها إلى قلبها، تحرك يدها إلى الوراء عدة مرات، ثم تضغط بها على قلبها وترفعها على شكل رقم واحد. فهمنَ منها الفكرة، رددن: آهاا: "وما الحب إلا للحبيب الأول!" اندهشن! يقولنَ لها وهن يفتحن عيونهن الجميلة معجبات ومشجعات "أووو! واو! واو!"، وسيزيدنَ من طلباتهن، يرجوّنّها أن تكتب لهن كلمة بعد أن رسمن قلباً أحمر اللون على ورقة بيضاء، تتشجّع، تكتب لهن حرفين: حب! يحتضنّها والسعادة تملأ قلوبهن، يأخذنّها معهن، يتفاهمن بالإشارات والإيماءات، وينشغلن بها كأخن صبايا صغيرات، تمشي معهن ببلوزتها السوداء الطويلة القديمة "القسطول"، متهرّثة قليلاً، نظيفة، غير مبالية، مفتخرة بعصابتها السوداء!

سألنها عن زوجها، أشارت بكفيّها علامة الرفض وعدم الرضا هارّةً رأسها مبرطمةً شفيتها الداويتين، حرّكنَ أيديهن البضة مستفهمات، لماذا؟ لماذا؟ سألنها متأسفات متألّات حنونات متعاطفات معها: رسمت لهن صورةً حمار بأذنين طويلتين! ابتسمنَ وضحكن فرحاتٍ بها، تجاوبت هي أيضاً معهنّ، بانت أسنانها، لم تغطّها هذه المرّة متعمّدة!

كان "حفيدها" يتطلع إليهن من مكانه في القطار وهنّ يحتضنّ خالة أمّه بعينين حزينتين فرحتين في الوقت نفسه. شعر برغبة البكاء، أغرورقت عيناه في الدموع، تذكر والدته وخالته وجدته الكبيرة ووالده ولمة أخواته وإخوته عندما يتجمعون حول مدفأة "علاء الدين" ذات اللهب الأزرق في الليالي الشتوية حيث يستخون البلوط والكستناء ويجردون الشاي على صينيّتها الدائرية الساخنة.

أغمض عينيه، انتبهت له إحدى العجائز وهو يذرف الدموع، سألته مبتسمة كأنها تخاطب طفلاً: "ماذا حصل؟ نووووووه، إنها دموع الفرح، لا تقلق عليها، إنها بخير معنا، سنتعلم منها الكثير، أقراص الخبز والطعام، سنجعلها تهم بنفسها، سنغني ونرسم معاً، هذه لغتنا التي نجيدها، اطمئن!"

فتح عينيه، مسحهما بمنديل تناوله من جيبه، اختفت العجائز مع خالته، ركب القطار رجل طويل القامة، كبير السن، حنطاوي، نظيف الھندام، يمسك بيده اليمنى حقيبة يدوية سوداء، ذكرّه بكبار السن المتقاعدین الروس، أبطال الحرب العالمية الثانية، كثيراً ما كان يتحدث إليهم في القطارات، لبس قبعة صوف شتوية صفراء اللون ومعطفًا أصفر، تصوره من أوروبا الشرقية، من الصرب أو الكروات، أو البوسنة مثلاً أو مناطق أخرى، او دتمركي أسمر قليلاً، في الحقيقة لم يكن مميّزاً. وتذكرّ جان فالجان بطل البؤساء، إنه يشبهه أيضاً!

راقب حركاته، تصرفاته، ملبسه، حقيبتّه التي يحملها ومعطفه جعله يتصور أنه اوروبي شرقي.

جلس أمامه، التقت عيناهما، سلّم الشاب عليه مبتسماً، سأله "متحرشاً":

- هل سيقف القطار في محطة هيليروود؟

أسنانه باسمه، وجهه كريم فيه طفولة رغم كهولته، سأله بخشونه؟

- من أين أنت؟

- من روسكيلده!

ضحك الشيخ، مستمراً في كلامٍ وضحّث فيه لكنته الأجنبية، خمّن الشاب أصله الشمال

أفريقي، سأله:

- أقصد من اي بلد انت؟ انا مغربي..

أجابه بالعرييه:

- آه، خمنت ذلك، انا من العراق.

- العراق؟ يا مرحبا بك، خليك جالس هنا وانت توصل للبلاسه ديالك (مكانك) اللي تبغها،

انتظر، دابه أرجع لك بعد زوج دقائق...

قالها خارجاً من القطار، رآه يحتم تذكره، اندهش لتوقف القطار لفترة طالت أكثر مما كان

يعتقد، خرج ليسأل موظف القطار، قدّم له خارطة أخرجها من جيب بنطاله، ظهر فيها بلدية

فريدينبورغ، تحتها هيليروود وأسفلها أليروود، سأله عن المكان مشيراً على الورقة، أجابه

صاحبنا:

- أريد ان اذهب الى هذا المكان، أليروود.

شرح له عامل القطار بالتفصيل وفي هدوء تام، كان شاباً لا يبدو عليه أنه قديم في الخدمة أو

مجرّب، لكنه حقاً "كفى ووفى"، قدّر عمره في العشرين أو أقل بقليل، على بشرة وجهه بعض

البثور كأنه حبّ الشباب، طويل القامة، خفيف الشعر، يرتدي ملابس نظيفة.

لم يضيع وقته في المدرسة الثانوية والباكالوريا والدراسات الأكاديمية، الظاهر عليه اختار ان يعمل

في القطارات منذ ريعان شبابه، بعد الصف التاسع مثلاً، فكر في نفسه.

- كان المفروض ان تنزل في محطة هيليرووب، التي مررنا بها، عليك العودة إلى هيليروود ومن

هناك تاخذ حافلة او قطار...

شعر بالصدمة، ازداد الصداع صداعين والهّم همتين، "كتمل الغرقان غطّه" قال لموظف القطار

ليس بدون سخرية:

- انا تعبان وغلبان ونعسان ومنته! عندي صداع ولم أتم يوم أمس، وانا قلق، أخاف أتأخر لأن

عندي في هذا المكان موعد مهم، أصلاً لم أفهم كيف وصلت إلى هنا، ولهذا ارجوك أن تشرح لي

بالتفصيل وتكتب لي المعلومات هنا كيلا أنساها.

وَصَّحَ له الموظف كل شيء ثم كتب مواعيد الحافلات المتجهة الى فريدينسنبورغ وهيليرود
وأليروود، مكرراً:

- أنت بالأساس كان المفروض أن تأخذ القطار المتجه الى هيليرود، لكنك الظاهر أخذت
قطار هيلسينجور، كان المفروض ان تصحح الخطأ، تنزل في محطة هيليروب ومن هناك تتوجه
الى هيليرود، ثم إلى وأليروود.

- صحيح هذا ما كان عليّ ان اقوم به، لكنني كنت مشغولاً بخالتي وسرحت ...

- انتبه، لا تسرح مرة ثانية وسلّم لي على خالتك!

قال لنفسه: هذا فعلاً شاب لطيف وطريف وخفيف الظل، يلقفها وهي طايره، فهم المرحة،
شكره وودعه متجهاً الى عربة القطار، حاول أن يفهم القصة، أين هو الان؟ كيف يتحرك
القطار به الى هذه الجهات المختلفة، اصابه الدوار، مازالت الدوخة تفعل فعلها.

تذكر صديقه المشاكس، قال له في وقتها:

- هذا اللي عندك لا صداع ولا دوخة ولا هُم يجزنون، هذا شيء آخر..

- شنو يعني شي آخر؟ تريد تفلسف الامور؟

لم يجبه. اكتفى بالضحك ناظراً إليه متمتماً:

- آبي أعرفك، عاجنك وخابرك، انت من برج الدلال واني اعرف كل سؤالك ... انت شاردي
يا رجل!

غرق في الضحك محتضناً إياه، بينما اكتفى الشاب ذو الرأس " المكسّر " بالتمتمة.

عاد الى عربة القطار، وجد الشيخ المغربي جالساً، لم يخطر بباله في البداية ان يكون هذا الرجل
مغربياً، تخيله يرتدي ملابس تقليدية مغربية، جلباباً، فوقية، جلابية قطنية فوقها جلابيه صوفية
فيها غطاء رأس مثل البرنس.

تذكر شيخاً رآه مرّة في المغرب، كان يلبس أربع جلابيات اما الخامسة فتكون من الصوف
الدافئ، رآه في ورشة تصليح السيارات حيث كان يعمل صديقه، راقبه يجلس هناك أكثر من
خمس ساعات، على عدد جلابياته، سأل صديقه:

- إيش كا بيغي هذا الشيخ؟

- ينتظر!

- أووه! يا صاحبي، صار له خمس ساعات ينتظر!

- ينتظر يصلحون له بياس "قطع غيار" ديال سيارة وُلده.

نظر الى جلسه في القطار، الشيخ المغربي ذي القبعة الصفراء، والمعطف الأصفر، بمسح فمه

براحة يده اليسرى بينما يميناه مشغولة بحقيبتيه اليدوية. توقّعه سيكون ونيسه، قال له:

- كي داير يا حاج؟ لا باس؟

-آه، ياك تهدر مغربي؟

- شوّيه، أنا كاين في المغرب، انت من اين من المغرب؟

- الناظور، تعرف الناظور؟

- إيه، معلوم نعرفها، خُدا الحسيمه، ياك؟ ديال الكونتربوند! التهريب!

قالها ضاحكاً، ابتسم الشيخ وهو يقول بهدوء:

- لكن ذابّه "الآن" ما كاينش ذاك الشيء، تغيرت الأحوال، والكونتربوند ولّه صعيب. راح ذاك

الشي، خلاص!

ثم تابع كأنه ينوي تغيير الحديث:

- أنت من العراق، ياك؟ صحيح؟ العراقيين رجال! معرفة الرجال كنوز! الأميركيان جُبْنَاء و.

كان يتمتم بكلمات لنفسه.

سأله الشاب مستفزاً إياه:

- **گول (قُلْ) يا الشريف، علاش الأميركيان جبناء؟**

- إيه، ما بُغوش يحاربوا العراقيين!

- مين قال لك هذه الهدره يا الشريف؟

- صدام وعر، گاهم (قال لهم): توقفون الحرب والا أحرقكم "گاع"! يعني ما أبقني بكم شيء!

الاميريكاني ما بُغاش يحارب على الارض، العسكر ديالنا في السعوديه، تراه خبروا الملك، قالوا

له: يا ودي الحال صعبه، المغاربه ما بيغوش يقتلوا في اخوتكم العراقيين...

أشار للشباب ان يقترب منه، تتم بصوت خافت يكاد يكون غير مسموع في أذنه:

- **تراه المليك ديالنا عبقرري**، ما بغاش العسكر ديالنا، لاكلونيلس يعني لاجندرم، ها ها إحنه نهدر مخلط، يا ودي مخلط فرنساوي ومغربي عربي وشلحي وريفني، سامحني أنا الهدره ديالي، زعم ما هياش عربي، يقولون عليها فصيحه، أنا نخربق في الكلام، سامحني.

المهم احنه المغاربه عندنا المليك عبقرري، قال للعسكر، لاجندرم ديال المغرب: يا ودي يخصكم تروحو للسعوديه لكن ما تصوبوش النار في صدور اخوتكم العراقيين، ها، ها، ها، ومن هبطت الصواريخ العراقيه على اليهودي، فرحو الجندرم المغاربه في السعوديه وصاروا يطلقون الرصاص في الهواء، إيه، يا ودي اللي صار ما كاينش العقل يقبله، مليون جندارم اميريكاني وغير اميريكاني، بيغون يحاربوا العراقيين، وعلاش؟ ما بغوش العرب والمسلمين يمتلكوا القنبلة الذرية ويخلصوا على اليهودي، احنه المليك ديالنا عبقرري، قال له، لصدّام ديالكم: يا ودي تراه الاميريكان باغين يدمروك، باغين يدمروك، انسحب، انسحب وأنا نقدر ندير لك مساعدته ومن بعُد انا وانت وكُل العرب ندير تنسيق حقيقي، مش زعم اي كلام، الكفار اولاد حرام ما ينفعش تدير معاهم عمَل عصبي، لكن السيد ديالكم قوي، وعَر صحتّه مزيانه، ماشاء الله عليه طويل، عريض، ما بغاش يسمع كلام المليك ديالنا، إيه، هذا حال الدنيا، وأيش ندير، ما قدرناش ندير حاجه، لكنه والله رجل، ما عرف الخوف حتى ساعة اللي راح فيها لنيويورك للمفاوضات، قاطعه الشاب سائلاً:

- هو راح لنيويورك؟

- معلوم! كان حاضر بالاجتماعات لكن، مش بالمكشوف، زعم هو كان مغير شكله ولا

أدينتيتيت دياله، البطاقه والهوية وكل ذاك الشيء، يعني متنكّر،

ثم أردف متسائلاً، كأنه يحنتم حديثه:

- **گول (قُل) يا العراقي**، ذابّه العراق يقدر يدير الصاروخ بروحه؟ زعم، بلا مساعدة النصاري؟

قال له الشاب ممحكاً إياه:

- وعلاش تبغي الصاروخ يا الحاج الماروكي؟ علاش؟ أيش كا يدخل في جييك؟
- معلوم، يخصهم، العرب والمسلمين تصير عندهم قوه، يخصهم الصاروخ، القنبلة قوة للمسلمين، اليهودي عنده علاش مايكون عندنا؟

- والله يا حاج انا ما نعرش بالصاروخ كاين والا ماكانش عند العراق، ما كاين حد يعرف
بذاك الشئ، ولا صدام خبرني عنه ...

عقب ضاحكاً في سخرية:

- ها، ها، علاش الاميريكاني ما بغاش يحد لا إمبراگ زعم الحصار عن العراق والدراري دياله
المسيكين، لأنه عارف الصاروخ العراقي كاين، يقولون بس صدام يعرف مكانه، بيغون صدام
يگول لهم فين بلاسه (مكان) ديال الصاروخ! معلوم الصاروخ ما هوش لعبه ديال
الدراري "الأولاد" يلوحها بنادم في كل مكان!

- خلينا يا حاج من هذا الكلام اللي يصدع الراس، لا تكسر راسك، لا تهرسه! والقنبلة هذه
كلها مضبعة وقت وفلوس، ما يجيب غير الصداع يا ودي، والأخير لهم بينون مدارس
ومستشفيات ومعامل يخدم فيها الرجال والنساء في بلادهم مكرمين معززين، مش زعم يسافرون
لبلاذ بزا، وحه يخدمون فيها، لكن الأفضل لهم يكونوا في بلادهم بين أهاليهم وما يتركوا أطفالهم
أو دراريهم مثل ما تقول، أنت نفسك، بالله گول يا الشريف: إشحال عام وانت كاين في
الدمرك؟

- في الشهر الآخر، في ابريل غادي يصير ثلاثين عام!

- والدراري ديالك فين كاينين؟

- دراري؟ في المغرب.

- كلهم؟

- كلهم؟ دابة ولوا كبار ومتزوجين وعندهم دراري بالزاف.

- وعلاش ما بغيتهم بيقون في الدمرك؟

- هم ما بغوش
- بنات والاً أولاد؟
- أولاد، ما كابينش عندي الدرّيات "البنات".
- وشحال درّي عندك؟
- سبعة!
- قالها بفخر ضاحكاً، كلهم دراري "أولاد"!
- صافي انت وحدك هنا؟
- صافي وحدي، لكن كل عام نبقى غادي اربعة شهور!
- فين خدمت يا الحاج؟
- خدمت 30 عام في شركه واحده ماغيرتها والو.
- والو؟ أبداً؟
- والو، علاش نغيّر الخدمه ديالي؟ علاش؟
- گول يا حاج، دابه (الآن) أنت فين غادي؟
- غادي للجمعه.
- كانت عيناه بشوشتين، وجهه مليئا بالسرور، نظر الى الافق بعيدا باتجاه الجانب الاخر من
المدينة التي يتوقف عندها القطار، أشار بيده الى تلك الناحية قائلاً:
- ذاك هو السويد، أنا عشت هنا 30 عام، اعرف المكان مزيان، انت باغي تروح للهيه (إلى
هناك)؟ غادي هناك؟ فين غادي؟ للسويد؟
- غرق في ضحكة صامتة، مشيراً إلى الجهة الأخرى حيث يقع السويد، مكملاً حديثه:
- يخصك ترجع من وين جيت.
- شوف يا الحاج، يا الشارف! نبغيك ترشدني! اليوم أتعس يوم في حياتي، اليوم يوم خايب،
يوم امس ماكنت كينقدر ننعس في الليل، واليوم كنت كنبغي نسوق السيارة وضاع مفتاحها، كان
عندنا قطار يطلع من روسكيلده إلى هيلسينجور ديريكنت، مباشر، لكنه إتجّس، زعم وقّفوه،

أخذت القطار من روسكيلده لكوبنهاجن، وانتظرت وقت بالزاف في محطة كوبنهاجن، ومنها اخذت واحد آخر، المفروض إلى هيليرود مثل ما نصحتني موظفة الاستعلامات، نعم أتذكرها، قالت لي أن آخذ القطار من طريق 10 باتجاه هيليرود، لكن الظاهر اختلطت الأمور عليّ وركبت قطار هلسينجور، الطريق طوييل، عندي موعد الساعه عشره وذابه الساعه عشره إلا قسمين "عشر دقائق"، شو ندير يا حاج؟

- ربك يدير كل شيء!

- المواصلات دياهم بطيئه بالزاف، كلها مواعيد.

- هذا حكم الله! يخصك بالراحه حتى توصل بالسلامه، الموت أسرع، كل شيء بالترتيب من الله سبحانه تعالى، يخصك تشوف الطريق وتقرأ الأوقات وتدير المواعيد وتنعمس مزيان، الحمدلله ضاع منك مفتاح السياره، بالك كان تدير لا أكسيده، يعني حادث اصطدام، ربك قاسم لك الخير، بنادم يخصّه ديمه يقول: الحمد لله ...

- يا حاج أنا درت ذاك الشيء، لكن كل شيء خايب بالزاف، أصلاً انا لحد الآن ما فهمت كيف صار ذاك الشيء.

- إيه، يا ودي ذاك الشيء من عند الله، كان يبغي يصير، يخصّه يصير!

- تصور يا حاج حتى التلفون المحمول ما نفعي ...

- يا ودي اليوم جمعه! وذاك الشيء من عند الله! قل: الحمد لله!

- تصور يا حاج كنت كيبغي تهدر بالتلفون من المحطه، لكن ماكاينش فيه شحن، ما عندي

دراهم ولا ريبالات ولا كارت التلفون ...

- دراهم؟ عندي، إذا يخصك نعطيك دراهم تهدر بما بالتلفون العمومي إذا لقيته، (مدّ يده إلى

جيبه وأخرج منه بعض النقود) يا ودي ذاك الشيء ربك قادر عليه، هو اللي يسير الأمور!

- شكراً لك يا حاج، كلك خير وبركه، ما هذا قصدي، لكن أموري اليوم ملخبطه، زعم مخربقة

مثل ما تقولون في المغرب،

قرب الحاج المغربي رأسه منه وهو يشير بإصبعه إليه أن يصغي إليه:

- شوف! يَخْصِّكَ تصفي بالك وتبتعد عن النسوان، هذول العيالات ما من وراهن غير المشاكل والصداع، وتدير حاجه واحده بس، ولما تخلص منها تدير الأخرى، هكذا! أنت متزوج؟ وإلاّ لا؟
- إي ولا! زوجتي تدير لي مشاكل وانا تعبت منها بالزاف، كنبغي نتزوج واحده أخرى، ممكن مغربية، أيش قلت؟
- ضحك الشيخ قائلاً:
- أنت باين عليك خطيبير! أنا قلت لك خَلِّي بالك من العيالات، لكن من حَقِّك، إذا زَعَم، لا سامح الله زوجتك مش مزيانه معاك، تزوج أخرى..
- أنت ما عندك بنت، دريّه، عندك بس دراري، أولاد؟ الله يخليهم لك! والله يا حاج تعبت بالزاف منها، تأخذ أغراضه وتلّوحها ببلاسات، زعم أماكن ما تعقل عليها، أسألها فين حطّيتهم؟ ما تتدّكر! أنا يَخْصِّني واحده أخرى! لو كان عندك بنت كان خطبتها منك لأنك باين عليك شهيم وكريم وطيب، لكن انت ما عندك غير الدراري، الأولاد..

قاطعہ الشيخ المغربي والابتسامة تملأ وجهه:

- شوف، يظهر لي انت إنسان مزيان وكوميديان، تمزح مثل دريد لحام الفنان، أنا أحبه بالزاف لأنه خير إنسان! أنت باين عليك تحب زوجتك، ويَخْصِّك ما تدير بسالات، زَعَم مشاكل بحال الأطفال والصبيان!
- بس تعبت والله، لكن يا حاج انا نبغيك تهدر لي عن أيام زمان وكيف قضيت شبابك، شحال مرّه تزوّجت؟
- ضحك الشيخ مقاطعاً الشاب:
- شوف يا العراقي، يَخْصِّك تنزل دُزُوك، زَعَم حالاً، الآن، هنا من القطار وتأخذ القطار الآخر، الغادي هيلبروود! هيلبروود، ومنها تأخذ قطار آخر أو باص.. تستقصي من الناس، زَعَم تسأل وتتأكد، يظهر لي أنت تخلط الأمور، هههه!

نَهَضَ الشابُّ من مكانه مستعداً للرحيل وهو يودعه:

- إلى اللقاء يا حاج، تبارك الله عليك، تقبّل الله الجمعه!

- متّاً ومنكم، تبارك الله عليك، نشوفك في الجامع، الله يحفظك من أولاد الحرام..

- شي يوم نجيك للجامع، في كوبنهاجن؟ ياك؟ صحيح؟

- مرحباً بك، اسأل عني، الحاج عبد السلام!

ودّعهُ مبتسماً فرحاً، نَزَلَ مهرولاً، ركضَ متجهاً نحو قطار هيليرود، صعد سلّمه، أخذ مكانه

ضمن المقاعد الفارغة ما عدا امرأة عجوز، جلس قربها!

جلس وهو يعاود قراءة الورقة، اطمئنَّ الى الأمور، إنها تسير في الطريق الصحيح، قال لنفسه
انت في الطريق الصحيح، ابتسم متذكراً السياسية التركية تانسو تشيلر من جماعة حزب "الطريق
الصحيح".

راقب أشعة الشمس المضيئة على الطبيعة الخلابة، بحيرات كثيرة، اشجار عالية، كانت "العجوز"

في هذه المرة تلبس قبعَةً حمراءً وبلوزاً صوفياً رصاصياً وسروالاً رمادياً خفيفاً وحذاءً أحمر، تحمل
بيدها اليمنى سلة يجلس فيها كلب صغير بني اللون، تضع على عينيها نظارةً شمسيةً حمراءً اللون.
تمعنها، كانت تتطلع الى الطبيعة من خلال شباك القطار مبتهجة والابتسامه تغطي ثغرها، كانت
نسائم عطورها الفرنسية تهب بين لحظة وأخرى منها، سألتها بهدوء.

- هل سيتوقف القطار في هيليرود؟

فوجئت العجوز بالسؤال، ردّت على الفور كأنها مصدومة:

- ماذا تقول؟

بانّت بعض التجاعيد على وجهها الصغير، أنف جميل كالبلوطة كما كانت والدته تقول،

وشفتان مطليتان بأحمر الشفاه، اما العينان فكانتا مختلفيتين خلف نظارتها الشمسية، كانت

تتحدث بأسف لكن بيرودة اشد:

- آه، لا، طبعاً، من قال ذلك؟ لا كان المفروض ان تنزل...

بُهِتَ الشاب المشغول بخالته من كلامها، "هبط قلبه" كما كانت خالته تقول، و"روحه فرفحت"

على قولة امه، شعر أن عينيه كانتا تنظران إليها كالليت، كان كلامها كالصاعقة عليه، ضرب رأسه بكفّه، قاطعها قائلاً بصوت مفعج:

- تقصدين هذا القطار مرّ بمحطة هيليرود؟

- طبعاً.

ازدادت نبضات قلبه، شعر بالأسى، صار يتمتم لنفسه: يا إلهي ماذا سأفعل؟ سأموت من القهر والألم إذا لم أنتحري! أين انت ايها الحاج عبد السلام، الهاديء القَدري المغربي؟ اين انتِ ايها الخالة القنوعة المستكينه المرضية؟ لولاك لما حدثت لي كل هذه المصائب والبلاوى، لا، لا، عفواً لم اقصد ذلك، عفواً، انتبه الى العجوز مرة اخرى كأنها تريد الحديث اليه، قال لها:

- "كلبك جميل، وعطرك رائع، نوعه على طرف لساني، نسيته"، قالت له مبتسمة:

- تشيهواوا، اسمه "تشيكو"،

- والعطر؟

- تريسور، هدية بعيد ميلادي الثمانين من ابنتي،

تشجع، قال لها تبدين أصغر كثيراً، سألها بتركيز شديد ووضوح كأنه يخاطب طفلة:

- عفواً إذا أضايقتك، مضطر أن أعيد السؤال عليك:

- يعني أنتِ تقصدين أن هذا القطار مرّ بمحطة هيليرود وكان المفروض أن أنزل من القطار؟

- هيليرود؟ انت قلتِ هيليرود؟

- نعم هيليرود!

- آهاا، إذن ابقى هنا فهي لا تزال أماننا، تصورتك تقول شيئاً آخر.

تنهّد بعمق متأوهاً، كأن الحياة أُعيدت له بعد موت محقّق، أراد ان يتأكد من إجابة العجوز

الأنيقة الهندام الطيبة العطور، كانت تمسّد كلبها وتتحدث إليه وتواسيه، أراد ان يسألها عن

كلبها، خشى ان تستغرق في سرد قصة حياته، مع ذلك عبّر لها بابتسامات عن حبه وإعجابه

بكلبها الصغير النحيف. تطلّع هنا وهناك، لم يجد شخصاً آخر يستفسر منه، سألهما:

- هل لا تزال محطة هيليروود أمامنا؟

- نعم، نعم، اطمنن واسترخ، ستصل إليها.

ابتسم ثم ضحك بصوت مسموع، ابتسمت له قائلة، سيتوقف القطار في هيليروود، أخذ منه

الإرهاق مأخذه، أغمض عينيه، مارس لعبة الشهيق والزفير، متمتماً لنفسه: "لا تبال، لا تبال،

ولا يهتِك، بيوت! pyt كما يكررون هنا دوماً"، يعني "مو مشكله! لا تبال! طز! طز!

هههه!" مفردة يعشقها الناس هنا، هي وكلمة "استرخ" سلاب أ، سلاب أ، ردّدتها العجوز،

ضحك على كلمتها " سلاب أ، سلاب أ"، من أين يأتيني الاسترخاء؟ كان يرددها الروس أيضاً

"راسلابلايسه! راسلابلايسه!" منذ سنين. واستمرّ يتمتم ساخراً:

"كل الشعوب مسترخية إلا نحن الميسوباتوميان من الغربان والعجمان والتُركان والكردان والسريان

والكلدان في الشرق أو سلطان!" والله يا الله! ههاهاهاهان!

مرّة جرفته أمواج البحر الأسود المتلاطمة وكاد أن يغرق، هبّت إليه زميلته لإنقاذه قائلةً له بكلّ

هدوء: "راسلابلايسه، راسلابلايسه!"، استرخ! استرخ! لاحظ أن جذر هذه الكلمة متشابه في

اللغتين الدنمركية والروسية..

توقف القطار في هيليروود، هرول متجهاً نحو أحد العاملين في المحطة، سأله بعد أن تطلع في

ورقة سائق القطار الشاب، كتبها له بكلّ احترام وهدوء:

- أريد الذهاب الى محطة أليروود، بلدية أليروود.

- نعم، إنه هنا، أنظر خط رقم 16،

ركض نحو رصيف 16، قال له عامل المحطة:

- لا تسرع، سيأتي القطار بعد عشر دقائق!

- أوي، يا إلهي هل سأنتظر من جديد، ماذا سأفعل؟

- جرّب الحافلات، هناك في الجهة الأخرى من الشارع.

ركض نحو الحافلات، سأل السائق، كان يهيمّ بتشغيل المحرك، ردّ عليه بالإيجاب.

- نعم يمكنك ان تأتي معي.

جلس على أحد مقاعد الحافلة، لم يطمئن قلبه، اراد ان يتأكد من الطريق الصحيح، تذكر تانسو تشيلر مرّة أخرى، قال لنفسه "هذا ليس وقت المزاح، عليك أن تركز على طريقك، وإلا فستضيّع كل شيء"، أخرج الورقة الصغيرة، قرأ العنوان بتأنٍ، توجه نحو السائق مرة ثانية، سأله عن المكان وهو يريه ورقة العنوان، ردّه السائق ببرود:

- لا، مع الأسف، عليك ان تاخذ حافلة رقم 337

رغب أن يناقشه، يسأله عن الخطأ، أجل كل هذه الأفكار الى إشعار آخر، في النهاية لن يفهم ما سيشرحه إلا إذا كتبه على ورقة ليقراها فيما بعد عندما يأخذ قسطاً من الراحة، هرولاً متجهاً نحو المحطة من جديد، قرأ مواعيد حركة حافلة 337، لن تأتي أية حافلة في هذا الوقت، عاد الى محطة السكك، وقف عند رصيف 16، انتظر قليلاً حتى وصل القطار، سأل أحدهم عنه، قال له بأنه هو القطار الذي سيتوقف في أليروود.

قعد على أقرب كرسي في القاطرة متوخيًا الحذر من الانشغال بأية "حالة" عجوز قد تداهه وتلهيه وتشتت أفكاره. نظر من خلال النافذة الى الغابات والطبيعة الجميلة، كانت الشمس تضيئ عليها شيئاً ساحراً، لمعناً أخاداً بريقاً على الأشجار، والبحيرات الصغيرة. أغمض عينيه متخيلاً نفسه يعوم فيها، ماهي لحظات حتى أعلن عن وصول القطار الى محطة أليروود. شعر بالفرح والبهجة والسعادة والانتشاء، والجدل، خرج مهرولاً باتجاه البلدية.

- اين البلدية؟

استفسر من أحدهم عنها، أشار له بيده الى الامام. سار مسافة قصيرة، مرّ في مفترق طرق، سأل رجلاً آخر:

- الى الامام، ثم الى اليسار ثم الى الامام.

دخل متوجهاً نحو السكرتيرة، عرفته مباشرةً حتى قبل ان يقول لها إنه المترجم، بأن ذلك في نظرهما إليه، أشارت له ان يذهب الى الامام حيث تجلس المشرفة الاجتماعية، تنتظره هناك. قال

لها:

- أنا متأسف لما حصل، جئت لا لأترجم بل لأعتذر على التأخير، إذا كنتم لازلتُم تنتظرونني فأنا حاضر للترجمة. أنا أعتذر شديد الاعتذار وأريد ان اشرح لكم الحالة ...

- لا، لا داعي للاعتذار، عليك البدء بالترجمة، وبعد ساعة ستترجم مرة ثانية حيث سيأتي المراجعون لنا، شكراً لأنك جئتنا فنحن بحاجة ماسة إليك الان، حصلت عندنا مشكلة عائلية كبيرة جداً، سيحضر كل أفراد العائلة، نحن في حقيقة الأمر لم نكن ننتظرك إلا أنك جئت في وقتك المناسب، نريدك كوسيط وليس كمتترجم فحسب، فقد حصل لنا طارئ و اتصلتُ بمكتب الترجمة لأطلبك أنت بالذات، قال المدير إنك في الطريق وتلفونك غير مشحون، كانت مفاجأة! - لكن كيف؟ اليوم لدي موعد ترجمة عندكم، عند المشرفة لونا أندرسن.

- هذا غير صحيح، أنا لونا أندرسن، هل نسيته؟ إنك ترجمت لي أكثر من مرة! وانت لديك موعد ترجمة يوم الاثنين وليس اليوم، المهم انت جئت في الوقت المناسب، ونحن بحاجة ماسة لك الآن، هيا دعنا نذهب الى المكتب الآخر، حضّرت لك القهوة، تعال، اتبعني، وقتنا قليل، عندنا "حرب"، لا بد أن اشرح لك القصة قبل أن تأتي العائلة، ستترجم وتشرح لهم الظروف، فعلاً "حرب"!

قالتها ضاحكةً، ثم اردفت:

- يعني لو لم تظهر لنا الحاجة الطارئة لما وجدته اليوم، وانا واثقة بأنك ستكون خير وسيط بين الأطراف، لكن لا تنسَ موعد يوم الاثنين!
- رُبَّ صدفةٍ خير من ألف ميعاد.

انتهت الحكاية 21/ حزيران 1997 الدنمرك

زهير ياسين شليبه في سطور: حائز على جائزة الثقافة لعام 2002 في مدينة روسكيلدة.

- ولد في العراق عام 1954، درس في مدارس بغداد والجامعة المستنصرية وتركها لغرض الدراسة في الخارج.
- درس الصحافة والآداب في روسيا ونال شهادة الدكتوراه في الأدب الحديث والمقارن من معهد الاستشراق التابع لأكاديمية العلوم السوفيتية في موسكو 1984
- عمل باحثاً وأستاذاً جامعياً بعد تخرجه مباشرة.
- درس الترجمة دراسة أكاديمية جامعية في كلية التجارة- كوبنهاجن.
- درس العمل الاجتماعي في المدرسة العليا للعمل الاجتماعي في كوبنهاجن.
- نشر العديد من المقالات عن القصة والرواية وأصدر أطروحته عن الروائي العراقي الراحل غائب طعمه فرمان.
- عمل في الترجمة والمجال الاجتماعي والكتابة والبحث.
- صدر له:
- غائب طعمه فرمان. دراسة نقدية عن الرواية العراقية، الكنوز الأدبية، بيروت 1996
- مختارات من الشعر الدنمركي، دار شرق - غرب، 2000
- ميخائيل باختين ودراسات أخرى عن الرواية، 2001
- أنطولوجيا الشعر الدنمركي الحديث، 2003-2005
- كوايس المنفى. مجموعة قصص قصيرة. القاهرة 2003-2004
- الفطحل. محاكاة ساخرة وقصص قصيرة. القاهرة 2008-2009
- في الأدب العربي الحديث. دراسات وحوارات في التنويرية العربية. دار الأناضول بيروت 2025
- مقالات في الثقافة الدنمركية. طبعة إلكترونية 2024

لهذه القصص نسيج غير مألوف. والسرد فيها يخلق الانطباع بأن القاص يتقمص دور الراوية التقليدي. إلا أنه راوٍ، ولا يهم هنا إن كان هو المتكلم أو المخاطب أو ضمير الغائب، يكسر الإطار التقليدي الصلب. انه لا ينقل حكاية أو واقعة فحسب، بل يعيشها، والأكثر من ذلك ينسجها في حياته الداخلية. وفي فعل قصصي واحد يمارس شليله تقنيات عدة أيضا.

إنها ليست عودة إلى درب القص القديم كما تبدو في الظاهر. ف(الراوية) يتوقف عن القيام بدوره لكي يقوم بفعل لا علاقة له بالسرد. إنه (التقاط أنفاس) عبر تداعيات معينة للأفكار والذكريات أو الأخذ بصيغة معينة من (تيار الوعي). إلا أن هذا كله لا يبدو البتة إقحاما مفتعلا على السرد الأساسي. أما لغة القص فيصعب العثور فيها على (المجرد) أو (الواقعي) بقلبه التقليدي الشائع.

إنها لغة تفوح منها رائحة اليومي (المألوف) ونبضه. ومن الواضح أنها لغة ذات تركيب خاص أملتها الغاية منها: السخرية ونزع أقنعة الإنسان بشتى أصنافها. إنها ليست سخرية من بنات الاستقراء الذهني الصرف أو انعكاسا لمرآة ستاندارلية من النوع المقعر والمحدب، بل سخرية من يحاور نفسه بكلا الصوتين: الواطىء، الذي صقلته سخرية ناعمة، والآخر، الذي لا يخلو من التهديد وقمع السخرية لصالح الاستنكار.

كذلك فهي سخرية قائمة وفق المنجز الأدبي، البسيكولوجي المعاصر.

عدنان المبارك

رغم الترحال الذي لازم الدكتور زهير شليبه في فترات طويلة من حياته، بقي مستمراً في العطاء فنشر قصصه القصيرة كما ترجم قصصاً من الأدب الأفريقي والإسكندنافي، واستمر يعطي القصة العراقية القصيرة قصصاً ترتبط بمحنة الإنسان العراقي وعذابه وعلاقته بالأرض والغربة والزمن الجديد.

وحيثما تقرأ أعمال الكاتب الدكتور شليبه تشعر بمتعة وتأثير النتاجات الروسية والأوروبية التي عمقت تجربته القصصية وزادتها اتساعاً ومساحة في المحتوى والأسلوب والشكل الفني. وبالرغم من اهتماماته العملية الأخرى في الدمرك حيث يقيم، إلا أن زهير شليبه بقي أميناً على رسالته الأدبية من خلال مساهماته النقدية الجادة والعلمية والرزينة ودراساته المتخصصة في مجال القصة والرواية العراقية. والكاتب الدكتور زهير شليبه دليل أكيد على القدرة الكامنة في روح المثقف العراقي الذي يقاوم المناهية والتشرد، إلا أن روح العطاء والقدرة على الإبداع وتقديم المساهمات الجادة في اللغة والأدب والثقافة تبقى السر الكامن في أعماق هذا العراق الذي لم يزل يعطي رغم كل ماكان، يمكن أن يشكل الدكتور زهير شليبه علامة من هذه العلامات.

زهير كاظم عبود

أسلوب الكاتب ليس مألوفاً في الثقافة العراقية، وكما استطاع أن يمزج دلالات الغرب والشرق في الروح العربية، وضع للذكرى مزيجاً من الفرح والحزن والبؤس والعافية في الحياة، وصارت العجوز هي العجوز في الأصقاع.. دمج الإنسان العراقي، بكل أحزانه وآماله وطموحاته ليترقي إلى الحياة العالمية.

الصور التي رصدها الكاتب.. ودبجها بكلمات لا أجمل ولا أحلى، موسكو والدمرك والصحراء الكبرى والعراق ومشارف البحر الأسود وأجواء الروح العربية وشعوب أوروبا، إنها ميادينه التي أطلق عنان فكره ليسبح دون خوف من حيطان البحر ولصوص المدن وقطارات الأنفاق وظلام الغيوم. قصص جميلة تصلح للمشاركة في مهرجانات دولية تمثل السينما العراقية.

حافظ العادي

مسرحي عراقي

أوروك علي*

قراءة في كوابيس المنفى

صدر عن مركز الحضارة العربية في مصر مجموعة كوابيس المنفى المكونة من 13 نصا قصصيا للدكتور زهير شليبه، الكاتب والمترجم العراقي المقيم في الدنمارك.

يُعد عنوان المجموعة: "كوابيس المنفى" مفتاح الولوج لإدراك الإطار الترابطي للنصوص حيث الأحلام والكوابيس هي المفصل الارتكازي والقاسم المشترك لها.. ويتخذ هذا التمفصل تعدد الصيغ والمستويات.. فعبّر تقنية "الFLASH باك" يعود القاص إلى الماضي حيث الاستدكار يتخذ مستوى سرديا مؤطرا بفاصلتين زمنيتين: الماضي والحاضر.

" رجع بالذاكرة إلى الوراء بعيدا... " ص 18

لكن القاص يتحول بهذا التنوع الزمكاني باتجاه صيغة الحلم وهي تتأطر في الحركة الزمكانية بين الحاضر والمستقبل حيث زمان المستقبل نتاج صراع داخلي ينبثق عن إحتدام الصراع السايكولوجي بين الواقع والذات كثنائية جدلية: "إذن كان هذا حلما ليس إلا" ص 38 وهكذا تتخذ تقنيات السرد ومستوياته بكل تنوعاته الزمكانية كبوتقة للثنائية الجدلية: "الداخل- الخارج" وبكل عناصر الصراع بين "الواقع والأنا" ..

يقوم القاص بتوظيف هذا التنوع السردى من خلال الثنائية السردية ضمن فضاء النص الواحد حيث التحول السردى بين صيغة الاستدكار "الFLASH باك" وتحويلات الحلم الغرائبي عبر صيرورات الجدل السردى الموازي لجدل "الواقع-الذات" كما يتجسد ذلك في نصوص: الواحة الخريفية، مدرسة السياقة، الغيوم، الهروب والحلج " لأن مدرس السياقة هذا ذكرني بشخص عزيز علي" ص 54 " في النوم رأى حلما طويلا جميلا" ص 66. ولا بد من إشارة بأن كلا المقطعين من قصة مدرسة السياقة.

لكن القاص الدكتور زهير شليبه يعود في بعض النصوص إلى فصل هذه الثنائية السردية ومنظوماتها متحوّلا إلى التوظيف الأحادي لتقنية السرد ومستوياته، حيث يوظف تقنية الكابوس الغرائبي في نص "الصاروخ الخشي" بينما يذهب إلى تقنية الفلاش باك كما في قصة الجزدان.

إن خيارات القاص في اعتماد مرتكز الثنائية السردية يخلق فضاءا لتنوع مستويات السرد ضمن صيغتي "المتكلم- الراوي العليم" تأتي هذه الثنائية التركيبية موائمة للتوظيف الثنائي والمكون الجدلي ل "الواقع-الذات" كما أنّها موائمة للعبة التداول الزمني المتغير والتناوب الحكائي بين "الفلاش باك" للعودة للماضي وبين الذهاب إلى المستقبل الافتراضي عبر "الكابوس الغرائبي".

إنّما الممارسة التي يعتمدها القاص الدكتور زهير شليبه لتأشير مخاضات الوعي الجمعي عبر تداولية حركة "الوعي-اللاوعي" الفردي الأنوي الذي يواجهه به واقعا كابوسيا متنوع الصيغ والمسارات كما يظهر بتنوع خيارات التوظيف التقني السردية وبلورة الثنائيات السردية والجدلية عبر منظومات القص المؤطرة بكوابيس المنفى كوجود خارجي والاعتراب كمفهوم أنوي داخلي...

* أوروك علي شاعر وسينمائي عراقي مقيم في الدنمرك

السيد حافظ: "مجموعة قصص كوايس المنفى للدكتور زهير شليبه" التجريد الذهني في اللوحة السردية.

زهير ياسين شليبه كاتب وباحث ومبدع عراقي ولد في العراق عام 1954 ودرس الآداب في روسيا وعمل باحثا بعد تخرجه ودرس الترجمة وله العديد من الدراسات والأبحاث ونحن الآن أمام آخر إصداراته الإبداعية وهي مجموعة (كوايس المنفى). وهذه المجموعة تثير في القارئ رغبة عارمة في فهم الواقع أكثر أو السخط أو اتخاذ موقف. إن زهير شليبه مهتم بالشعر جدا. في مدخل المجموعة يرحب بالقارئ بقصيدتين. هذه المصادر الشعرية تثير في نفسك الشجون ففي القصيدة الأولى "الأحلام" يقول:

مطر ورعد وبرق

يا إلهي أمي.. أبي.. أبي

يخرج الديناصور من بيضة تتكسر في فمي

فمي لم يعد فمي

والرمل لم يعد رملي

وقشور البيضة لم تعد قشوري

تشرق الشمس من بعيد

وفي القصيدة الثانية "الحنين" يقول زهير ياسين شليبه

كان لي هناك في بلاد الجليد

مهجع خرب فيه كتب كثيرة

وأوراق ووثائق وأعناق

ومغلفات بريدية.. تحتضن أسراراً

لم تعد تشتري أو تباع

ماذا بدأ الكاتب مجموعته بقصيدتين ثم دخل إلى قصته الأولى "ذاكرة البحر"؟ هذا السؤال البسيط الذي يبدو ساذجاً يجيب عليه الناقد العراقي عدنان المبارك في مقدمته للمجموعة:

" لهذه القصص نسيج غير مألوف والسرد فيها يخلق الانطباع بان القاص يتقمص دور الراوية التقليدي إلا انه راو ولا يهم ان كان هو المتكلم أو المخاطب أو ضمير الغائب يكسر الإطار التقليدي الصلب ". ويقول في سياق آخر: " أبطال هذه القصص.. لا يستلون حكمتهم من الكتب بل من تيار الحياة الفعلية الذي يعرفهم في أحيان عدة.. وفي الواقع يصعب فرز هذا النمط من الأبطال وتصنيفهم ضمن خانة غريب البير كامي".

في قصة ذاكرة البحر يختلط الحلم بالواقع.. والبطل في رحلة الى خارج النفس والى بلاد.. انها رواية، اقصد مشروع ديوان شعر متناثر واقتناء من الذاكرة الشعرية. " ان هذه القصة تطرح في ملامحها ما بعد الحداثة أو العولمة وفي هذه القصة تسند العجائبية في سرد الراوي إلى الواقع ويمتزج الخيال بالأيديولوجية " (1) إن البطل ذهب الى بلاد تمثل البراءة والطهارة والطبيعة البكر.. ولقد استخدم زهير ياسين شليبه كثيراً من القصص الشفاهي والتلميحات والتعمية المقصودة والمأثورات الشعبية. ان الكاتب معبء بأشياء كثيرة معلبة يسرب إلينا مفردات وأشعار وحكايات وصياغات.. إنه حاول أن يصدمننا في بنية تركيبية للأسلوب والفكر". إن الكاتب الفذ في نظر جولدمان لا يخلق عالماً وهمياً لا جذور له في أرض الواقع وانما ييلور في اغلب الظن المطامح العميقة واللاشعورية لطبقة اجتماعية معينة انه يبرز الى حيز الوجود بفضل قدرته التعبيرية الخارقة ما هو كامن في ضمير الجماعة.. " (2)

إن زهير ياسين شليبه لا يجعلك في حالة فرار من عالمه بل يحاصرك. إنه يستوعب جميع إمكانيات استغلال النص على مستوى الشرح او التفسير باستخدام الشعر واللقطات السينمائية.. واللغة بالنسبة له ضربٌ من ضروب تنظيم المعنى وتنسيقه ولديه قدرة توليدية للغة.. وقد يشعر بعضهم أن زهير ياسين شليبه قد تأثر بالتصور الماركسي للتاريخ والمادية الجدلية

لكن الحقيقة أنه مهتم بتحليل أساليب السرد واستخدامها في القصة في إطار ممكن أن يطلق عليه باللغات الشمولية فهناك استخدام للغات الروسية والأسبانية والعربية والفرنسية والصحراوية. وهو يحاول إن يقترب من الكتابة السوسولوجية ويربط بين جوانب الوعي واللاوعي والمناطق الحرة والتلقائية في الأداء الدينامي للغة النص. وبين الميكانيزمات العقلية والنفسية.

زهير ياسين شليبه يحاول الربط بين وظائف النص ونموذج النمو التوليدي الذي ابتكره شويسكي والذي يفترض ان الأبنية التركيبية في كل لغة تشمل نصا أساسيا يتكون من المفردات وبعض المقولات والمكونات الأولية ونسقا تحويليا يوظف في عملياته المتصلة بمستوى المعاني للطبقات العميقة من اللاوعي التي طمستها الأيدولوجية الغربية في صورة الكلمة (3) إن المجموعة تحتوي على المقدمة الشعرية ثم القصص التالية (ذاكرة البحر . الواحة الخريفية، مدرسة السياقة، الغيوم، الهروب، العينان الدائرتان، الصاروخ الخشي، الجزدان، اللقاء الموت، لقاء في مكتب اللاجئين، حكم الإعدام، . موعد ترجمة) ثلاث عشر قصة قصيرة معظمها مشاريع لروايات كثيرة سقطت معظمها داخل الكاتب.. فهو مشحون بعوامل كثيرة وأحداث كبيرة تدفعه إلى التحليل في عوالم مختلفة.

إن زهير شليبه في كل مشهد يعطيك الإحساس بالخيال البصري من حيث رصد الشواهد العيانية وإقامة العلاقات بينها أو المقابلة أو المجانسة أو التقاطع أو التعالق كي يدير هذه العلاقات على النحو الذي يضمن استمرار عناصر المشهد السردى امامك مرتبطة بخطوط ظاهرة أو خفية رغم ذلك فإن لوحته السردية في القصة تكاد تصل عناصرها الى حالة من التجريد الذهني الناتج عن تركيب العلاقات لا يمكن استيعابه الا بعد أكثر من قراءة. وربما يعود هذا” إلى توضيح فداحة الخراب الذي يحاول المشهد الإيحاء به ومدى عمقه وتجذره اللاهائي بما يجعل من الصورة البسيطة التركيب قادرة على بث هذا الأثر "

إن القصة التي لفتت انتباهي هي (موعد ترجمة) لأن الكاتب ترك البساطة تتحكم في مجرياتها.. يؤخذ على هذه المجموعة الملاحظات الأولية: إن الكاتب يترك نفسه لحاله التوهج ولا يتدخل بعد الكتابة لعمل مونتاج لبعض المواقف أو الحوارات وعملية المونتاج للمبدع سواء في القصة أو الشعر أو الرواية مهمة للغاية حتى يكون الإيقاع في حالة توهج دائما.. أما الملاحظة الثانية هي ان بعض القصص كان يمكن ان يكون مشروع رواية كبيرة ولا اعرف لماذا تسرع الكاتب وجعل منها قصصاً قصيرة. أما لماذا يكتب زهير شليبه القصة القصيرة فهو يقول: لقد قرأت القصة القصيرة وكل الأجناس أو الأنواع النثرية منذ صغري ثم حفظت عن ظهر قلب الفوارق والاختلافات بينها في دراساتي الأكاديمية، وصرت أميز بين الأصوصة والقصة القصيرة شورت ستوري وبين القصة الطويلة "بوفست" الروسية، والرواية أو الرواية التاريخية والأنواع الأخرى والملحمة والخ في بعض اللغات الأوربية مثل الإنجليزية والروسية. إلا أنني عندما بدأت أكتب فأزعم اني لم أفكر بأني سأكتب قصة قصيرة. القصة الأولى ذاكرة البحر، يمكن ان تلاحظها انها مشروع قصة طويلة أو رواية أو على الأقل انها الفصل الأول من عمل ملحمي طويل وهذا ما فكرت به بعد ان اتممتها، الا أنني لست كاتباً متفرغاً ولذا كان عليّ أن أنشرها ولا انتظر كتابة الفصول الأخرى من هذه الرواية. المهم عندي هو الحرية الإبداعية وأنا في كتابتي لهذه القصص قررت منذ البداية أن أمارس نوعاً من الهلوسة في بعض الأحيان. وفي الحقيقة اني كنت في تلك الفترة أعاني من الوجد ومرارة الحياة والتعمق في كنهها وأسرارها ولذا كتبت في هذا الاتجاه، ومن المؤسف أنني اختصرت منها العديد من الصفحات الوجدانية والهموم التي قد تبدو تشاؤمية للقارئ ومعقدة أو صعبة الفهم. هناك أمر آخر بالنسبة لي هو التلميح لا التصريح، فأنا عندما أتناول قصة أم عراقية تطلب معرفة تفصيلات حلم رآته ابنتها المراهقة في نومها أو أن والدها يريد أن يعرضها على الدكتورة النسائية خوفاً من انها فقدت في حلمها شيئاً عزيزاً عليهم، المقصود هنا بكارتها. تصوروا أن والد الفتاة يفكر أن إنبتته فضّت بكارتها في الحلم!!

* مجلة البيان 522 رقم العدد يناير 1 السنة 2014 الكويت

* السيد حافظ، كاتب مصري

نصوص كوابيس المنفى لزهير شليبه حيوية لدرجة أنها تجعل القارئ يجلق عالماً في عالم
السر!

قراءة لمجموعة كوابيس المنفى للدكتور زهير شليبه

حين قرأتُ مرة مقالاً للدكتور زهير شليبه شعرتُ وكأنني أقرأ لأول مرة اللغة العربية بمفهومها
الذي يعجبني ويأخذني بطياته إلى حيث المتعة والاسترخاء.

القراءة بالنسبة لي متعة وعالم آخر ولكن، كانت هذه المرة تختلف عن المرات السابقة حيث
وجدت نفسي أتغلغلُ في كل المعاني وأغوص في المفردات بل حروفها وأنسابُ إلى
فضاء غير محدود من متعة الكلمات، المتجسدة فيها كم البلاغة يأخذني وكأنه يحملني بيديه رافعا
إياي إلى عالم أفتقرُ إليه كثيراً.

قلما نجد كتابات قصصية تتميز بعدم تكرار الوصف والتشبيهات واستخدام نفس المفردات
والتركيبات اللغوية الإنشائية مما يمكن ملاحظته بكل سهولة في العديد من الإصدارات القصصية
الشائعة.

وهنا أكاد اجزم بأنه يصعب على قارئ كوابيس المنفى ان يجد تكراراً كثيراً لنفس المفردات او
العبارات او الحالات الوصفية او السرد التقليدي مما يعطي للغة وعالم القص حيوية خاصة مهمة
بالنسبة لتفاعل المتلقي مع النص بحيث يشعر وكأنه أمام كائن حي متنكر في عدة ازياء لاعبا
مختلف الأدوار، يأخذ بيديه هامساً في أذنه عن عوالم ابطاله.

أجدُ نفسي أقرأ ولا أرتوي أو أشبع ابدا طالما تتمتع عينا في المفردات وما خلفها. أعيد القراءة
مرات ومرات وأعاودُ الإعجاب في كل ما أقرأ كأنني أتعلم لغة جديدة تعشقني وأعشقها.

لكني وبدون شعور مسبق مني او إرادة سرعان ما أجد نفسي تخلق فوق صفحات بيضاء تود ان تنطق بما طرأ على هذه المشاعر وانقلب حالها..

لا بد من الإشارة إلى تقلب الأحوال، طريقة كتابة الدكتور زهير شليبه، التي تستهويني لأنها تبعد النص عن الركود، الذي أمّله وتعطيه حيوية. أنا شخصيا يعجبني اي نوع من التقلبات وهذه هي حالي تنقلب رأسا على عقب حيناً وتهدأ أحيانا كثيرة....

فأجأ إلى قراءة زهير شليبه عندما اشعر بالرغبة في التحليق والملاذ محاولة حفظها عن ظهر قلب في بعض الحالات والتأمل فيها بعمق.

لقد وجدت في هذه القصص حيوية لم اعدها في قراءاتي السابقة قد يكون السبب في التنوع اللغوي والانتقالات ما بين الحكيمية والفصحى وكثرة الأمثال والسخرية والنقد اللاذع لواقعنا. ما يهمني في هذه القصص هو الحالات او اللحظات الشعرية وكأنني امام موضوعات متعددة ومتنوعة تصلح كلها للتعلم والتفكير فيها لكونها تجسد ذواتنا العربية وما يجيش في دواخلنا النفسية.

لست ناقدة ولا ارغب بممارسة هذا النوع من الكتابة النقدية او بالأحرى لست قادرة على عمل ذلك إلا أني أحب الكتابة عن نصوص التحم بها ولذلك كتبت هذه السطور عن أدب الدكتور زهير شليبه.

*رؤى اللحام، شاعرة فلسطينية مقيمة في الدمرك

شعرية المنامات في كوابيس المنفى

للقاص العراقي زهير شلبية

إسماعيل غزالي*

"الحلم طاقة كبرى للكاتب، لا لأنه يؤدي الى النكوص والسلبية بل المجابهة التي اصطلح عليها حديثا بـ (الحرب الناعمة)" محمد خضير

ليس محض اعتباط أن يصدر القاص زهير شلبية قصص مجموعته كوابيس المنفى بنصين شعريين، الأول تحت عنوان: الأحلام والثاني تحت عنوان: الحنين.

فبالقراءة الممعنة في متن المجموعة وموضوعاتها وباستكشاف واستغوار تجربة تخيلها يتأكد بما لا يجانب صدى وروح ونبض ما يستبطنه منجزها السردى وما يفصح عنه في آن، بأنها كتابة قصصية تتأرجح بين صخب الأحلام / الرؤيا وجسامة كوابيسها وبين ولع الحنين / النوستولجيا ومضاعفاته الوخيمة.

يكاد يلتبس علينا التعالق المثخن بين صوت الحلم وهسيس القصة مما يجعلنا نساءل على هامش القراءة الأولى:

أين يبدأ الحلم وأين تنتهي القصة؟ أين تبدأ القصة وأين ينتهي الحلم؟ هل يزدوجان أم ينفصلان؟ هل هو مكر النص الذي يوهنا بأنه قصة تؤول إلى حلم؟ أم هو فح النص الذي يوهنا بأنه حلم يؤول إلى قصة؟

الحلم هنا هل هو معيار لخرق الواقعي؟

والقصة هنا هل هي ما يقع خارج مدار الحلم وغياياته أم ما يقع داخل غياهبه ومناهاته؟

هل الحلم هو القصة ذاتها؟ هل القصة هي الحلم ذاته؟

هل يمكن فرز سيرورة للقصة من جهة وسيرورة للحلم من جهة أخرى؟

وهلم أسئلة نكتفي بما يدخل في حاشية اهتمامنا بأساليب وأشكال تحقق إبداعيتها في تجربة هذا المنجز الحكائي الأول لصاحبه القاص العراقي الذي نذر حياته لصقيع المنافي: زهير شلبية.

إن استراتيجية الكتابة في كوابيس المنفى تتعلن داخل أفق يستثمر الحلم / الرؤيا كخلفية جمالية وتقنية لفن القول القصصي إذ تنتصر طرائق الاشتغال - على المنامات كمادة خامة - إلى لغة قصصية ذات روح فانتازية تؤسس لجمالية التوازن بين العادي واللامألوف بين الذاكرة والمتخيل بين الذاتي والموضوعي بين الداخل والخارج وغير معنية أبداً بفعل تدوين الحلم كما هو، أي كوثيقة مطابقة له بل تنجح منذ البداية في خلق معادلة بين مستويين متداخلين ومفارقين في آن:

مستوى ازدواجية القصة والحلم.

ومستوى تمفصل الحلم والقصة.

والشخصية القصصية المركزية التي تحيل في تداعيات كثيرة على ذات المؤلف، هي من يقوم بفعل سرد الحلم وهي نفسها موضوعه أي الفاعلة فيه، والكتابة لا تفصح عن مناخ الكوابيس هذا إلا بعد لحظة الاستيقاظ من ضبابية المنام عند نهاية كل نص - باستثناء قصة الصاروخ وموعد ترجمة - وبالتالي فتجربة الحكمي تشرع في الإيهام من البداية بأن ما يحدث من وقائع يحتمل الصدق يجعلنا نتموقع معه داخل لحظة الحلم نفسه دون أن نعي بأنه كذلك بل نركض وراء التفاصيل والاستطرادات وحالات تعاقب الاستذكارات إلى أن يباغتنا بحقيقة أمر أضغاث مناهة النوم تلك ونستيقظ معه فاركين عيوننا خارج مياه الرؤيا المألحة.

(في النوم رأى حلاماً آخر، لكنه طويلٌ وجميلٌ، تدكَّر فيه والدتهُ وطفولتهُ ومدرسةُ السياقة والشيخ الجليل طويل القامة صاحب الوجه المستطيل، بطلَ الحرب وحببيته المناضل أبو الريش، وطبعاً والدتهُ والشروذ الذهني.

وها هو اليوم يستيقظ من نومه بعد سنواتٍ وتنقلاتٍ كثيرة ليرى كل هذه الصور المتشابكة في حلم طويل كالكابوس، في نوم عميق ورأس ثقيل بعد حفلة السبت، لم يلتقط من صورها غير تلك التي أحبها، فما عليه الآن إلا الباخميل* الروسي ودعابات الروس في المقهى ليتذكر المقاطع الأخرى من حلمه مستمتعا برؤية الأهل والديار. قصة مدرسة السياقة.

تنهض قصص كوابيس المنفى على توظيف الحلم بشقيه الرؤيا والكابوس كخلفية استعارية يقوم فيها فعل الكتابة / الهذيان على إعادة تشكيل الوقائع عبر تخيل يستند الى الذاكرة والواقع. إن ما يفعله القاص زهير شلبية هنا هو تهميش صور الذاكرة من خلال وسيط الحلم وهو ما يجعلنا نتساءل أيضا حول هذه العلاقة بين الحلم والذاكرة. هل هو تماثل أم انفصال وانشطار. ولأن تجربة القصص هذه تقع داخل الفضاءات الهذيانية والاسترجاعية واللاواعية فهي تستثمر الحلم كتقنية لخرق الواقعي وإن كانت تخيل عليه دون أن تلغيه وتقصيه وتنفيه بل يتحول بدوره الى ممارسة رؤيوية غير مزاحة تماما عنه كما لو يتعلق الأمر بكولاج وتوصيف أدق فيمكن القول بأنها كتابة فضائية لاواعية تحتكم الى مصادر الذاكرة وواقعيتها. فهي قصص توهمنا بواقعيتها دون أن تكون كذلك كما توهمنا بكلاسيكيتها دون أن تكون كذلك ودون أن تفرط أو تغالي أيضا في شكلايتها رغم انفتاح صاحبها على هكذا مرجعيات وحساسيات. أي أنها ترهن على اقتصاد الرؤية واللغة واجترار التوازن بين العوالم والرؤى والأدوات والأساليب المفارقة... وفعل الإيهام لا يقف عند هذه الحدود والتخوم بل يكاد يكون لعبة كوابيس المنفى بامتياز. (رجع بالذاكرة إلى الوراء بعيداً: شهر، شهرين، سنة، سنتين، ثلاث، أربع، خمس،... عشرة أعوام، بل أكثر. ياله من انتصار، يكاد عقم الذاكرة يندحر)، قصة ذاكرة البحر.

تستند قصص المجموعة إلى منطق الاستطرادات وفتح الهوامش لاسترجاعات لائحة قائمة على الفلاش باك والنوستالجيا تمور بها وتضطرب أفقية الحكيم، إذ لا تخلو أي قصة من الاستحضارات الملتهبة والاستذكارات المحمومة التي تتخلل تعاقب الوحدات السردية إن زمنياً أو حكاثياً وهي التقنية المهيمنة التي تستثمرها خطية الكتابة في المجموعة وتلك ذريعة النص التي يتحقق عبرها متخيل القصة بتوسيع الحواشي والدوائر دون أن ينفلت خيط الحكيم حيث اعتقدنا وقوفه وانقطاعه (نموذج قصة الغيوم التي تنفرد بخصيصة لغة واصفة يتخيل فيها السارد أكوام الغيوم كنساء عجائز ومن بينهن الجدة الروسية البابوشكا ماريا ايفانوفا التي كانت تسير في مقدمة المظاهرات الصاخبة احتفالاً بالانتصار على الألمان بصدر كله نياشين، فيسترد

السارد منخرطاً في رؤيا يظهر فيها العم أبو نبيل بائع الحمص العراقي وأيضاً خالته الوحداينة فيتذكر صفة العسكري على خده بسبب قراءة قصيدة اتهم فيها بسبب الحكومة ويطفو إلى بحيرة التفاصيل عصام في صورة أخرى يضربه العسكري بمبرر تهمة شتم الحكومة دائماً لأن رمزية خلع ضرره تحيل على خلع النظام إلى أن يستقيظ من حلمه على صوت زوجته التي سيحكي لها قصة الجدة ماريما والعم أبو نبيل والعسكر والمخابرات والرمل والسلحفاة والأفعى ويعرقان معا في ضحك (...). ومع كل عودة إلى حيث تمفصل خيط الحكاية لا تكون دائماً مأمونة بل محفوفة دائماً بمخاطر الدخول من جديد في استطراد آخر فيما يشبه بنية حلزونية يتم خلالها استرجاع مواقف وحالات راقدة تحت حجر اللاوعي يوقظها الفعل المتوقد لآلية التذكر المرح ويمضي بنا في مآزق ومتاهات ونتوءات وسيناريوهات. تفضي بنا على لحظة صحو لاذع للشخصية القصصية من إهليلج منامه المثخن على هامش كل صباح زائر (قصة مدرسة السياقة خير نموذج على ذلك).

هذه البنية الافتراضية لقصص كوايس المنفى تقودنا إلى ملاحظة انزلاق كل حكايات المجموعة إلى بؤرة حلميتها بالشكل الذي لا يعني أنها قيد الحدوث في المنام فقط بل كما أضحنا إلى ذلك سابقاً بأن مرجعيتها واقعية بامتياز. فالغرائبي هنا والفانتاستيكي هو لحمة اليومي ولا يتعلق الأمر بالخارق العجائبي الذي ينتهك كليا المنطقي والعادي أي أن هذه الروح الغرائبية لا تقف على النقيض التام مما يقع خارجا فالواقعي يتآلف مع الخيالي بشكل يجعل القارئ يتمثل سؤال الثنائية وهاجسها الحاد: الكذب / الصدق. حيث أن التناغم بين اللامعقول والمعقول وبين الواقعي واللاواقعي سائغ حد التماهي.

مثل الضباب المتردد يتكاثف السرد في تموجات ويكاد يتلاشى في انحسارات. وعبر فضاءات المنامات هندست القصص لحظاتها الاسترجاعية والتذكارية والاستعارية حيث تنتفي الحدود بين لحظة الماضي والحاضر إلا في انكشافات الحكاية التي يقر بها منطلق الأفعال وإيقاع زمنيتها. وبالقدر نفسه الذي تتقدم فيه النصوص ككتابة لسيرة الحلم هي أيضاً كتابة للذاكرة كمحفيل

استيعادي تلتهم فيه الصور واللوحات والذكريات المتباينة والمتداخلة يؤالف بينها المحكي والمتخيل انطلاقاً من تشكيل يأخذ صيغة لولبية أحياناً وبصيغة تماوج سردي فيه مد وجزر أحياناً أخرى

...

وفي هذا المنحى يحتفي زهير شلبية بذاكرة منافيه بين الصحراء الكبرى وموسكو والدانمارك ... فكوايبس المنفى كرنفال لالتقاط تفاصيل حياة الجاليات العراقية على وجه التخصيص

والعربية بشكل عام، ما يشبه الرصد المحموم لتداعيات جيل وتناقضاته ومفارقاته وأحلامه وخيباته وإخفاقاته وانكساراته وأوهامه ... تتعقب الكتابة خلاله عن كنب أسلوب عيش شخوص في تجربة الغياب المر هذه التي يشرق فيها الحنين الجراح والغازر لسديم الوطن الأم - العراق - حيث تتألق في المرايا شقاوة الطفولة وبلاغة الأمومة وفضاظة الأب وشبح الحروب المتعاقبة وكوايبس الاعتقال والتعذيب ورمادية النضال والعيش وملاذ الهروب ...

كتابة الذاكرة هنا لا تعني ولا تستهدف التوثيق، إنما هي كتابة انشطارية تحاول القبض بما أوتيت من حنين للمنفلت من الصور داخل الوجدان المغترب والقلق واللامستقر. تشخص لنمط وجود مزمن يتداخل فيه المأساوي بالكاريكاتوري. إنه نسيج العتب والفوضى والضحك والسخرية والجنون والموت والحب والخوف والأقنعة واللامعقول ...

وإن كان متن كوايبس المنفى الحكائي يحتكم إلى بنية حلمية يبدو فيها متخيل النصوص الثلاث عشرة علائقياً تتواشج فيه الرؤيا بالكوايبس فهذا الترابط المركزي يوازيه تعالق آخر لا يقل أهمية وقصدية على مستويين:

- مستوى اللغة: التي تراهن على التعدد في صوغ سرديتها ورؤيتها الفنية إذ يوظف خطاب القصص العامية العراقية والمغربية وبعض نماذج اللغة الروسية والدانماركية إلى جانب الفصحى وتجدر الإشارة إلى أن زهير شلبية يمتلك قدرة هائلة على تطويع الخطاب الدارج وتسويغه بشكل يضاهي إبداعية الفصحى ومحكياته الأقرب إلى المرويات الشعبية تعتمدها القصص كتلوين يبدو شفاهياً أو شفويًا في نبرته العامة غير أن القراءة الفاحصة تفرز مدى نجاح النصوص في التأسيس لشاعرية الكلام.

- مستوى المكان: الموسوم بالتعدد أيضا فالقصص تسافر بك عبر فضاءات مختلفة ومتباينة بين موسكو والدانمارك والعراق الخ بالشكل الذي يجعلك تقف قريبا من نبض أسلوب الحياة السائد في هكذا بلدان دون أن يسقط في فخ السياحة والفولكلور.

ونحن نقرأ كوايبس المنفى لا نستطيع مقاومة السخرية اللاذعة كما زيد نهر في خطاب القصص، سخرية تجعل من نموذج ذاتها منطلقا نحو حيوات الآخرين والأشياء كما لو أنها إدانة فردية بصيغة الجمع وهي متراس الشخصية القصصية المصوب عبر أحلامها وهذياناتها الحرى ضد قتامة الواقع والتاريخ والذاكرة والزمن دون أن يفهم من الأمر تلك الرؤية السوداوية للعالم... ويبقى أن نشير إلى أن **قصص المجموعة** وهي تكرر لشعرية المنامات القائمة على استمزاج الواقعي بالكابوسي، التخيلي باليومي، الغرائبي بالعادي، المعقول واللامعقول، الذاكرة والوهم ... كان بإمكانها أن تتحول إلى رواية بالنظر إلى أنها تشتغل على نسق مشترك من الموضوعات والمضامين والقيمات وتتفنس أيضا بذات الرثة في خارطة كتابتها ودليلها التقنوي فقصص "ذاكرة البحر" و"الغيوم" و"مدرسة السياقة" يمكن قراءتها كفصول من نص روائي وهو ما يؤكد أيضا أن قصص المجموعة تتصافر لخلق أيبسوديتها الدامغة.

وبهذا تكون كوايبس المنفى قد أضافت لرصيد ما يسمى بأدب المنفى - إن جاز التوصيف - لحظة جمالية متميزة من شأنها تعميق خرائطية هذا المنحى من الكتابة غير المنسلخ عن وجدان منابعه وتشكلات كينونته الأولى، والمنزاح في آن عن السائد بموضوعاته الإنسانية الخاصة وطرائق اشتغاله الرصينة وأساليب قوله الجديدة.

• إسماعيل غزالي، روائي مغربي

زهير كاظم عبود: قراءة لكوايبس زهير شلبية، لقطات دقيقة من واقع حياة المنافي
قد تكون كوايبس المنفى قاسماً مشتركاً يمكن ان يستل منه القاص الدكتور زهير شلبية قصصه
القصيرة، غير أن متابعة بسيطة لهذه الكوايبس يظهر فيها الكاتب نفسه محورا من محاورها
الأساسية. اوهمنا زهير شلبية انه يسرد ذكرياته أو لنقل انه تمكن من تطويع الحكاية الى حالة
عامة قد نبدو نحن شخصياً ثيماتاً الأساسية حتى نصحو على قصة أخرى، وفي هذا قدرة على
تمكن القاص شلبية على التقاط العام وتوظيفه لصالح الخاص، بالإضافة الى قدرته على استلال
لقطات دقيقة من واقع حياة المنافي وتداعياتها وكوايبسها.

قدم لمجموعته التي طبعها مركز الحضارة العربية في القاهرة 2004 بقصيدتين الأولى كتبها في العام
1990 في مدينة روسكلده والثانية في العام 1986 في موسكو، ليشير لنا الى الامتداد التاريخي
العميق في روح الكاتب الهائمة بين المنافي، فقد أكلت روحة مدن الثلج والرمل والسكون،
فتوزعت شظايا روجه بين مدن باردة ولم تزل ذاكرته تحتفظ بدفئتها العراقي وحكاياتها الشعبية.
لم تكن تجربة الكاتب زهير شلبية جديدة، مثلما لم تكن متحددة في مكان واحد، ولهذا تأتي
قصصه موزعة بين الصحراء الكبرى وموسكو ومعسكر اللاجئيين في ناكيبول جزيرة فوين
بالدنمارك ثم في المدينة التي استقر فيها أخيراً ينفق فيها بقية ايامه بحميمية، وهو بهذا التوزيع
ينتقي لنا حكايات يستلها من وجع الإنسان يربطها كلها بالمكان الذي علق في ذاكرته منقوشاً
فوق ثنايا روجه في الوطن الأزلي. ويعمد شلبية الى توظيف التناقض في الكوايبس ففي ذاكرة
البحر حيث يسافر فوق الامواج ويشم رائحة الموت وهطول المطر على ساحل البحر وهو القابع
وسط اكبر مساحة من الرمال الشاسعة حيث لا بحر ولا مياه. وفي قصة (مدرسة السياقة)،
ينتقل من وصف معلم السياقة الى بارود ومفردة سكين وملح التي تعيظ الرجل الذي ضيعوا له
عقله ودربه في العمل السياسي فبات ابو الريش، غير انه يصحو ليلتقط انفاسه بعد سهرة
السبت التي يبدد فيها سكرته بكسر اخماريتها بما يقولونه له في روسيا الباخيل.

في مجموعة الدكتور زهير شلبية القصصية هذه نكهة نشعر معها بحجم الجراح التي نالت من
جسد العراقيين وبعثرتهم، وبالغت في تشردهم وتوزيعهم في مدن قصية وفي بلاد لم تكن يوماً

ما في البال أو الحساب. الكوايس التي قدمها زهير شلبية جزء مهم من وجع الإنسان، ويتعايش معه ويسكن معه ويحملها بين جنباته وبين ضلوعه، بل ونعيشها كلنا ونشعر بها وتحدث لبعضنا، غير أنه أراد ان يوثقها بشكلها الجميل وبقدرته الفائقة التي اكتملت صورتها عنده في الذاكرة أو من خلال البوح الذي يخزنه في روجه من الغربية.

نسيج القصص ربما خليط مما خزنته ذاكرة القاص وما تخيله ليوطفه قصصاً وحكايات تتحرك داخل الوجدان وتتناغم مع أيام العمر لجيل توزعت أيامه بين الكوايس في الوطن والغربة، وفي كل الأحيان فإن الكوايس هي القاسم المشترك الذي دخلت في حياة جيل زهير شلبية. وضمن مقدمة قصصه التي يبدأها بذاكرة البحر تشعر عمق المعاناة التي فجرت داخل روجه أسس الإبداع في التخيل الواقعي وتلمس الموجود ليعيد ترتيبه وصياغته بموهبته الفطرية التي تنامت الى موهبة قصصية بعد أن تترس بالنقد والترجمة اقترب من روح المبدع غائب طعمة فرمان ليصير لصق روجه بالأضافة الى كتاباته الأكاديمية عنه مندفعاً بإرهاصات روحية ومشاعر شخصية فتتحول قصصه اليانعة الى خيالات مثل غيوم البلاد التي أثقلها المطر.

حتى أن كوايس المنفى التي يحدثنا عنها الدكتور زهير شلبية شكلت لنا أحلاماً كنا نحن قاسمها المشترك، بالرغم من أن الإنسان في غياب إنسانيته غريباً حتى وأن كان في وطنه، ولهذا فإن الكوايس التي تحتاح تخيلته وأحلامه في المنايا لا تقل قتامة وحرقة من كوايسه داخل الوطن في غياب الوطن. استطاع زهير شلبية ان يتلفلف داخل دقائق ارواحنا ويسرق من وقتنا وساعات أعمارنا ليصير لنا شريكاً أو متحدثاً ونحن ننصت له بتواضع التلاميذ لأستاذهم، فقد كان موفقاً في توظيف ماخزنته ذاكرته المشبعة بالنفي والضياح وفراق الوطن، الى مجموعة من القصص القصيرة جميعها تتحدث عن كوايس المنايا.

ولذا يقول عنه الكاتب المبدع عدنان المبارك انه يستعمل لغة تفوح منها رائحة اليومي (المألوف) ونبضة، ومن الواضح انها لغة ذات تركيب املتها الغاية منها السخرية ونزع اقنعة الانسان بشتى اصنافها. استطاع الدكتور شلبية أن يدخل تفاصيل يومية من البوح العراقي ضمن كوايسه، فقد كان لصيقاً بهذا البوح كامناً ضمن تفاصيله، وموفقاً في التقاط مايجده يوجع الذاكرة ويدخل

ضمن تفاصيل الكوايس التي تتابنا في المنافي، ويؤكد الكاتب عدنان المبارك في مقدمة المجموعة ان ابطال القصص لا يستلون حكمتهم من الكتب، بل من الحياة.

كوايس المنفى التي أصدرتها مؤسسة مركز الحضارة العربية في القاهرة 2004 منجز أدبي عراقي يشكل علامة بارزة من علامات الإبداع العراقي في زمن الغربة والمرارة، ودليل على تألق المثقف العراقي مهما قست ظروف المنافي والحياة عليه، حيث يوظف كل الإبداع من اجل أن يبقى ملتصقاً بخيط يشد روحه المتشظية في البحار والبلاد المنتشرة على خارطة الدنيا وفي المدن التي لم نكتشفها بعد، يبقى اسم العراق متألقاً وكامناً في أرواحهم، حلماً وأملاً وكوايس وحكايات يتحدثون بها مع أطفالهم الذين ربما كانوا يمتلأون بأحلام الحكايات الحلوة، وربما بكوايس المنافي التي استطاع زهير شلبية أن يقدمها لنا على طبق من الورق الفضي الأنيق، بعد أن زينها بقصيدتين الأولى احلامه التي تمتد من الدنمارك محترقا بجور الصمت وموائء الغربة، ممتطياً بروقاً ورعد ومطر، عابراً طرق الرمل والآلام مسكوناً بشوارع بابل والحكايات التي لم تزل تظن في ذاكرته، ثم في الحنين التي أذاب بكلماتها جليد البلاد التي غلفتها، ومضى يصنع النار التي يشوي بها أسماك العراق ولهب الكتب المحترقة من أثر الكلمات الملتهبة والأحاسيس التي أذابت جسد الجليد في غربته الباردة، والرسائل التي اختفت مع أسرارها والقصص التي يكتبها على الحيطان والنار التي تلتهم العمر وتحيله الى رماد في الذاكرة.

13 قصة قصيرة توزعت ضمن هذه المجموعة التي أضافها القاص زهير شلبية الى نتاجه الغزير واسهاماته في الثقافة العراقية بعد ان تألق في دراسته النقدية عن المبدع العراقي غائب طعمة فرمان - دراسة نقدية مقارنة عن الرواية العراقية - 1996 ودراسته عن ميخائيل باختين 2001 وقبلها مختارات من الشعر الدنماركي 2000 و: انطولوجيا الشعر الدنماركي الحديث.

* زهير كاظم عبود. كاتب وقاصٍ عراقي

د. حمزه عليوي*: كوايس المنفى لزهير ياسين شلبية: ذاكرة الغائب وتمثّل المكان البديل

يستدعي الغائب، إزاء إقصاء مدمر، المكان ومظانه الثقافي، وتشكّلات ساكنيه الحكائية، عبر (رؤيا) سوف يحولها المكان البديل (المنفى) الى (كوايس)، يعيد انتاج فعل الإقصاء ذاته في ثلاث عشرة قصة تالفت منها مجموعة القاص العراقي المغترب الدكتور (زهير شلبية)، الصادرة في القاهرة عن مركز الحضارة العربية. لا يبدو غريباً، أن تسعى هذه القصص، الى تلمس آثار الإقصاء على ذاكرة المعيّب عن أمكنة الولادة والتشكّل، ومخيال الغائب في الامكنة البديلة، التي لا تخفي هذه القصص صلتها المقلقة بما، بدء من عنوانها ذي التركيبة المتضايقة (كوايس المنفى)، والتي لا تُخفي سمتها الإشهارية الفاضحة، مروراً بثيمات السرد التي يعاد تكريرها، وبنية الاستدكار عبر سارد يدرك، حقاً، صفته الثقافية المنقسمة على ذاتها، كراوٍ غيّبه إقصاء مستمر عن مكان يختزن ذاكرة لاذعة، ملؤها الناس بحكاياتهم المتعددة، وافعالهم العجائبية، التي يعمد السارد الى ترحيلها الى المكان البديل بحياة كابوس، أو كوايس، هي، في المحصلة، جزء رئيس من الثقافة المتحول اليها وامكنتها المقلقة. وهو، أيضاً، الراوي ذاته الذي أقصي الى ثقافة اخرى، وامتلئ بفراغات الامكنة الجديدة، طالما ان شخصيات هذه القصص، تتحول اليها بفعل الإقصاء، لا بفعل الرغبة العابرة، او الهجرة المؤقتة، او الاغتراب الذي من الممكن ان تدركه وتعانيه هذه الشخصيات في امكنتها الاولى. **أوجب اعتماد القاص** على ثيمة (الرؤيا) الكابوسية كبديل يستحضر من خلاله مفردات الإقصاء، من مكان لا نعرف عنه سوى صفته الكابوسية، وشخصيات بلا ملامح **قارة؟** سوى شخصية السارد، الذي يصلنا صوته عبر ضمير المتكلم، خافيا اسمه في احيان كثيرة، ومصرًا في اللحظة ذاتها على استدعاء اشخاص لم يبق منهم سوى كناهم، التي تجلب معها الكثير من الاخيلة واسئلة لا تلبث ان تتكرر بتكرير مسوّغاتها. وإذا كان التعميم الذي يمارسه القاص على شخصياته في هذه القصص، كجزء رئيس من بنيتها الكابوسية، ينسجم، الى حدٍ ما، مع بنيات القصة القصيرة، التي لا تحبذ الإطالة، لأن مثل هذا الامر يؤدي بها الى مراكمة الاحداث، وملاحقتها عبر شخصيات تستدعي بيئاتها الاجتماعية والثقافية، مما يخرج السرد إلى الرواية ومظانها. فإن إصرار غالب هذه القصص على

ادراج احداثها وازمنتها ضمن بنية (الرؤيا) الكابوسية، وتكريرها من قصة الى أخرى، وأن تقع هذه الرؤيا في أمكنة عديدة سمتها الطاغية، فضلاً عن كونها عائمة وغير محددة، انما المنفى الذي أقصي اليه السارد.

هذا الامر لابد أن يدفعنا إلى إعادة توصيف هذه القصص، وموقعها ضمن **أدب عراقي** منشغل حد الهوس بـ (الخارج) الذي هاجر اليه، او اغترب فيه، او أقصي اليه. الحق إن هذه الموضعة تدفعنا الى تدقيق طبيعة العلاقة التي أقامها، ولا يزال، الكاتب مع المكان الذي (انتقل) اليه، ومدى صلته بمكانه الاول، الذي (انتقل) منه؛ هذه الموضعة مهمة، برأينا؛ لأنها تقرّبنا كثيراً من **إشكالات هذا الأدب**، وتوصيفه حسب العلاقة السابقة، كونه منفى، او مهجر، او خارج. لا تخفي هذه القصص صلتها المقلقة بالمكان البديل، الذي يوصف ابتداءً بأنه (منفى)، ثم يعاد تشكيله ثقافياً بأنه الحاضنة لكوابيس لا تنتهي.

إذن نحن إزاء قصص تعدد الى تسمية مكانها البديل بانه (منفى) وأنها – أي هذه القصص – محض كوابيس لا يمكن فهمها من دون إدراك الفعل القسري الذي يمارسه المنفى على قاطنيه، وربما يكون لجوء القاص الى تقنية (الرؤيا – الحلم) احدى اهم مظاهر هذا القسر، وترحيلها من قصة الى اخرى، إذ يبدو فعل الإقصاء شاملاً بإلغاء أي دور للشخصية – السارد، وقذفه الى مساحة ضيقة، يبدو من خلالها نائماً أو فيما هو بحكمه. يتم استحضار حركات وسكنات الشخصية عبر ذاكرة تستدعي الكثير من متعلقات المكان الاول، في سعي لإبطال ما تسميه (فاطمة المحسن) عقوبة النفي، ولكنها لا تعمد، أبداً، إلى توصيفه. نلاحظ هذا الأمر في قصص (ذاكرة البحر) و (الواحة الخريفية) و (مدرسة السياقة) و (الغيوم) و (الهروب) و (العينان الدائريتان) و (المهاجر) و (لقاء في مكتب اللاجئيين) و (حكم الإعدام)، فهي جميعاً تعتمد على ثيمة (الرؤيا – الحلم) في متابعة احداثها. وإذا علمنا إن هذه المجموعة تتكون من ثلاث عشرة قصة، فاننا نكون ازاء بنية مهيمنة. ويمكننا، بلحاظ تسمية المكان البديل بانه منفى، ان ندرج القصص الاربع المتبقية، وان اختلف بناؤها، بغيرها من قصص هذه المجموعة في بنيتها الرئيسية، وخضوعها، من ثم، لبنية مهيمنة، تقرر التشهير بالمكان البديل بوصفه منفى.

نستطيع أن نلمس في القصص التسع الأولى دأب السارد على ملاحقة مكانه الأول عبر ذاكرة يقظة. وان تشكلت وتلبست بثيمة (الحلم - الرؤيا). وقد نعید القول إن السارد لا يستحضر المكان بذاته، قدر ما تلح عليه بعض انماط التكلم، وبعض بناء الثقافية.

ففي قصة (ذاكرة البحر)، والعنوان ذو دلالة واضحة، لا نكاد نجد للمكان الأول من أثر، تتشكل القصة بتداخل لا تفضيه سوى النهاية، بين ما يحدث في الواقع كأحداث يتم تقديمها عبر منظور السارد، وما يحدث في الحلم. ومما يزيد الأمر اشتباكاً جنوح السرد أثناء الحلم الى التشبث بمرجعياته، جاعلاً من الرؤية شائثة وغير ذات دلالة (هل كان الكابوس يحمل من دلالة غير صفته القسرية !!). ومثلما غاب المكان الأول، فاننا، كذلك، لا نعثر في هذه القصة على توصيف ملموس للمكان البديل، فلا تشكل بعض الاوصاف اللغوية التي يمكن ان تعثر عليها في القصة، مكاناً ذا ملامح ثقافية. والملفت للانتباه ان معظم هذه الاوصاف يجري رصدها وتشخيصها من قبل ساكن المكان الأول. وهي، ايضاً، تبدو كمحفز لتذكر الفعل الثقافي الذي انجز في المكان الأول، من خلال ذاكرة السرد حيناً، وذاكرة السارد حيناً آخر. **يمكننا أن نلاحظ** أن السرد يجلب معه، فضلاً عن ذاكرة السارد، ذاكرة اضافية تعمل على اعادة تائيث المكان البديل بمطازن المكان الأول، ويشمل هذا طريقة التلطف التي لا يمكن اختزالها الى محض فعل كلامي دون إدراك صلتها العميقة بالمكان الغائب (الأول).

وباستبدال الحلم بالواقع، وتغير نوعية الإحالة ما بينهما، تحقق قصة (الواحة الخريفية)، وهي القصة الثانية في المجموعة، اختلافاً نوعياً في توظيفها لثيمة الحلم - الرؤيا. فالقصة تتشكل عبر حلم واحد دونما تداخل مع سرد يقع خارج الحلم. وتحقق، خلافاً للقصة السابقة التي يحيل واقعها الى رؤيا ثم الى اليقظة، إحالة مختلفة بإضفاء صفة الكابوسية على واقع (يسترجع) الشخصية من حلمها، دون أن يعني هذا تجريد (الرؤيا) من صفات (العجائبية)، التي تسقط فيها بلا مسوغ، وهي احدى إرغامات الإقامة المضطربة في مكان يوصف، ابتداءً، بأنه منفى. في قصة (مدرسة السياقة)، ولعلها من أجمل قصص المجموعة، يتخلص السرد، ولو الى حين، من اضطراب توصيفاته جراء هيمنة العجائبي المتحققة بفعل ثيمة الحلم - الرؤيا، وينزع إلى إجراء

محايت، وهو السخرية التي تقترب به، عبر لغة ترتدي لبوس الخطاب الرسمي، من المرويات الشعبية في وصف شخصيات بعينها.

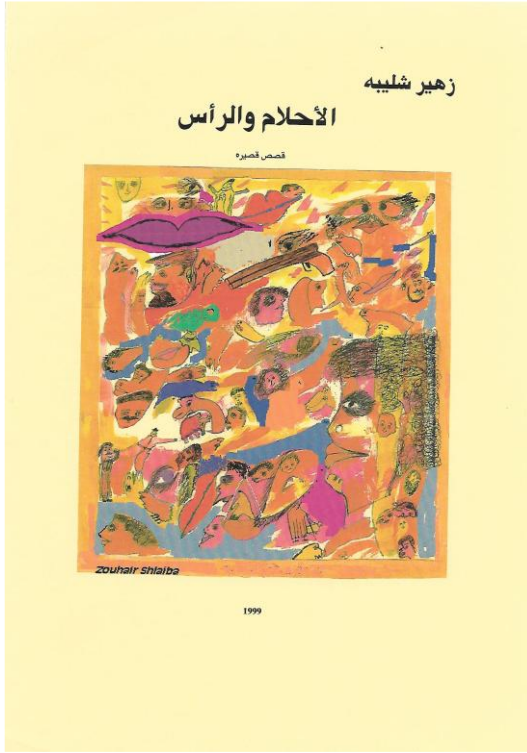
بنداح معها السارد في لغة شعبية لاذعة تحمل روائح عدة لامكنة مختلفة، من العراق وبلاد الشام، ولكنها تظل، أبداً، قريبة من رائحة واحدة، هي، ولا شك، رائحة مكان تشكله انماط التكلم والحكي، وتستدعيه ذاكرة محمومة تحفق في توصيفه، لكنها لا تلبس من ملاحظته ... إنه العراق. تعيدنا قصة (الغيوم) إلى الآلية السابقة، حيث يهيمن الحلم الذي لا يلبث ان يتحول الى كابوس، يتم فيه استثمار عنوان القصة (الغيوم) لجلب بنايات حكاية عديدة، تعمل على جعل السرد ذي حركة حلزونية تنتهي باضطراب المخيلة، إذ تشبك النبي الحكائية السابقة مع بعضها، وتختلط التفاصيل في نسج سردى، هو، أقرب الى الشتات منه الى الالتئام بفعل الانتقال الى بنية مغايرة أخذت بإرباك منظور الشخصية.

تسجل هذه القصة تراجع الأوصاف المكانية ذات الدلالة على مكان ثقافى، لصالح انشغالها بثيمة العنوان. على أن هذا لا يعني إفقار السرد من الإحالة الى أمكنة مختلفة، روسيا، العراق، ثم خاتمة القصة بتوصيف دال من خلال الفسحة الصغيرة في ستارة شبك يطل على فضاء مكان غطته الثلوج. إنهما أوصاف سريعة، وعابرة، لا تتوقف عندها القصة، ولا تنشغل بها، قدر أهمائها بتداعي الشخصية في مكان مقتضب لا يثير اهتمامها، وهي، من ثم، تهرب منه الى ذكرياتها، جاعلة من (الغيوم) مفتاحاً تلج بواسطته أغوارها.

إن خفوت المكان وعدم فاعليته، وبالتالي، تأثيره الملموس على الشخصية، يدفعها إلى التشبث بأمكنة، بعضها يعود الى سني الطفولة، وآخر الى سني الدراسة، في سعي لاستعادة ألفة مفقودة. ولا نقصد بما الألفة مع مكان طارىء، وإنما المكان ذي النسق الثقافى المختلف. ولعلنا نجد في قصة (الهروب) مصداقاً لما نعتقد. فهي تستخدم على شاكلة القصة السابقة ثيمة الحلم - الرؤيا. وتعمد، أيضاً، الى إحالة الحلم - الكابوس الى مرجعيات اليقظة التي تنتهي بها القصة. ولكنها تسجل، من جهة اخرى، استخداماً مذهباً لتقنيات السرد الموضوعي من خلال السارد المراقب، الذي يتابع ما يحدث دون ان يكون له صلة به. فهو محض مراقب

يسجل عزلته من خلال رصد حركات الآخرين الظاهرة بلا تأويل يحيل الى معرفة مسبقة قد تشعرنا بانتماء السارد الى ما يحدث، أو صلته المفترضة به. تبدأ القصة بجملة تقريرية مباشرة (يبدو ان الجميع كان ينتظر. ماذا ينتظرون؟ لا أحد يمكن له الإجابة على هذا السؤال قبل ان يتمعن كثيراً ببيئاتهم والأشياء التي يحملونها معهم. يبدو انهم كانوا ينتظرون قدوم حافلة..). تغيب في هذه القصة الشخصية التي ترى، أو، التي تتكلم، وتجعل منها مراقب في حلم يتم تقطيعه، وتقديمه على دفعات تتخذ طابعا مضطربا يسלט فيها الضوء على شخصية اخرى يتكرر ظهورها بصور مختلفة. إنها عزلة السارد - الشخصية المراقبة في مكان بلا ملامح. وأيا كان اشتغال القصص الأخرى في هذه المجموعة على ثيمات النفي والإقصاء، الذي نأمل ان نقف عنده في مناسبة اخرى، نعلم فيها الى تأويل دلالة (الرؤيا) في القصة العراقية المغتربة، لا سيما وان (الرؤيا) قيمة ثقافية ذات ارث تاريخي عريق في القصة العراقية، منذ بداياتها الأولى وحتى (رؤيا) محمد خضير وجليل القيسي وغيرهم، ممن عاد حديثا لتوظيف هذه القيمة في القصة العراقية القصيرة، بلحاظ الفارق في القصد بين قصة عراقية شكَّلتها الذاكرة في مكان يستبدله القاص، أو يجبر عليه، وقصة عراقية أخرى تستبدل (الرؤيا) بواقع متهم. نقول إنه مهما اختلفت القصص الأخرى، وتباينت فيها زوايا النظر، فإنها تعتمد عن قصد كجزء من اجرائها السردي الى توصيف دلالي لإخفاها في تمثّل المكان البديل، وإخفاها في توصيف مكانها الأول، ويغدو انغماسها، وتشكّلها ضمن بنية حكاية مغايرة، هي بنية الحلم - الرؤيا، إدانة مسبقة للمكان البديل فهي تهرب منه الى الحلم، لكنه ينجح في الضغط عليها ليحول الحلم الى كابوس.

*د. حمزه عليوي، استاذ جامعي عراقي



غلاف قديم للمؤلف مستوحى من مجموعة "الأحلام والرأس" (كوايس المنفى)
موقع القصة العراقية 1997

Zouhair Shlaiba

كوابيس المنفى

**The Nightmares of Exile
Short Stories**

**Eksilets mareridt
Novellesamling**

شرق غرب للنشر

**Sharq Gharb Publishing House
ISBN: 978-87-971329-6-8
Denmark
2026**

زهير ياسين شليبه
كوابيس المنفى



شرق غرب للنشر

لوحة الغلاف للفنان العراقي المعروف هادي الصكر

مستوحاة من قصص مجموعة "كوابيس المنفى"